كتاب الشعب
٦٤

دائرة معارف الشعب



مجلة الابتسامة

الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة ، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل وسيطرة العادة ، والتبجيل المفرط لمفكري الماضي
إن الأفكار الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

حصريات مجلة الابتسامة
** شهر أكتوبر 2018 **
www.ibtesamah.com/vb

التعليم ليس استعداداً للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

كتاب الشعب
٦٤

دَائرة مَعَارِف الشَّعْب

مطابع الشعب
١٩٥٩

تنزع هذه الورقة حين يضم الكتب الستة مجلد واحد

العمارة المدنية بالأندلس

الدار الأندلسية

يستجيب النظام المعماري للدار الأندلسية ومظهرها الداخلي والخارجي عادة ، الى عدة عوامل جغرافية : كدرجة حرارة المكان ، والموقع الذي تقوم عليه الدار . ولقد افتتح المسلمون في الأندلس مدنا مزدهرة العمران ، وشاهدوا أبنية تختلف عما شاهدوه في المشرق بهرتهم عمارتها . وكان لا بد لهم أن يعيشوا في دورها حتى تتهيأ لهم الوسائل لبناء دور خاصة بهم .

ولم يكد يمضي على فتح الأندلس نصف قرن حتى شهدت حركة معمارية ضخمة ، في عهد الأمير عبد الرحمن الداخل وبنيه من بعده : ونخص بالذكر منهم عبد الرحمن بن الحكم ، وعبد الرحمن الناصر ، والحكم المستنصر . فأقيمت في عهدهم أبنية تخضع لنظام الدور السابقة على الفتح الاسلامي . ثم تطور هذا النظام بالتدريج بطبيعة الحال ، متأثرا في تطوره بنظام المسجد الذي يعد أساسا لكل الأبنية الاسلامية . ولم تتخذ الدار في الأندلس طابعا أندلسيا خاصا الا منذ عهد ملوك الطوائف . وبمرور الزمن أدرك نظام الدار الأندلسية ذروة اتقانه في عهد الموحدين وعصر دولة بني نصر .

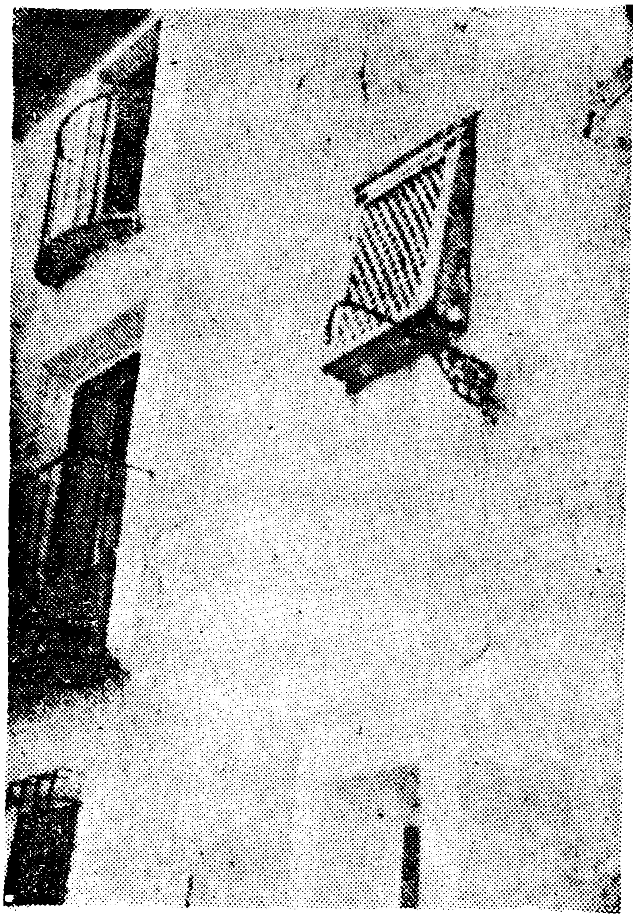
ولقد وصف ابن سعيد المغربي دور الأندلس بأنها « في غاية الجمال لمبالغة أهلها في اوضاعها وتبييضها لئلا تنبو العيون منها » . وأضاف : « انني تعجبت ، لما دخلت الديار المصرية ، من أوضاع قراها التي تكدر العين بسوادها ، ويضيق الصدر بضيق أوضاعها » . كذلك أثنى الشقندي ، في رسالته عن فضائل الأندلس ، على المباني الأندلسية فقال : « أما مبانيها فقد سمعت عن اتقانها واهتمام أصحابها بها ، وكون أكثر ديارها لاتخلو من الماء الجاري والأشجار المتكاثفة ، كالنارنج والليم والليمون والزنبوع وغير ذلك » .

وكان البيت الأندلسي يتألف من جزءين أساسيين : الواجهة الخارجية ، وداخل البيت .

الواجهة الخارجية : كان المظهر الخارجي للدار عادة متواضعا ، عاطلا من الزخرفة ، يتناقض مع مظهره الداخلي الزاخر بالزخارف والتنميقات . ذلك أن أهل الأندلس كانوا يبنون دورهم لأنفسهم كي يتمتعوا بالحياة داخلها . ثم ان المرأة الأندلسية كانت تؤثر دائما البقاء داخل بيتها فلا تخرج الا نادرا ، فحياتها وثيقة الصلة بداخل الدار . ومن هنا كان من الضروري تزيين داخلها بالزخارف الرائعة ، حتى تعوض للمرأة ما كانت تفقده من بقائها رهينة دارها .

وكان مدخل الباب في دور الأثرياء يفضي الى أسطوان أو ردهة ، وتؤدي الردهة الى البهو أما المدخل في الدور العادية ، فكان يتصل بممر منكسر على شكل زاوية قائمة ، حتى لا تتاح للمارة في الطريق رؤية من بداخل الدار وما يجري فيها

وظهر في دور بني نصر ، التي ترجع الى أواخر القرن الثالث عشر ، طابع جديد لواجهة المدخل غنية بالزخرفة ، اذ يعلو المدخل في العادة عتب ثم يعلو العتب نافذة مزدوجة ، ويكتنف المدخل من كل من جانبيه عمود ملتصق بالجدار يعلوه مسند (كابولي) ، نصفه الأدنى من الجص ، والأعلى من الخشب المنقوش . ويستقبل هذا النصف العلوي من المسند أحد طرفي ظلة بارزة من الخشب ، وظيفتها حماية الزخارف الجصية الملونة والزليج الذي يكسو ازار واجهة المدخل .



شباك مشرجب بأحد منازل مدينة السهلة

وكانت الواجهة الخارجية للدار تزود فى بعض الأحيان بشراجيب أو شماسات ، أى نوافذ بارزة تشبه الشرفات ، تعلو فتحة الباب . وتغطى هذه النوافذ شبكات من الخشب تتيح للمرأة رؤية المارة دون أن يراها أحد من الخارج . وكانت هذه الشراجيب البارزة عن الجدران تساهم فى تضييق الحارات وزيادة حلكتها ، ولكنها فى الوقت نفسه كانت تخفف من حرارة شمس الأندلس ، وتمنح النساء المحجبات فرصة التمتع بما يجرى خارج الدار دون أن يراهن أحد من السابلة .

وقد عرفت مصر هذا النوع من النوافذ تحت اسم مشربية ، وهو تحريف ظاهر من كلمة مشرفية ، أى التى تشرف منها النساء . وما زالت ذكرى الشراجيب ماثلة فى شرفات الدور الأندلسية فى الوقت الحاضر ، وعلى الأخص فى مدن رندة واشبيلية والسهلة .

وبالاضافة الى الشراجيب كان يطل على الشوارع — بطول الواجهة — حجرة كبيرة بارزة تحملها مساند تسمى الغرفة البرانية ، وبالاسبانية (Algorfa albaranna) . ويغلب على الظن أن انتشارها كان بسبب رغبة الأهالى فى استغلال الأرض التى تبنى عليها الدار أقصى حدود الاستغلال ، الا أن هذه الغرف كانت تجعل من الشوارع الأندلسية ممرات مسقوفة تحجب الضوء وتخفف حرارة الجو .

داخل البيت : كان يتوسط الدار الأندلسية بهو مربع يمده بالهواء والضوء . ويصفه المؤرخ الاشبيلى آلونسو مورجدو (الذى عاش فى القرن السادس عشر) فى بعض بيوت اشبيلية فيقول : « وللأبهاء التى لا تخلو منها دار ، أرضية من الآجر المحكوك ، ويكسوها الأغنياء بالزليج ، ويحيطونها بأعمدة الرخام ، وكانوا يعنون كل العناية بتنظيفها . وكثيرا ما تغطى هذه الأبهاء بظلات من النسيج فى الأوقات التى تشتد فيها درجة الحرارة ، فيلطف الزليج والرخام من حرارة المكان . وأكثر من هذا وذاك كانوا ينصبون نافورة مياه فى وسط الأبهاء ، ويغرسونها بأكارم الأشجار . أما البيوت التى يتعذر على أصحابها عمل ذلك ، فقد كانوا يستغنون عن ذلك بآبار مياه » .

والواقع أن هذا الوصف — رغم تأخره فى التاريخ — يعبر عما كانت عليه أبهاء الدور الأندلسية فى العصر الاسلامى ، حيث كان لكل دار بهو تتوسطه نافورة ينطلق منها الماء فيرطب المكان ، وتهدأ لرؤيته النفوس ، أو تتوسطه بئر تحيط بها أشجار وأزهار ، كما كان الحال فى المدن التى تخلو من قنوات المياه ، مثل مالقه وطليطلة واشبيلية ، فى عصر بنى عباد والمرابطين .

وكانت بالأحياء التجارية فى الأندلس دور صغيرة تتألف من طابق واحد ، وأحيانا من غرفة واحدة تعلو عادة أحد الحوانيت التجارية . وكان يصعد الى هذه الغرف العليا من طريق فتحة بجوار باب الحانوت ، يخرج منها درج يصل بين الحانوت والغرفة . وكانت هذه الغرفة تستقبل الضوء من منافذ صغيرة تشبه منافذ السهام التى ترى فى أسوار المدن والقلاع . وكانت هذه الغرف تسمى بالمصارى (مفردها مصرية) ، وما زالت اللغة الاسبانية تحتفظ بهذا الاسم العربى (Almaceria)

وتذكر الوثائق الاسبانية التى تبعت سقوط المدن الاسلامية — بمناسبة توزيع الدور الأندلسية على الفاتحين الاسبان — أن كثيرا من هذه الدور كانت تشتمل على اصطبلات ومطابخ ملحقة بفناء الدار .

ولدينا من الدور الاسلامية أمثلة مادية بقيت فى بعض المدن ، ومن هذه الأمثلة دار اسلامية بمدينة غرناطة ، من القرن الخامس عشر ، حفظت حتى أواخر القرن الماضى ثم هدمت . وكانت تتألف من بهو مربع : طول كل جانب منه خمسة أمتار ، وتدور الغرف حول هذا البهو . وبكل من الجانبين الشمالى والجنوبي ممر يطل على البهو بثلاثة عقود أو أقواس قائمة على أعمدة . كما حفظت الزخارف التي تكسو الجدارين الشمالى والجنوبي اللذين يطلان على الممرين السابق ذكرهما ... هذه الزخارف جصية هندسية ونباتية بينها عبارات « لا غالب الا الله » ، « لا اله الا الله » . وكلها محفورة فى الجص .

وكان باب الدار ينفذ فى الجدار الشمالى المطل على الفناء ، تعلوه ثلاث نوافذ أقواسها نصف دائرية . وتكسو هذه النوافذ شبكات جصية من الزخرفة الهندسية . وتشغل الفراغ بين هذه النوافذ



فوهة بئر من الفخار المزجج من طليطلة

توريقات غاية فى الروعة والجمال ، ويحيط بالنوافذ اطار مستطيل به افريز كتابى تتكرر فيه عبارتا « العزة لله » و « البقاء لله » .

وعثر فى المرية على أساس لدار تقع على الطريق المعروف بشانكا . وقد زينت جدرانها بزخارف من أشرطة ملونة متقاطعة فى أشكال هندسية رائعة . وترجع هذه الدار الى القرن الرابع عشر .

ووصف لنا « جيين روبلز » فى كتابه « مالقة الاسلامية » دارا يرجع تاريخها الى عصر بنى نصر . وذكر روبلز أنها مستطيلة الشكل تتألف من طابقين : أحدهما سفلى ، والآخر علوى ، وينفتح مدخل الدار فى واجهته ... ويتوسط الدار بهو مكشوف تحيط به أروقة مسقوفة تطل على البهو ببوائك من ثلاثة عقود أو أقواس قائمة على أعمدة ، وتتوزع الحجرات على هذه الأروقة .

وفتحة الباب على شكل عقد متجاوز لنصف الدائرة تحيط به تربيعة من الآجر ، وتملأ بنيقات العقد زخارف من سيقان نباتية ملفوفة . وكان يسقف الحجرات لوحات خشبية تتخذ شكل هرم ناقص .

القصر

لما افتتح المسلمون الأندلس أقام رؤساؤهم فى القصور الكبرى بالمدن المفتوحة . وتروى أخبار الفتح الاسلامى أن مغيث الرومى — القائد الذى افتتح مدينة قرطبة — أقام فى قصر أمير قرطبة القوطى ، وهو القصر المعروف ببلاط قرطبة . غير أن موسى بن نصير رأى أن هذا البلاط أنسب لأن يكون مقرا لوالى قرطبة ، فمنح مغيثاً دارا تشرف على باب الجزيرة ، أو باب القنطرة المقابل للثلمة التى دخل منها مغيث عند فتحه لقرطبه . وكانت « دارا شريفة ذات سقى وزيتون وثمار ، يقال لها اليسانة ، كانت للملك الذى أسره ، وكان له فيها بلاط منيف شريف ، فهى تسمى بالأندلس بلاط مغيث » .

وكان لكل مدينة مفتوحة قصبة بداخلها قصر يحكم منه الأمير رعيته . وقد استولى المسلمون على هذه القصاب ، مثل : قصبة غرناطة ، وقصبة أريولة حاضرة كورة تدمير ، وقصبة باجة .

ولم يشرع المسلمون فى بناء قصورهم الا فى عهد بنى أمية ، وهو العصر الذى نبتت فيه الفنون الاسلامية الأندلسية . فما كاد عبد الرحمن بن معاوية يستولى على الامارة بالأندلس حتى رأى أن يحبط نفسه بهالة من فخامة الملوك وأبهة الخلفاء ، فقامت حركة معمارية قوية بالبلاد [١] ، ونشطت هذه الحركة فى عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر ، الذى نالت الأندلس على يديه من المجد الرفيع والازدهار ما نالت ، حتى بلغت مستوى من الرخاء والثراء لم تبلغه الأمم الأخرى . كذلك اشتدت حركة البناء فى عهد ابنه الحكم المستنصر ، والمنصور بن أبى عامر .

ويعد عصر ملوك الطوائف ، الذى تبع عصر الخلافة الأموية ، أزهى عصور العمارة المدنية على الاطلاق ، اذ حرص هؤلاء الملوك على الانغماس فى حياة الترف ، فبلغوا فى الرقة الغاية ، وأقاموا القصور الشاهقة والآثار الجليلة الرائعة . وقد بالغ المؤرخون العرب فى وصفها . ومن أهمها : قصر الناعورة بطليطلة ، وقصر الجعفرية بسرقسطة ، وقصر القصبة بمالقة ، وقصر الصمادحية بالمرية ، وقصر الشراجيب بشلب .

وكنا نجهل ماكانت عليه عمارة القصور الأندلسية فى عصر المرابطين ، حتى أمكن الكشف عن بقايا قصير منتقوط فى سهل مرسية ، فزودتنا بمعلومات وافية عن نظام هذه القصور .

أما عصر الموحدين فكان من أزهى العصور فى البناء والتشييد ، فقد أقاموا القصور فى غرناطة وقرطبة ومالقة واشبيلية . ونوهت كتب التاريخ بما بذله أبو يوسف يعقوب من بنائه قصر البحيرة خارج باب جهور ، من أبواب اشبيلية ، ومده له بالمياه من قلعة جابر (قلعة وادى أيرة) ، ومن تشييده للقصر الموحدى بقصبة اشبيلية . وكذلك كثر بناء القصور فى عصر بنى نصر بغرناطة . وليس أدل على ذلك من ذكر قصر الحمراء ، وقصر البرطل ، وقصر جنة العريف .

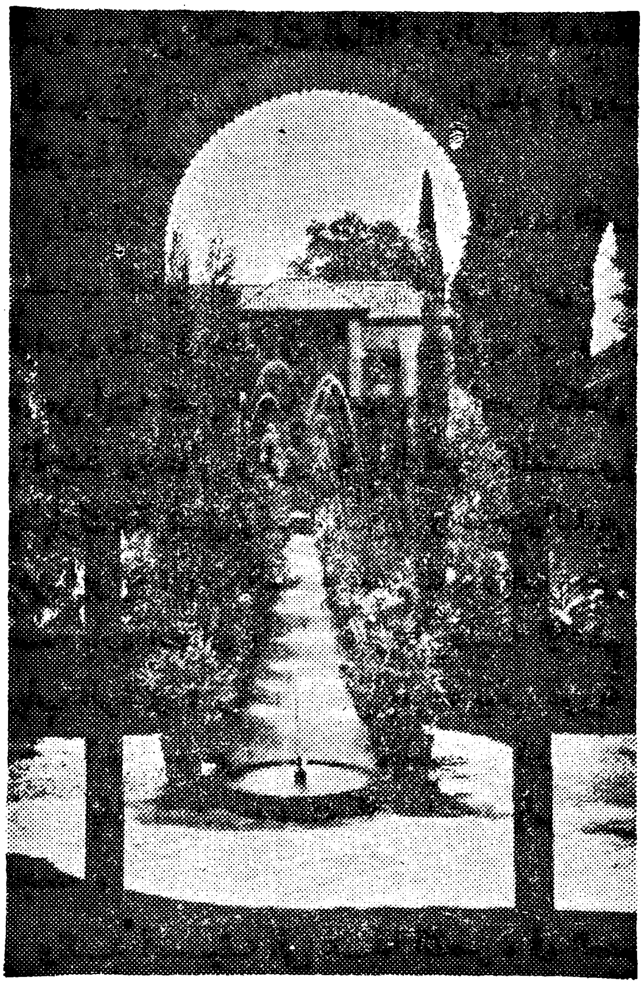
قصور قرطبة فى عهد بنى أمية

كان الخلفاء من بنى أمية وأمراؤهم يشيدون قصور الحكم بجوار المساجد الجامعة ، وكانوا

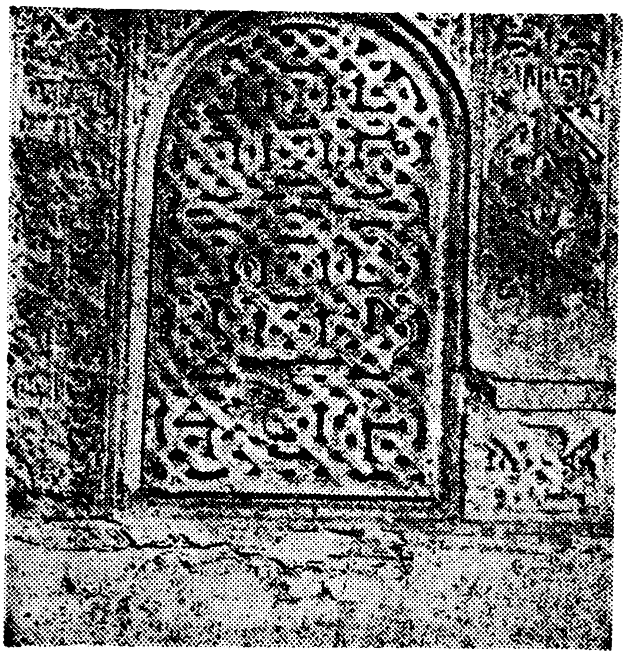
(١) من بين القصور التى اقيمت ، فى عهد امراء بنى امية ، قصر أبى دانس بالبرتغال ، وقصر عمروس بطليطلة .

يطلقون عليها اسم « دور الامارة » . على أنهم كانوا يلتمسون الراحة فى بعض الأحيان ، فيعمدون الى بناء قصور للراحة واللهو بعيدا عن الحاضرة ، ليتمكنوا من الاستغراق فى الترف ، والاستنامة الى حياة اللهو والنعيم التى لاتتاح لهم فى مقر الحكم بالحاضرة .

وكانت هذه القصور تتخذ مظهرا عمرانيا شديد الشبه بالمدن الصغيرة . فقد كانت تتألف من قصور الأمير وأفراد حاشيته وخاصته ، ومن متنزهات ومحال للوحوش فسيحة ، ومسارح للطيور مظللة بالشباك ، وأسواق وحمامات وفنادق ، ودور للصناعة ومساجد . غير أن حياة هذه المدن الملكية كانت موقوتة ، فما أسرع ما كانت تنتهب وتسلب على أثر سقوط الأسرة الحاكمة ، كما حدث فى مدينة الزهراء ومدينة الزاهرة ومنية العامرية . ويغلب على الظن فى أسباب تخريب هذه القصور أن الاسلام يستهجن اضفاء معنى الأزلية على البناء ... فالدوام لله فقط . وبناء قصور لها صفة الخلود ، أمر خارج عن الدين ، ويشف عن تحد للألوهية .



بهو النافورات بقصر جنة العريف بغرناطة



تفصيلات زخرفية باحدى نوافذ منزل اسلامى بغرناطة

(١) قصر الامارة : قال عنه ابن بشكوال : « هو قصر أولى تداولته ملوك الأمم ... وفيه من المبانى الأولية والآثار العجيبة — لليونانيين ، ثم للروم والقوط والأمم السابقة — ما يعجز الوصف . ثم ابتدع الخلفاء من بنى مروان — منذ فتح الله عليهم الأندلس بما فيها — فى قصرها البدائع الحسان . وآثروا فيه الآثار العجيبة والرياض الأنيقة . وأجروا فيه المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة . وتمونوا المؤن الجسيمة حتى أوصلوها الى القصر الكريم ، وأجروها فى كل ساحة من ساحاته وناحية من نواحيه فى قنوات الرصاص ، تؤديها منها الى المصانع (الأبنية المختلفة) صور مختلفة الأشكال : من الذهب الابريز ، والفضة الخالصة ، والنحاس

المموه ... الى البحيرات الهائلة ، والبرك البديعة ، والصهاريج الغريبة ، فى أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة » .

وأضاف ابن بشكوال قائلا : « وفى هذا القصر القصاب العالية السمو ، المنيفة العلو ، التى لم ير الراءون مثلها فى مشارق الأرض ومغاربها » . وذكر أن من أبنية قصر قرطبة المشهورة : قصر الكامل ، والمجدد والحائر والروضة والزاهر والمعشوق والمبارك والرشيق وقصر السرور والتاج والبديع . ومن أبوابه : باب السطح المشرف ، وباب جنوبى اسمه باب الجنان يشرف على الرصيف الأعظم ، وباب الوادى ، وباب شمالى يعرف بباب قورية ، وباب آخر — يعرف بباب الجامع — كان يؤدى الى ساباط الجامع ، ومنه كان يدخل الأمراء يوم الجمعة .

ولقد أضيف الى هذا القصر ، فى العصر الاسلامى ، اضافات متتالية . ولما استولى فرناندو الثالث على قرطبة سنة ١٢٣٦ ، أعطى هذا القصر الى أسقف قرطبة ، فسمى منذ ذلك الحين بالقصر الأسقفى (Palacio Episcopa) وأصيب هذا القصر بأضرار جسيمة على مر العصور ، اذ أحرق عدة مرات . ثم حوله الأسقف دون سانشو دى روخاس ، فى القرن الخامس عشر ، الى قصر من الطراز القوطى . ثم هدمت الواجهة الجنوبية فى السنوات الأولى من القرن السابع عشر ، وأحرق القصر سنة ١٧٤٥ ، ولم يتبق منه اليوم سوى الجدار المقابل لجدار الجامع وجزء من الجدار الشمالى للقصر ، فما زالا يحتفظان بنظام جدران جامع قرطبة نفسه ، بما فى ذلك الركائز التى تدعم الجدران وتدفع عنها الضغط .

(ب) قصور الراحة واللهو : أقام عبد الرحمن الداخل — فى أول أيام امارته عام ١٣٨ هـ — قصر الرصافة على بعد كيلو مترين شمال غربى قرطبة ، وسماه باسم رصافة جده هشام بدمشق ، وجعله خاصا لنزهه وسكناه أكثر أوقاته . وأحاط هذا القصر بالجنان الواسعة : غرسها بأكارم الشجر ، وأودعها ما كان يستجلبه له يزيد وسفر رسولاه الى الشام ، من النوى المختارة والحبوب الغريبة ، حتى نمت هذه الأشجار ، بحسن التربية والتعهد ، فى زمن قصير ، وأصبحت أشجارا معتمة أثمرت أجود أنواع الفواكه وأطيبها . وانتشرت هذه الثمار فى أرض الأندلس ، فاعترف بفضلها على أنواعها . وأصل الرمان السفرى ، الذى فاض على أرجاء الأندلس ، وأصبح الناس لايفضلون عليه سواه ... من هذه الرصافة . وسمى بالرمان السفرى نسبة الى سفر رسوله الى الشام لاحضار أخته .

ومن بين الزراعات التى أدخلت فى الأندلس ، زراعة النخيل . وكان عبد الرحمن الداخل أول من غرس نواة النخل فى الرصافة ، فكبرت فى عهده ، ونظراليها يوما فهاجت الذكريات فى نفسه ، وتذكر بها وطنه فقال :

تبدت لنا بين الرصافة نخلة
تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل

فقلت : شبيهى فى التغرب والنوى
وطول ابتعادى عن بنى وعن أهلى

نشأت بأرض أنت فيها غريبة
فمثلك فى الاقصاء والمنتأى مثلى !

وأصبحت منية الرصافة — بعد سقوط قرطبة — مقرا للآباء الفرنسسكان ، وتبقى منها اليوم بعض آثار جدران وقاعات . وفى جوف هذه الجدران باب يؤدى الى طريق فى باطن الأرض يقال انه كان يصل بين قرطبة والرصافة ، وان هذا الطريق كان يرتاده الأمير عبد الرحمن متى شاء لنفسه الراحة

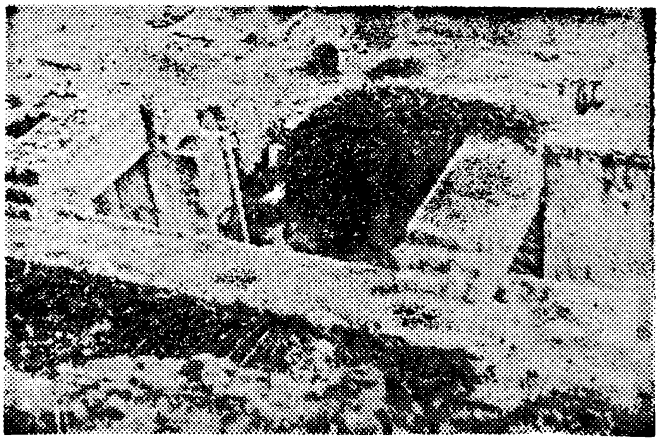
واللهو بعيدا عن أنظار رعيته بالحاضرة . وما زالت فى الرصافة نخلة قدم عليها العهد حتى تآكلت أجزاء منها ، يقال انها نخلة عبد الرحمن الداخل . وتذكر هذه النخلة — سواء صدقت الرواية الاسبانية أم لم تصدق — بما كان لهذا القصر من روعة وبهاء .

وبقرطبة قصر آخر شيده عبد الرحمن بن معاوية ، وأضاف اليه بنو أمية وزخرفوه ، وذهبوا سقفه وفضضوها ، ورخموا أرضه وروضوها ، وأبدعوا بناءه ، ونمقوا ساحته وفناءه ، واتخذوه ميدان مراحهم ومضمارا لانشراحهم ، وحاكوا به قصرهم بالمشرق .

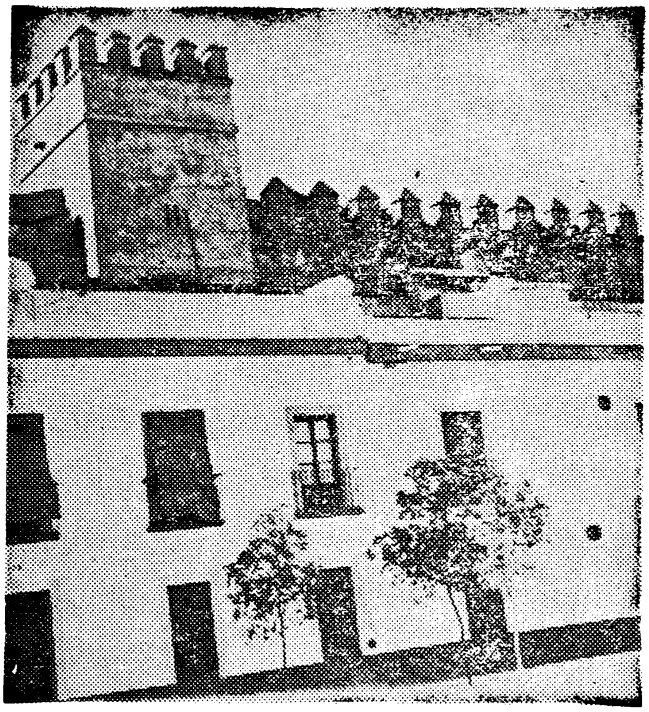
وفيه قال ابن عمار :

كل قصر بعد الدمشق يذم
فيه طاب الجنى وفاح المشم
منظر رائق وماء نمير
وثرى عاطر وقصر أشم
بت فيه ، والليل والفجر عندى
عنبر أشهب ومسك أحم

ولما تولى الأمير عبد الرحمن بن محمد الامارة بقرطبة سنة ٩١٢ م ، وتلقب بألقاب الخلافة سنة ٩٣٢ م ، ونالت الأندلس على يديه من المجد الرفيع والازدهار مانالته ، حتى بلغت مستوى من الرخاء لم تبلغه الأمم الأخرى ... رأى



بقايا قاعة من قصر الخلافة بمدينة الزهراء



اسوار القصر باشبيلية ترى من بهو البنود

أن يبنى له قصرا يليق بجلال الخلافة وبهائها ، فبنى قصر الزهراء على بعد خمسة أميال غربى قرطبة وقد ذكرنا قصور الزهراء عندما تحدثنا عن هذه المدينة .

وأقام محمد بن أبى عامر ، على نهر الوادى الكبير بالقرب من قرطبة ، قصرا سماه بالزاهرة . وشيدت الى جواره عدة قصور وثكنات للجند ، حتى أصبح هذا القصر نواة لمدينة سميت بالزاهرة . وقد توسع المنصور فى تخطيطها ، وبالغ فى رفع أسوارها : فاتسعت المدينة ، وكمل بناؤها بعد عامين . وانتقل اليها المنصور بن أبى عامر سنة ٩٨٠ ، واتخذ فيها الدواوين . وبنى كبار قواده ورجال حاشيته عظيم الدور وشاهق القصور ، وقامت بها الأسواق ، وكثرت الأرفاق ، وأحاطها بالمنيات والجنات ، مثل : منية السرور ، ومنية العامرية . واشتد ملك ابن أبى عامر منذ نزل قصر الزاهرة ، وتوسع مع مرور الأيام فى تشييد أبنيتها حتى كملت .

ولما ثار محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر المعروف بالمهدى ، وثارت معه عامة الناس على ابنه عبد الرحمن بن المنصور الملقب بشنجول .. خربوا الزاهرة ، واستولى النهب على مافيها من التحف والذخائر ، وعم بها الخراب ، ونهبت خزائنها ، وأضرمت النيران بساحاتها وتوزعت آثارها .. فلم تبق دار فى الأندلس الا ودخلها من فيئها حصة كثيرة أو قليلة ، وقيل ان بعض مانهب منها بيع ببغداد وغيرها من البلاد الشرقية . وفى بهو الجص بقصر اشبيلية — الذى بنى فى عصر بنى عباد ، وأضيف اليه زمن الموحدين — أعمدة تيجانها متخذة من أطلال الزاهرة والزهراء .

القصور فى عصر الطوائف

استقل ملوك الطوائف بأهم مدن الأندلس ، وعظم شأن كثير منهم ، أمثال : المعتمد بن عباد باشبيلية ، وبنى الأفطس ببطليوس ، وبنى ذى النون بطليطلة ، وبنى حمود بمالقة ، وبنى حبوس بغرناطة ، وبنى صمادح بالمرية ، وبنى هود بسرقسطة ، وبنى رزين بالسهلة ، وبنى برزال بقرمونة . وقد عمل هؤلاء الملوك على احاطة أنفسهم بكل مظاهر الترف : ففتحوا أبواب مدنهم للشعراء والأدباء ورجال الفن ، وتنافسوا فى بناء القصور السامقة والمبانى السامية . ومن هذه القصور : قصر الشراجيب بشلب الذى أقام فيه الراضى بالله يزيد بن المعتمد بن عباد واليا عن أبيه فيها ، وقصر الصمادحية الذى شيده المعتصم بن صمادح بالمرية ، وقصر أبى عيسى بن لبون بمربيطر وقصر المظفر بن الأفطس بيابرة .

ولم يتبق من قصور الطوائف الا آثار قليلة منها : قصر بنى عباد باشبيلية ، وقصر بنى برزال بقرمونة ، وقصر الناعورة بطليطلة ، وقصر الجعفرية بسرقسطة ، وقصر القصبة بمالقة .

قصور المعتمد بن عباد

أقام المعتمد بن عباد ملك اشبيلية مجموعة من القصور ، منها : قصر المبارك ، وقصر الثريا ، وقصر الوحيد ، والقصر الزاهى ، وقصر المؤيد . وكانت هذه المجموعة تقع شرقى مدينة اشبيلية ، خارج أسوارها فى المكان الذى يقوم عليه القصر الحالى (Alcazar) . وما زالت فى هذا القصر الاشبيلى بقايا من قصر ابن عباد تتمثل فى عقدين على شكل حدوة الفرس ، بينهما عمود ، يطلان على بهو الجص من أبهاء قصر اشبيلية .

كذلك أقام المعتمد قصرا آخر خارج مدينة اشبيلية ، على الضفة الأخرى من النهر ، وسماه قصر الزاهر أو حصن الزاهر . وكان من اجمل المواضع لديه وأبهاها ، وأحبها اليه وأشهاها ، لاطلاله على نهر الوادى الكبير ، واشرافه على القصر العبادى ، وجماله فى العيون ، واشتماله بالشجر والزيتون . وكان المعتمد يحن اليه وهو فى منفاه بأغمات ، ويقول :

فياليت شعرى هل أبيتن ليلة
أمامى وخلفى روضة وغدير
بمنبتة الزيتون مورثة العلا
يغنى حمام أو تدن طيور
بزاهرها السامى الذرى جاده الحيا
تشير الثريا نحونا ونشير
ويلحظنا الزاهى وسعد سعوده
غيورين والصب المحب غيور ؟ !

وموضع هذا القصر اليوم بالقرب من قرية حصن الفرج (San Juan de Aznalfarache) على الجانب الأيسر من الوادى الكبير .

وكان للمعتمد قصر رائع يطل على بحيرة كبرى خارج باب جهور من أبواب اشبيلية ، وهو الموضع

الذى أقام فيه الخليفة الموحدى أبو يعقوب يوسف قصره المعروف بالبحيرة .

قصر بنى برزال بقرمونة : قرمونة مدينة قديمة اشتهرت منذ العصر الرومانى بتحصيناتها المنيعة . ويذكر صاحب كتاب « أخبار مجموعة » أنها مدينة ليس بالأندلس أحصن منها . وخضعت قرمونة ، زمن الفتنة ، لبنى برزال البربر . وأقام اسحق بن محمد بن عبد الله البرزالى قصر قرمونة ، وجعل فيه مجلسا رائعا سماه بالسامرة . وقد أجريت فى هذا القصر عدة اصلاحات ، وأضيف اليه زمن الموحدين ثم أصيب بأضرار فادحة بعد الاسترداد ، وقاسى من جراء التغييرات المعمارية العميقة التى شملت عمارته زمن بدرو القاسى ملك قشتالة وغيره من ملوك اسبانيا المسيحية . ولم يتبق منه اليوم سوى آثار قليلة بالقرب من باب مرشانة . وكان القصر يقوم فى أكثر مناطق المدينة ارتفاعا .

قصر الناعورة بطليطلة : شيده المأمون بن ذى النون ملك طليطلة ، فى سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) ، وصنع فى وسطه بحيرة ، جعل فى وسطها قبة من زجاج ملون منقوش بالذهب ، وساق الماء على رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون : فكان الماء ينحدر من أعلى القبة حولها محيطا بها متصلا بعضه ببعض ، وكانت القبة فى غلالة من ماء سكب خلف الزجاج لا يفتر جريه ... والمأمون بن ذى النون جالس فيها لا يمسه منه شىء . وقد سمى هذا القصر بالناعورة بسبب ساقية كانت تدور بالقرب من قبة الزجاج ، تجلب الماء من نهر طليطلة وتروى به الروض .

وقال الفتح بن خاقان فى كتابه « قلائد العقيان » فى ترجمته للعلامة أبى محمد عبد الله بن السيد البطليوسى : « وأخبرنى أنه حضر مع المأمون بن ذى النون فى مجلس الناعورة بالمنية التى تطمح



لوحة من الرخام من قصر ابن ذى النون بطليطلة

اليها المنى ، ومرآها هو المقترح والمتمنى ... والمأمون قد احتبى وأفاض الحبا . والمجلس يروق كأن الشمس فى أفقه ، والبدر كالتاج فى مفرقه . والنور عبق ، وعلى ماء النهر مصطبح ومغتبق ، والدولاب (الساقية) يئن كناقة اثر الحوار ، أو كثكلى من حر الأوار . والجو قد عنبرته أنواؤه ، والروض قد رشته أمطاره وأنداؤه ، والأسد قد فغرت أفواهها ، ومجت أمواهها ! » .

وقد وصف ابن حيان هذا القصر ، وذكر أن من مجالسه : المجلس المكرم ، قد كسيت أجزاؤه السفلى بازار من المرمر الأبيض الرقيق ، ونقشت فيه صور حيوانات بين أشجار ، وطيور تحط فوق ثمار . ويفصل هذا الازار عما فوقه طراز عريض به نقوش كتابية محفورة فى الرخام ، كلها أشعار فى مديح المأمون . ويعلو هذا الطراز الكتابى أفاريز من الفسيفساء المذهبة ، عليها صورحيوانات وطيور وأشجار . وأرضية هذه الأفاريز مكسوة بتوريقات مذهبة وملونة .

وكان لقصر الناعورة بحيرتان ، نصبت على أركانهما تماثيل أسود من الذهب والصفر ، تشبه أسود بهو السباع بغرناطة ، وقد فغرت أشداقها ، وانساب الماء من أفواهها نحو البحيرتين هونا . ووضع فى قاع كل بحيرة حوض رائع من المرمر ، بديع النقش ، قد برزت فى جوانبه صور حيوانات وطيور وأشجار . وغرزت فى وسط كل حوض منها شجرة من فضة ، فيندفع الماء منها ، وينصب على الأفنان كرذاذ المطر ، وتحدث عند مخرجه نغمات كألحان موسيقية عذبة !

وقد اندثر هذا القصر بصورته التى وصفناها ، ولم يبق منه سوى أطلال بفحص طليطلة . ويطلق الاسبان على هذه الأطلال قصر جاليانا ، وقد نسجوا حوله قصصا من الفروسية والأساطير . وتروى هذه القصص أن أميرة مسلمة كانت تعيش فيه ، وانتهى بها الأمر — بعد مغامرات عجيبة — الى أن تتزوج الامبراطور شارلمان .

وقد بقى من هذا القصر جزء مستطيل أقيم فى طرفيه طابقان يؤلفان برجين كبيرين ، ويتكون الطابق الأدنى منهما من قاعة متوسط تتخلل جدرانها فتحات . والبناء يتبع الأسلوب الطليطلى فى العمارة ، اذ تتناوب فيه صفوف الحجر الجرانيتى وصفوف الآجر . أما القبوات فمتعارضة . وقد بقيت بعض عقود (أقواس) نصف دائرية وأخرى مفصصة فى داخل الغرف . أما الزخارف فمن نوع مدجن ، وتحمل رنوك (رموز) أسرة قزمان ، مما يفسر — الى حد كبير — صحة هذه الرواية .

قصر الجعفرية بسرقسطة : بناه أبو جعفر أحمد المقتدر بالله بن هود (١٠٤٧ — ١٠٨١) ، كما يثبت ذلك نقش بأحد تيجان أعمدة هذا القصر . وقد سمى بالجعفرية نسبة الى كنيته (أبى جعفر) . وكان المقتدر يسميه « مجلس الذهب » ، وفيه يقول :

قصر السرور ومجلس الذهب
بكما بلغت نهاية الأرب
لو لم يحز ملكى خلافكما
كانت لدى كفاية الطلب

وقد تحول هذا القصر الى دير بعد سقوط سرقسطة فى أيدى النصارى ، ثم ألحقت به بعد ذلك عدة مقصورات دينية نذرت لسان جورج ، ثم أضيفت اليه سنة ١٤٩٢ — فى عهد الملكين الكاثوليكيين : فرناندو وايزابيلا — قاعة العرش . غير أنه ما لبث أن أقيمت فيه محكمة التفتيش بسجونها الرهيبة . ثم دعمه فيليب الثانى بمعاقل ، وحفر من حوله خندقا . ثم حول الى معسكر فى

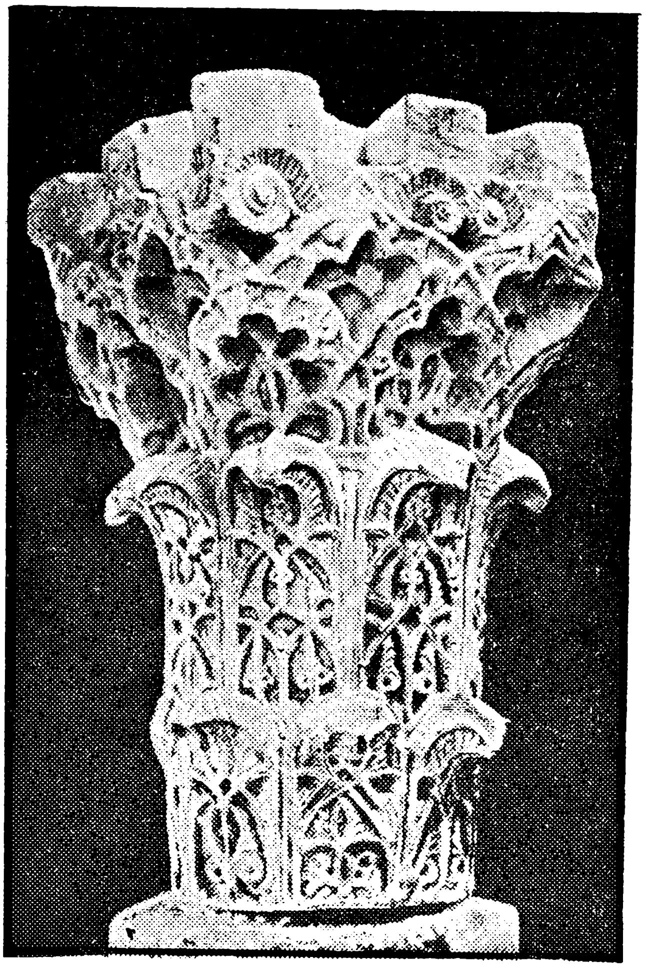
سنة ١٨٦٦ فى عهد الملكة ايزابيلا الثانية ، فهدمت المقصورة الكبرى التى شيدها بدرو الرابع ، وجردت من زخارفها الاسلامية الرائعة .

وقد وصم جوميث مورينو هذا التخريب للقصر بأنه « عمل بربرى يندى له الجبين ، ومن أشد النقط سوادا فى تاريخ اسبانيا » . ولم يستثن من هذا العمل الهمجى سوى المصلى الذى يؤلف بزخارفه ــ مع ما يحتويه متحفا سرقسطة ومدريد من تيجان أعمدة ، وعقود جصية رائعة ــ كل ما بقى من قصر بنى هود .

ومن العسير أن نتصور ما كان عليه هذا القصر قبل أن يعتريه هذا التشويه ، ولكن لدينا تصميما يصور هذا القصر سنة ١٧٥٧ . وقد استطاع سافرون أن يقيم عليه دراسة علمية هامة .

والقصر على مسافة قصيرة من ربض المدينة على نهر ابرو . ويتألف من سور مستطيل يدعمه تسعة عشر برجا أسطوانية الشكل ، عدا برج التكريم فقد كان مربع الشكل . وفى وسط هذا البناء فناء مستطيل تدور به أروقة جانبية . وكانت تطل على جانبيه القصيرين مجموعتان من الغرف ، كل منهما تتألف من قاعة وسطى وغرفتين جانبيتين كما هى الحال فى قصور الحمراء وقصور المدجنين . والى جانب برج التكريم قاعة كبيرة ــ لعلها كانت مجلس الذهب الذى كان يعتز به المقتدر بن هود ــ تنفتح فى جانبيها غرفتان ، احداهما يشغلها المسجد الذى ما زال قائما حتى وقتنا هذا . وكانت هذه القاعة الكبرى تتصل جنوبا بالصحن ، وكان يقابله فى الجهة الأخرى قاعة تسمى قاعة الرخام نسبة الى كثرة أعمدتها الرخامية .

وقد كشفت بائكة من العقود الاسلامية كانت تتصل بأسطوان المدخل الرئيسى ، على أثر هدم جزء من مقصورة سان جورج التى فى جنوب قاعة



تاج من الرخام من قصر الجعفرية بسرقسطة

الرخام . وتتألف هذه البائكة من ثلاثة أقواس كلها غلو فى التعقيد الزخرفى ، وأقواسها طبقتان : احداهما فوق الأخرى ، والدنيا منهما أقواس مفصصة متقاطعة ، فوقها أقواس أخرى تتداخل فيها الخطوط المستقيمة بالمنحنيات . وفيها نشهد اتجاه الفن الأندلسى ، اذ ذاك ، الى الاسراف فى التعقيد ، والغلو فى حشد الزخرفة ، والتوسل بالأقواس المتقاطعة التى تظهر فيها التوريقات المتشابكة والتشجيرات المتداخلة .

أما المصلى فبابه مدجن ، وأما داخله فمثمن الشكل . وأصله مربع طول ضلعه ٥٠ر٥ م ، تحول الى مثمن بأن أقيمت فى أركانه أنصاف حوائط . ويشغل المحراب الركن الجنوبى الشرقى ، وتعلوه قبيبة مفصصة محارية الشكل ، ومدخله على شكل

قوس متجاوز يشبه قوس محراب جامع قرطبة ، يحيط به افريز مستطيل ، وفى بنيقتيه محارتان . ويزين الجدران السبعة الأخرى قوس أصم شديد التعقيد من النوع الذى تختلط فيه الخطوط والمنحنيات ، ويحيط به افريز بارز يتخذ الشكل نفسه . أما القوسان المحفوظان بمتحفى مدريد وسرقسطة فكانا يزينان القاعة الرئيسية . وكانت هذه الأقواس فيما يظهر أربعة موزعة على الجدران الأربعة للقاعة . ويستحيل على المرء أن يتقصى امتداد خطوط هذه الأقواس ، اذ هى تتشابك وتتداخل فيما بينها بطريقة ساحرة فريدة .

ويحتفظ متحف سرقسطة بمجموعة رائعة من تيجان الأعمدة المرمرية تمثل لنا مدى التطور الذى أحرزه الفن الأندلسى بعد أن تحرر مما كان يغلب عليه من تأثيرات سابقة على الاسلام . ونلمس فى هذه التيجان حرية الأداء والرشاقة . وتكسو هذه التيجان زخارف قوامها ورقة الأكنش أو شوكة اليهود ، وتوريقات دقيقة حفرت على طبقتين حفرا غائرا أبرز هذه الزخارف وأوضحها .

ولا تزال فى متحف سرقسطة أشلاء كثيرة من هذا القصر نجهل مكانها منه ، وتتألف من ألواح رخامية وشمسيات جصية ، ان دلت على شىء فعلى مدى ما وصل اليه الفن الأندلسى من تعقيد رائع يعجز عنه الوصف .

قصر بنى حمود بقصبة مالقة : أقام يحيى بن على ابن حمود (١٠٢١ — ١٠٣٧) هذا القصر بقصبة مالقة التى بناها حبوس الصنهاجى . ولم يبق من هذا القصر ، الذى أضيف اليه فى عصر بنى نصر ، سوى قاعة يبلغ طولها ٧٫٥٠ م وعرضها ٣ أمتار ، وتنتهى جنوبا بشرفة رائعة تطل على البحر ، وتبدو جدرانها من الخارج فقيرة البناء ، ولكن الزخارف التى تكسو أجزاءها الداخلية وثيقة الصلة بزخارف قصر الجعفرية .

وعند ما شرع فى اجراء حفائر فى قصبة مالقة سنة ١٩٣٦ ، لم يكن فى الحسبان اكتشاف مثل هذا الأثر الجليل الذى يرجع الى القرن الحادى عشر . ومدخل القاعة تزينه بائكة من ثلاثة عقود أو أقواس شديدة التجاوز ، مكسوة بزخارف رائعة . ويسبق هذه البائكة رواق أعيد بناؤه فى غضر النصريين ، كما يبدو من أسلوب التيجان ونوع العقود . وتطل هذه القاعة على بهو شأنها فى ذلك شأن الجعفرية بسرقسطة ، والى غربها بناء مربع طول ضلعه ٢٫٥٠ متر ، ويقوم فى كل واجهة من واجهاته الأربع عقدان متقاطعان ، وينشأ من تقاطعهما عقد جديد يعلوهما على النحو الذى نراه فى عقود زيادة الحكم المستنصر بجامع قرطبة . وهذه العقود جصية ملساء .

أما القاعة نفسها فكان يدور بجدرانها طراز بارز به زخرفة جصية لم يبق منها سوى أجزاء ملتصقة بالجدران . وعقود المدخل تتألف من سنجات [١] مزخرفة ، وأخرى عارية من الزخرفة بالتناوب . وتتكون الزخرفة من توريقات تظهر بينها المراوح النخيلية الطويلة التى ما تلبث أن تلتف حول نفسها ، وكيزان الصنوبر التى تتدلى وسط الفروع والسيقان . وفى باطن العقود لوحات موزعة فى امتداد السنجات تحتشد فيها الزخارف الجصية التى تذكرنا بالفن الخلافى بقرطبة ، وتمهد لزخارف قصر الجعفرية .

قصور الموحدين فى الاندلس

اهتم خلفاء الموحدين فى الأندلس ببناء القصور . وحظيت اشبيلية — حاضرتهم فى اسبانيا

(١) السنجات : هى قطع الحجارة او قوالب الآجر التى يتالف منها عقد من العقود او قوس من الاقواس . وهذه السنجات تكسى بطبقة من الجص ، وينقش عليها زخارف نباتية وتوريقات.

الاسلامية ـ بعنايتهم ، فأسسوا فيها القصر الذى يحكم فيه الخليفة فى أثناء مروره بها أو زيارته لها ، وقصر البحيرة ، والقصر الواقع خارج باب الكحل ... كما أقام ولاتهم فى الأندلس قصورا فى المدن التى حكموها ، منها : قصر أبى يحيى بقرطبة وقصر السيد بمالقة . واشتهر من مهندسيهم فى بناء القصور الحاج يعيش المالقى ، والعريف محمد بن المعلم ، وشيخ العرفاء أحمد بن باسة ، والعريف على الغمارى .

قصر أبى يحيى بقرطبة : هو قصر بناه السيد أبو يحيى بن أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن خارج أسوار قرطبة على متن نهر الوادى الكبير ، وتأنق فى بنائه ، وبالغ فى اتقانه ، وأنفق فى بنيانه مالا كثيرا . وقد قال الشاعر ناهض بن ادريس فى وصف هذا القصر :

ألا حبذا القصر الذى ارتفعت به
على الماء من تحت الحجارة أقواس
هو المصنع الأعلى الذى أنف الثرى
ورفعه عن لثمه المجد والباس
فأركب متن النهر عزا ورفعة
وفى موضع الأقدام لا يوجد الراس
فلا زال معمور الجناب وبابه
يغص ، وحلت أفقه الدهر أعراس

ويغلب على الظن أن المهندس الحاج يعيش المالقى هو الذى بنى هذا القصر ، لأنه انتقل الى قرطبة بعد سنة ١١٦٠ لعمارة قصورها . وما تزال بقايا هذا القصر قائمة على احدى طواحين الهواء بنهر الوادى الكبير قرب قنطرة قرطبة .

قصر البحيرة خارج باب جهور باشبيلية : أمر الخليفة أبو يعقوب يوسف ببناء قصر البحيرة خارج باب جهور سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) ، واختط



قصر السيد أبى يحيى بقرطبة

بحيرته فى الجنان المنسوبة لابن مسلمة القرطبى ، بعد أن عوضه عنها بعوض صحيح من الجنات مثلها . وأقام فى هذا المكان قصورا ودورا ، وأمر أحمد بن محمد الحوفى قاضى اشبيلية ، وأبا بكر محمد بن يحيى الحذاء امام جامع اشبيلية ، أن يختطا له ما يتصل بهذا القصر وملحقاته وجناته لغرس الزيتون والأعناب وغرس الفواكه المستغربة النادرة ... فاختطا ما أمرهما به . واستجلبت أشجار الزيتون المختارة ، وغرست هى وأحمال الأجاص (الكمثرى) والتفاح .

أما القصور فقد قام ببنائها عريف البنائين بالأندلس أحمد بن باسة ، فجاءت فى غاية الحسن والبهاء . وما زالت آثار الموضع الذى كان يشغله هذا القصر قائمة حتى وقتنا هذا .

قصر اشبيلية : من العسير استخلاص ما أقامه الموحدون فى مجموعة الأبنية التى تؤلف اليوم قصر

اشبيلية ، فقد كان يتألف من قصور مختلفة فى مركزين رئيسيين : قصر الملك بدرو الذى أقامه سنة ١٣٦٤ على أبنية اسلامية ، والقصر المسمى بالقصر القديم .

على ان الذى يهمنا هو القصر الموحدى الذى أقامه ابو يوسف يعقوب على أنقاض أحد قصور المعتمد بن عباد . ولم يتبق منه اليوم سوى قاعة تسمى قاعة الجص ببهوها ، وهو بهو ضيق صغير المساحه ، مستطيل الشكل تقريبا ، يقوم فى أحد جانبيه القصيرين صف من العقود تتألف من قوس أوسط منكسر ، يحيط به من كل جانب ثلاثة أقواس صغيرة ، وتتكىء هذه الأقواس أو العقود على أعمدة استغلت من قصر المعتمد بن عباد ، ويؤلف حافات العقود السبعة خطوط متموجة .

أما بنيقتا العقد الأوسط فتغطيهما شبكة من أشرطة منحنية متشابكة ، فى حين تمتد العقود الجانبية وتتقاطع منحرفة لتحدث معنيات محزمة . وكان بالجدار المقابل لهذه البائكة جوفة من ثلاثة عقود على شكل حدوة الفرس ، تتكىء على عمودين مركزيين .

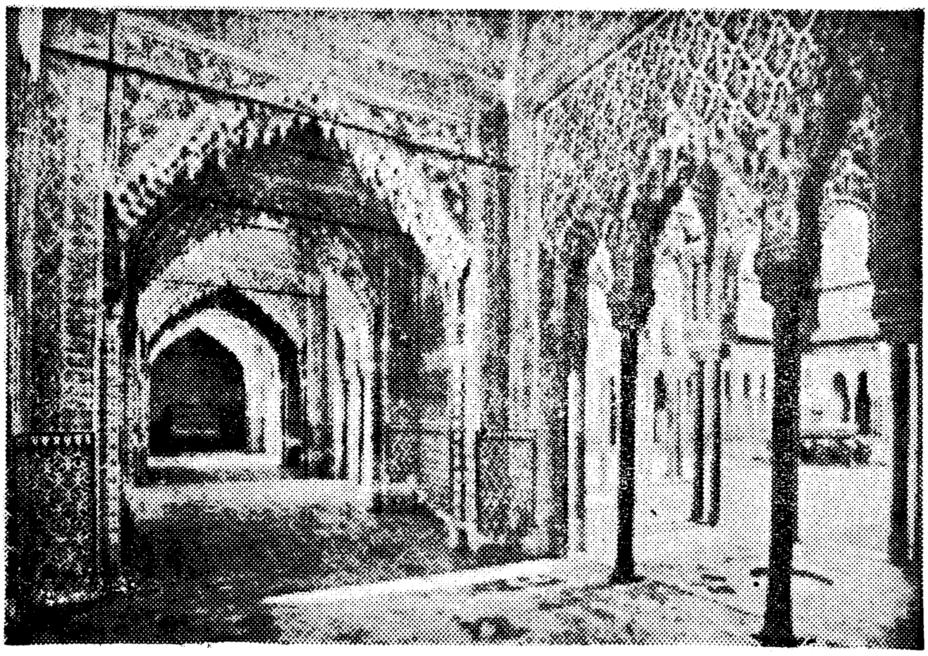
كذلك تبقت من بقايا قصر اشبيلية قبة ذات اثنى عشر عقدا متقاطعة فيما بينها ، وذلك فى المنزل رقم ٣ ببهو البنود ، غير بعيد من بهو الجص . وتشبه هذه القبة قبة المحراب بجامع تلمسان .

قصر الحمراء بغرناطة

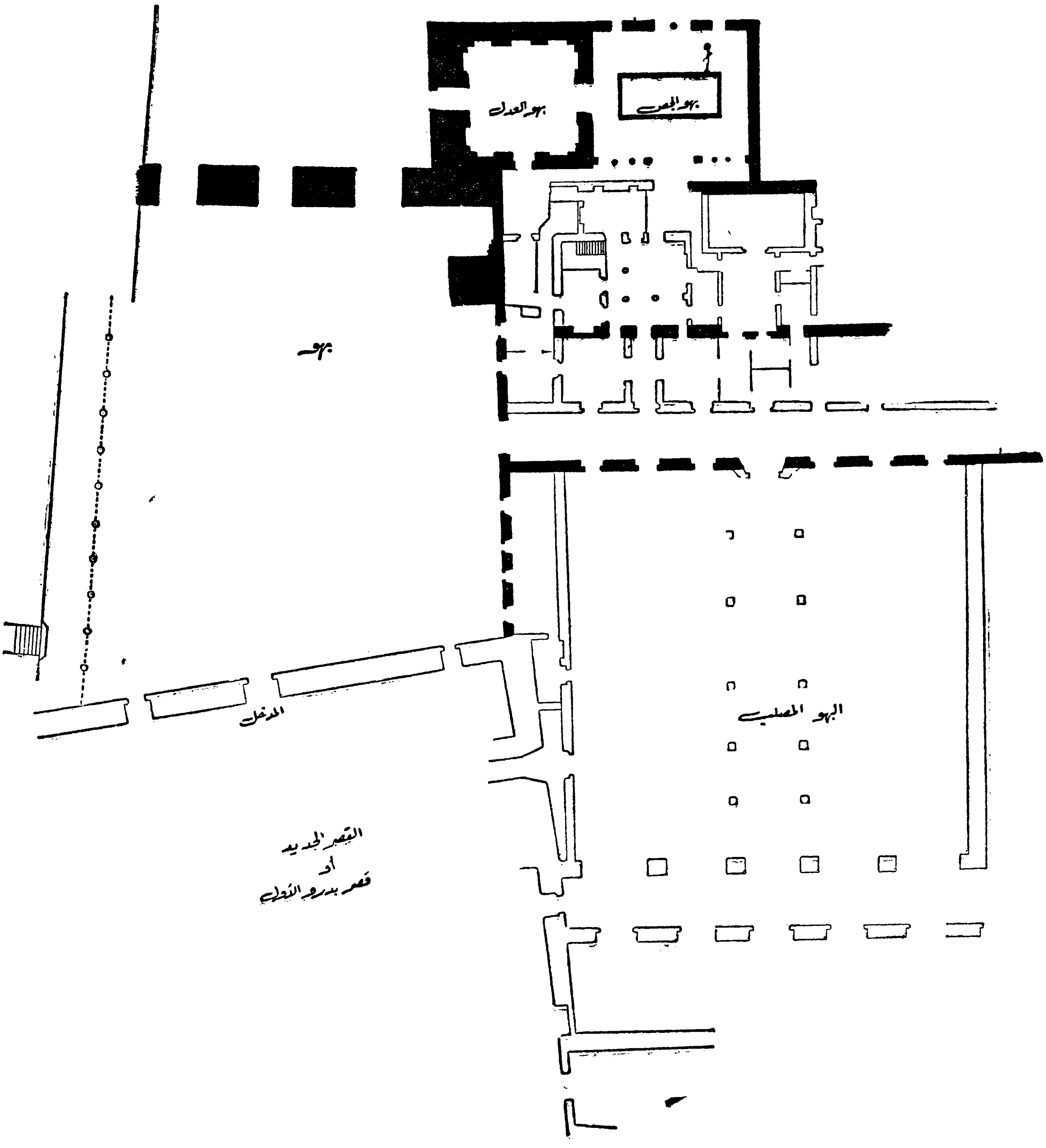
ينسب قصر الحمراء الى أبى الحجاج يوسف الأول (١٣٣٤ — ١٣٥٤) . وقد شيد فيه اول ماشيد : البرج المعروف بقمارش ، وقصر متشوكة ، والحمام الملكى ، وباب الشريعة ، وبرج الأسيرة ، ومصلى البرطل . ولما قتل أبو الحجاج يوسف خلفه ابنه محمد الخامس الغنى بالله ، فأكمل بناء قصر الحمراء بما فيه القصور السلطانية التى تحيط ببهوى الريحان والسباع .

أعمال يوسف الأول : وينسب الى يوسف الأول السور الحصين الذى يحيط بمرتفع الحمراء ، بأبراجه وبوابته العظمى المعروفة بباب الشريعة ، الذى ينم نظام بنائه عن أصالة وعن فن اسلامى خالص . وقد تم بناؤه سنة ١٣٤٨ وفقا لما ورد فى النقش الكتابى . وقد أطلق عليه باب العدل نسبة لصورة كف مفتوح ومفتاح : يرمز الكف الى العدالة ، ويرمز المفتاح الىمدخل قصور الحمراء ، كما أطلق عليه اسم باب الشريعة نسبة الى المصلى الذى كانت تقام فيه صلاة العيدين والابتهالات الدينية وقت الشدة والقحط والجفاف .

ومن أقدم قصور الحمراء التى ترجع الى عهد يوسف الأول قصر البرطل ، ويعنون بالبرطل فى الأندلس الظلة التى تقوم على بائكة هذا القصر ،



جانب من قاعة الملوك بقصر الحمراء بغرناطة



تصميم لقصر أشبيلية القديم والأجزاء السوداء هى
بقايا الاثار التى ترجع الى عصر الموحدين

الواقعة بين برج السيدات ومصلى صغير . وتتألف ظلة هذا القصر من خمسة عقود ، أوسطها أكثرها ارتفاعا . ويطل البرطل على بركة تزودها نافورة أسفل العقد الأوسط بالمياه . ووراء هذا البرطل ، وفى ركن منه ، قاعة مربعة تشبه البرج يمكن الارتقاء منها الى طابق علوى . ويغطى الجدران التى تعلو عقود بائكة البرطل شبكات من زخرفة المعنيات ، ويحيط بالجدران ازار من الزليج تتعدد فيه الرسوم الهندسية الملونة . وتقوم عقود البائكة على أربع دعائم من الآجر .

والى يمين البرطل من شرقه ، وعلى ممشى السور ، مسجد صغير ملحق بالبرطل لصق دار قديمة . ويتنافض مظهر هذا البناء الصغير ، من حيث ترابه ، مع بناء الأسوار والأبراج المجاورة فى حمرتها وعرائها من الزخرفة . ويبلغ طول هذا المسجد ١٦ر٤ أمتار وعرضه ٣ أمتار . وفى رأسه محراب يقابل الباب ، ويتجه نحو الجنوب الشرقى . وتعلوه قبوة مقرنصة .

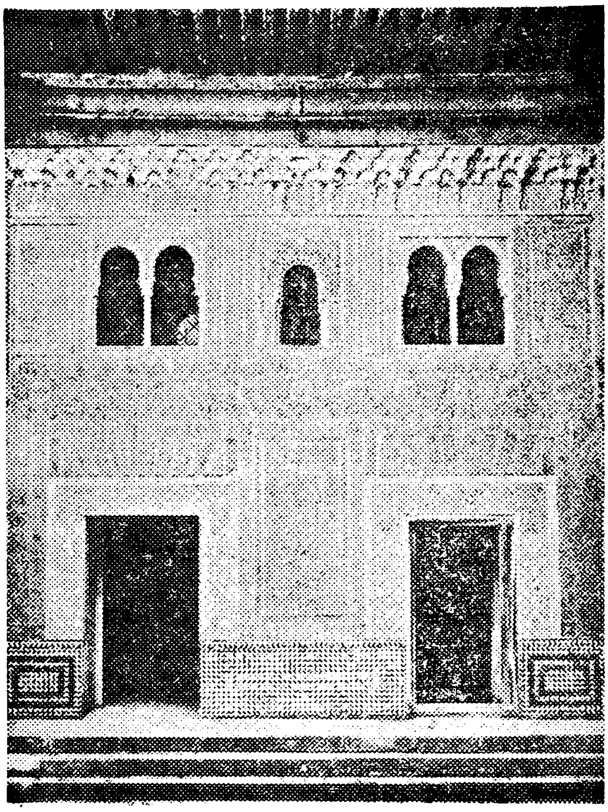
كذلك ينسب الى يوسف الأول برج الأسيرة الذى يضم بداخله قصرا صغيرا يتألف من قاعة أساسية تكتنفها شرفات ومخادع جانبية . ويتوسط البرج بهو داخلى صغير يحيط به من جهاته الأربع مجنبات . وزخرفة قاعات هذا البرج — لا سيما تربيعاته الزليجية — من أجمل ما شيده يوسف الأول . وينسب الى السلطان نفسه برج الشرفات بين مصلى البرطل وبرج الأسيرة . والى يسار برج السيدات يقع برج مخدع الملكة ، ويضم هذا البرج قصرا صغيرا لطيفا من أعمال يوسف الأول ، ويتصل هذا البرج بقصر الريحان وبرج قمارش . وقد تغيرت الأجزاء العليا منه فى القرن السادس عشر ، وازدانت بروائع من فن التصوير الايطالى .

أما قصر السلطان يوسف الأول ، فهو أروع ما شيده السلطان ، ويتوسط هذا القصر بهو الريحان ، وفى جهته الشمالية برج قمارش الذى يشتمل فى داخله على قاعة السفراء . ومن قمريات هذه القاعة ومنظراتها يمكن امتاع البصر بمنظر من أروع مناظر الطبيعة الساحرة ، وتتنقل العين فى نهر حدرة الذى تندفع مياهه أدنى البرج الى حى البيازين فى المرتفع الآخر المقابل للحمراء .

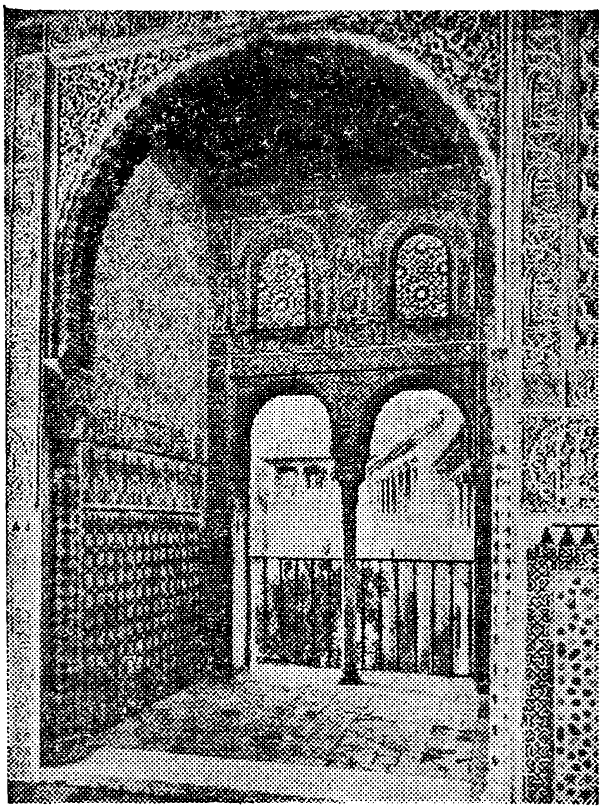
وزخارف هذا القصر يعجز عنها الوصف ، وتتألف من زخرفة جصية ملونة هندسية ونباتية وكتابية ، ويعلوه سقف خشبى يعرف باسم رواق البركة . وتطل على بهو الريحان بائكة مؤلفة من سبعة عقود ، العقد الأوسط منها أكثرها ارتفاعا . وهو أروع مثال للبهو الأندلسى ، اذ تشغل وسطه بركة كبيرة ، مستطيلة الشكل ، تحف بها أشجار الريحان ، ومن هنا سمى أيضا باسم بهو البركة . ويقابل هذه الواجهة جنوبا ، واجهة أخرى مماثلة تقع فى المحور نفسه .

والى شرقى مجلس قمارش وبهو الريحان : الحمامات السلطانية ، وهى من أقدم أبنية القصر . وتؤلف هذه الحمامات مجموعة كاملة من الأبنية . وترجع الى عهد يوسف الأول الذى سجل اسمه فى نقش كتابى . ويسبق الحمامات الى الشمال قاعة يطلق عليها اسم قاعة الأسرة ، وقد أجريت عليها اصلاحات عديدة فى القرن السادس عشر ، غيرت كثيرا من معالمها القديمة . ويسقف القاعة الأساسية فى الحمامات قبة تخترقها مناور أو مضاوى ، وهى أشكال نجمية لانفاذ الضوء ، وتكسو الجزء الأدنى من الجدران تربيعات رائعة من الزليج .

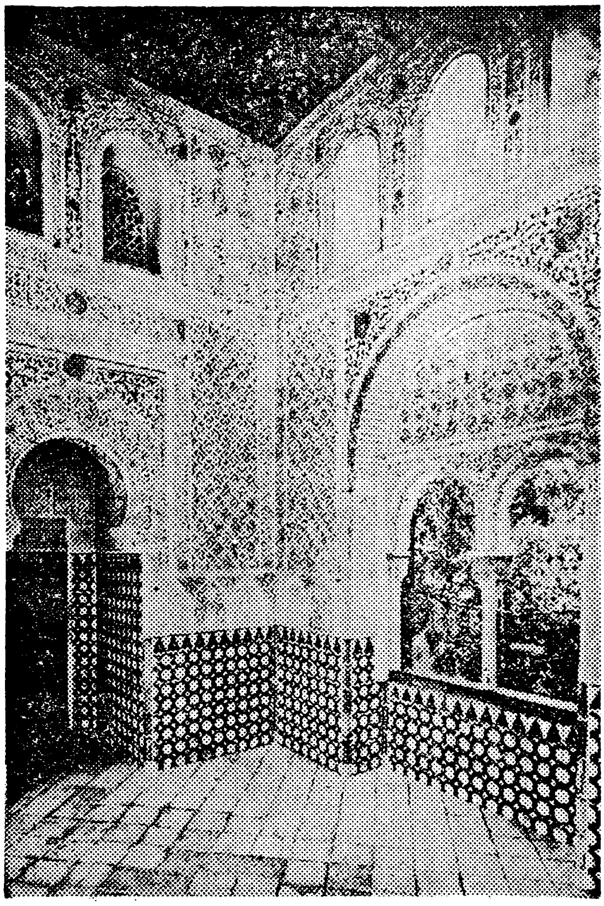
أعمال محمد الخامس : توج محمد الخامس أعماله المعمارية بتشييده أروع مجموعة فى قصور الحمراء ، وهى مجموعة قصر السباع . ونظام



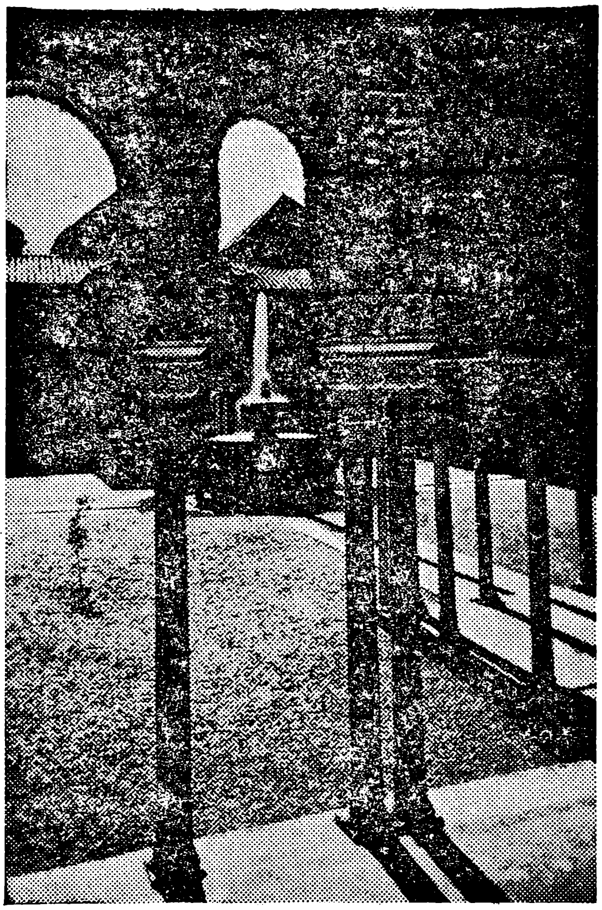
ظلة خشبية بواجهة قاعة قمارش بقصر الحمراء



شرفة بقاعة قمارش بقصر الحمراء



مسجد البرطل بقصر الحمراء



بهو السباع بقصر الحمراء

هذا القصر جديد فى تاريخ العمارة الغرناطية فى القرن الرابع عشر ... اذ آنه — بدلا من القاعتين اللتين تقعان فى الطرفين القصيرين للمستطيل فى بهو قصر جنة العريف وبهو الريحان — أحاط بالبهو المركزى ، المعروف ببهو السباع ، فى واجهاته الأربع أربع بوائك . وتتوسط البهو نافورة أو فوارة تقوم على حوض استدار تحته اثنا عشر أسدا تمج المياه من أفواهها . ويدور بالبهو أربع بوائك ، تقوم على عمدها الرشيقة عقود نصف دائرية مطولة ، تعلوها جدران مكسوة بالشبكات الزخرفية . ونقرأ على جدران هذا القصر نقوشا عربية ، منها « عز لمولانا السلطان آبى عبد الله الغنى بالله » كما تزخر بكثير من أشعار ابن زمرك فى مدح السلطان .

وبهو السباع على شكل مستطيل طوله ٢٨ر٥ مترا ، وعرضه ١٥ر٧٠ مترا . ونظام هذا البهو يماثل نظام بهو قصير منتقوط بمرسية : فعلى جانبيه القصيرين جوسقان مقببان تحملهما أعمدة رشيقة ، ويتقاطع محورا البهو — وقد اتخذا شكل قناتين للمياه — بحيث يؤلفان شكلا صليبيا . وتقع خلف الجوسق الغربى قاعة فسيحة تغيرت معالمها الاسلامية ... فى حين تقع خلف الجوسق الشرقى قاعة الملوك ، أو قصر العدل ، وتزخر بالعقود المتعارضة التى تحتشد فى بواطنها المقرنصات الدقيقة .

أما القاعتان الجانبيتان للبهو شمالا وجنوبا ، فهما من أروع ما جاء به فن العمارة الاسلامية فى الأندلس : فالقاعة الجنوبية — وتعرف بقاعة بنى سراج — يتوسطها حوض من الرخام به آثار بقع حمراء ، يقال انها من دماء بنى سراج بعد أن قضى عليهم ملوك بنى نصر . وتعلو القاعة قبة رائعة الجمال من القرنصات الدقيقة ، نجمية الشكل . أما الشمالية المقابلة لها ، فاسمها قاعة الأختين ، نسبة الى لوحتين كبيرتين من الرخام متماثلتين فى الشكل تكسوان الأرضية . وتعلو هذه القاعة بالمثل قبة نجمية الشكل من المقرنصات الدقيقة التى تشبه خلايا النحل . وتؤدى هذه القاعة الى شرفة تطل على حى البيازين . وجميع جدران هذه القاعات مكسوة بالزخارف الهندسية والنباتية المحتشدة ، تتخللها كتابات كوفية ونسخية فيها أدعية للسلطان . والأجزاء الدنيا منها مؤزرة بالزليج والفسيفساء .

ونلاحظ أن فن البناء بقصر الحمراء فن دنيوى ، على نقيض فن المرابطين . ولم يكن بناء بنى نصر للمساجد الا نتيجة للتوسع الاجتماعى الذى فرضته هجرة سكان المدن التى سقطت تباعا فى أيدى النصارى . وحتى هذه المساجد كانت تزخر بالزخارف التى تلهى المسلم عن صلاته ، وتجعل من هذه المساجد قصورا خيالية تسبح فى زخارفها وتنميقاتها الأبصار دون كلل أو ملل ... بل ان هذه الزخارف كانت تغطى جدرانا رقيقة ضعيفة ، وتكسوها كما لو كانت أبسطة .

وهكذا يكشف فن غرناطة عن حقيقة طبيعية : هى رغبة شعب قد بلغ ذروة التطور فى التمتع بحاضره والشك فى غده . وهكذا كانت الأبنية التى زخرت بها غرناطة قصورا يتمتع فيها المرء بحياة من الترف فى نطاق طبيعى لا مثيل لجماله . وكان المجال الذى يحيط بهذه القصور يتجاوب وهذا التمتع .

ونجح عرفاء بنى نصر فى احداث تأثير جمالى يصحب فن توزيع الخمائل والجنان ومزج المنظر الطبيعى بالعمارة ... فالحمراء تجلو لنا أروع أمثلة هذا الفن ، بل هى واحة خضراء فى اقليم قاحل جاف تحرقه الشمس ، ولا تدع غابة الحمراء التى

تحيط بالقصر السلطانى وكثافة الفروع أى مجال لنفاذ أشعة الشمس . كما أن هذه النسمات المنعشة التى تهز الأشجار فترطب الوجوه المحترقة ، والمياه التى تنساب بين الصخور ، والطيور التى تغرد على الأشجار وبين الأغصان والأفنان ... كل ذلك يجعل من قصر الحمراء قصرا أسطوريا أو جنة الله فى أرضه ، ويحمل المرء على أن يحيا فى عالم خيالى لا يفكر فيه الا فى القصور التى كانت تعيش فيها أميرات ساحرات .

وهنا يبلغ الفن الغرناطى الذروة ، فقد أعد كل شىء اعدادا دقيقا لتخدير المشاعر عن ادراك الحقيقة التى لا سبيل الى التغافل عنها ، وهى انتهاء دولة الاسلام فى الأندلس !

الحمامات

كثر بناء الحمامات فى المدن والقرى الأندلسية ، بحيث يمكننا القول بأن دور الحمام فى الأهمية المعمارية يأتى مباشرة بعد المسجد الجامع . وكانت للحمام أهمية عظمى فى الحياة الاجتماعية الأندلسية ، اذ كانت عادة الاستحمام من العادات المتأصلة بعمق فى الاسلام . والواقع أن الحمام هو المكان الذى يستشعر فيه المرء بهجة الحياة ، لأن الاستحمام يولد فى النفس احساسا بالراحة ، ويحدث فيها شعورا بانتعاش بدنى وروحى .

وكان من أسباب تعلق أهل الأندلس بالاستحمام — بالاضافة الى الشعور النفسى الذى يحدثه بخار الماء الساخن ، وما يتبعه من تدليك — أن الحمام كان مركزا للاجتماعات المرحة ، ومجالس الأنس واللهو والغناء . ثم ان النساء يجدن فى الذهاب اليه فرصة للتسرية عنهن وتغيير الجو ، والتمتع بحرية نسبية ، اذ أنهن يحطمن فيه — ولو خلال دقائق — أغلال التقاليد . وكان الأمر كذلك بالنسبة للرجل حين يتجرد من ثيابه ، ولا يضع على بدنه غير مئزر رقيق . وكثيرا ما كان شعراء الأندلس يذكرون الحمام فى أشعارهم ... من ذلك قول أحد الشعراء فى وصف حمام :

ومنزل أقوام اذا ما تقابلوا
تشابه فيه وغده ورئيسه
ينفس كربى اذ ينفس كربه
ويعظم أنسى اذ يقل أنيسه

وكثيرا ما قصده الشعراء الأندلسيون ، وتطارحوا فيه الشعر . ومن أمثلة ذلك أن أبا بكر بن بقى قابل أبا جعفر بن هريرة التطيلى المعروف بالأعمى الشاعر ، فقال له الأعمى : أجز . فقال :

حمامنا كزمان القيظ محتدم
وفيه للبرد صر غير ذى ضرر

فقال الأعمى :

صنوان ينعم جسم المرء بينهما
كالغصن ينعم بين الشمس والمطر

وقال الشاعر نفسه ، أعمى تطيلة ، فى وصف حمام :

يا حسن حمامنا وبهجته
مرأى من السحر كله حسن
ماء ونار حواهما كنف
كالقلب فيه السرور والحزن

وكان للحمام — بالاضافة الى ما سبق — غرض دينى ، اذ أنه يطهر جسد المرء تطهيرا تاما . ولعل ذلك هو السبب الذى من أجله يغسل المسلمون جثث أمواتهم قبل مواراتها التراب ، لأن جسم الانسان معرض دائما لكل ما يفسد الطهارة . والماء يطهر الجسم ، ويزيل ما علق به . وفى ذلك يقول الشاعر الشهاب بن فضل الله :

وحمـــامكم كعبـــة للوفود
نحجّ اليـــه حفــــاة عراه
يكرر صــــوت أنابيبه
كتـــاب الطهارة .. باب المياه

وكانت الحمامات لهذا السبب تكثر بالقرب من المساجد حيث يتيسر للمسلمين الاستحمام والتطهر قبل الدخول الى المسجد للصلاة . وتدل الوثائق الخاصة بتوزيع دور اشبيلية على الفاتحين الأسبان ، بعد استردادهم للمدينة ، على أن حماما اسلاميا كان يقع بالقرب من سقايات المسجد الجامع . وما زلنا نرى اليوم آثار حمام بجوار المسجد الجامع باشبيلية ، قبالة مئذنته ولصق القصر الأسقفى .

وفى قرطبة تبقى حمامان بجوار المسجد الجامع : أحدهما فى شـــارع يعـــرف بلاس كوميدياس ، والآخر فى شارع الحمام . ويتألف الحمام الأول من قاعة وسطى ، بها عقـــود مفرطحة ومتجاوزة تحملها عشرة أعمدة ، وكانت تعلو هذه العقـــود قبوة لم يبق لها اليوم وجود بعد أن تحولت هذه القاعة الى بهو .

ويذكر هرناندو البياسى ، فى القرن السادس عشر ، أن بغرناطة حماما كان يقع بجوار المســـجد الجامع الذى تحول الى كاتدرائية غرناطة .

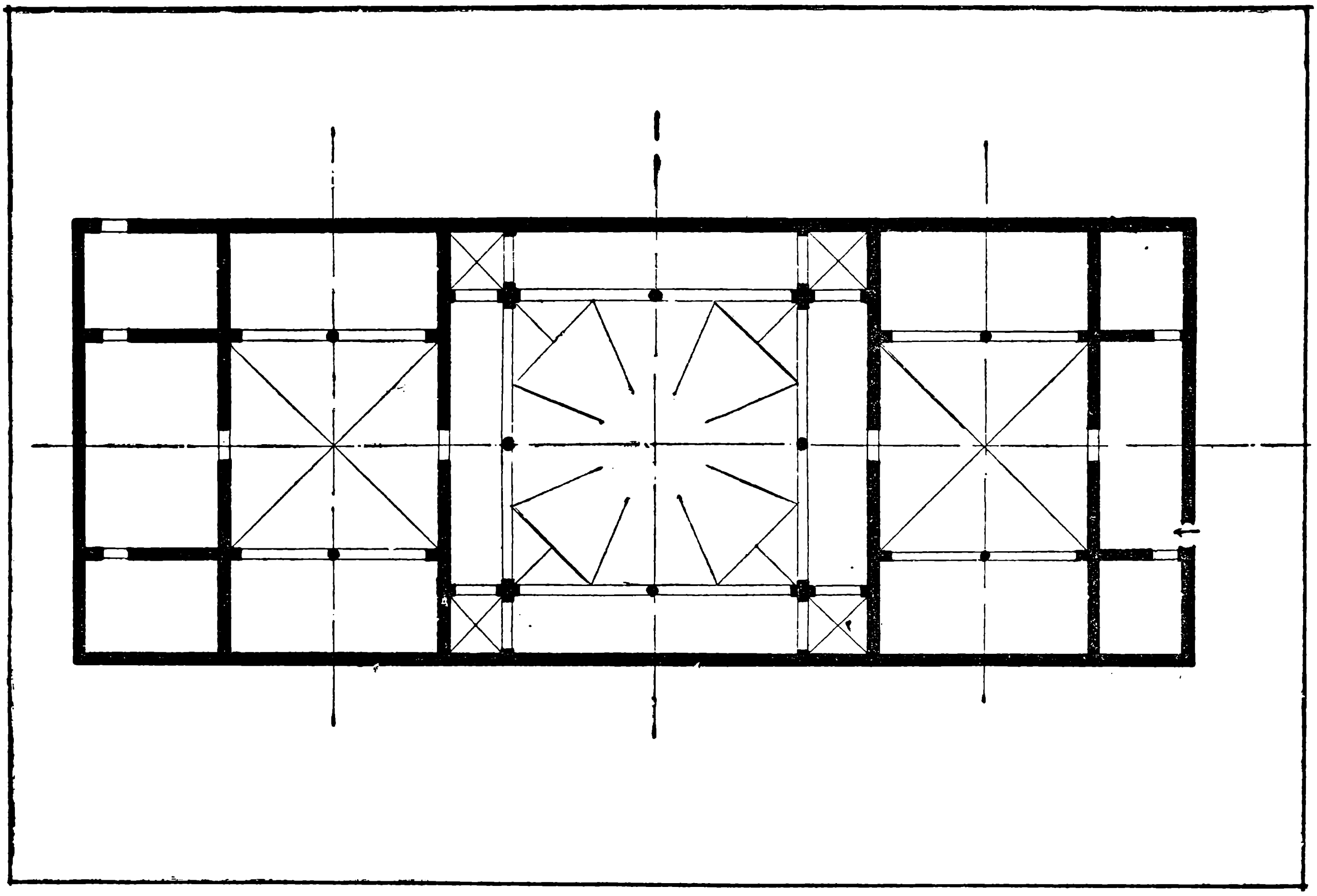
وكثرت الحمامات فى المدن الأندلسية لدرجة أن عددها أصبح متقاربا مع عدد مساجدها . ويذكر ابن حيان أن عدد حمامات قرطبة بلغ أيام المنصور ابن أبى عامر تسعمائة حمام ، وقيل ســـبعمائة . ويذكر ابن عذارى المراكشى أن حمامات النســـاء وصلت الى ثلثمائة حمام .

وقد اتخذ بعض ملوك الأندلس من الحـــمامات مسرحا للجرائم السياسية ، فقـــد احتال المعتضد بالله بن عباد على طائفة من رؤساء أعدائه البربر حتى زاروه باشبيلية ، فأدخلهم الحمام مبالغة منه فى الحفاوة بهم ، وما كادوا يدخلون فى قاعته الساخنة حتى سد عليهم الباب فهلكوا عن آخرهم !

ولم تكن عادة الاستحمام فى الأندلس استمرارا لما كان متبعا فى اسبانيا قبل الفتح الاسلامى ، فقد حمل الفاتحون معهم تقاليـــدهم ، وغرســـوها فى اسبانيا . وانتشرت عادة الاستحمام فى اســـبانيا المسيحية بتأثير من اسبانيا الاسلامية . الا أن عادة الاستحمام تلاشت من اسبانيا المسيحية منذ النصف الثانى من القرن السادس عشر فى عصر الامبراطور شارلكان والملك فيليب الثانى . وساعد على ذلك تعصب الكنيسة ضد هذه العادة الاسلامية وعداؤها الشديد لها . وانقرضت فى طليطلة منذ عهد ألفونسو الحكيم ، واقتصرت عند أهل طليطلة على المناسبات الهامة عندهم ، فكانت الفتاة لا تستحم الا يوم زفافها . وذكر فراى ارناندو دى طلبيرة ، أسقف غرناطة ، أن الملكة ايزابيلا الكاثوليكية اعتـــرفت أمامه بأنها كانت لا تغسل قدميها الا مرة واحدة فى الشهر .

وكان دير يوستى ، الذى اعتزل فيه الامبراطور شارلكان ، خاليا من الحمـــامات . وعندما جردت مخلفاته فى هذا الدير عثر على أربع قطع من النسيج الهولنـــدى ، كان يستخدمها الامبراطور العظيم لتجفيف قدميه عند غسلهما .

وكان الحمام الأندلسى يتألف عادة من مدخل يؤدى الى ثلاث قاعات أو أربع رئيســـية مقباة ، تضاف اليها ملحقات الحمام من الموقد والمرحاض الى آخره . وكانت هذه القاعات تتصل فيما بينها عن طريق فتحات أو أبواب ، وكانت تتخذ جميعها شكلا مستطيلا ، أو مربعا بخلاف الحمامات المصرية فى العصر الاسلامى ، اذ كانت تدور حـــول غرفة مركزية .



تصميم لنظام الحمامات الاسلامية فى الاندلس

ويؤدى مدخل الحمام الى أسطوان أو ردهة صغيرة فى شكل مرفق ، يليه حجرة ضيقة مستطيلة تعلوها قبوة نصف أسطوانية بنهايتها قبوان يعرفان بالخلوتين . ويفصل هاتين الخلوتين عن بقية القاعة عقدان ستندان فيما بينهما على عمود مركزى . وتعرف هذه القاعة باسم «البيت البارد» ، وتقابل قاعة (Tepidarium) فى الحمامات الرومانية . وكان المستحمون يخلعون فيها ثيابهم عند دخول الحمام ، ويلبسونها عند خروجهم منه . وفى أركان الخلوتين مقاعد يستريح عليها المستحمون .

وفى بعض الحمامات المترفة كانت تسبق البيت البارد غرفة تعرف « ببيت المستراح » ، يستريح فيها المستحمون قبل خروجهم من الحمام ومقابلتهم الهواء الخارجى . ويلى البيت البارد قاعة تعرف بالبيت الوسطانى ، وهى أكثر اتساعا من القاعة السابقة ، وتعد أهم أجزاء الحمام . وبتوسط هذه القاعة فراغ مركزى مربع يعلوه قبة ، ويحيط به أربعة ممرات مقببة ، تحملها عقود قائمة على أعمدة . وجميع هذه القبوات الجانبية ، والقبة الوسطى ، تتخللها فتحات نجمية الشكل تغلق بقطع زجاجية — تسمى « مضاوى » — لادخال الضوء .

ويتبع هذه القاعة قاعة أخيرة تعرف « بالبيت الساخن » (Calidarium) . وهى غرفة ضيقة مستطيلة تشبه الغرفة الأولى ، ولها نفس نظامها . وفى منتهى الغرفة موقد كبير يسمى بالقدر أوالبرمة أو الفرنش ، وهو ما يقابل (Hypocausis) الرومانية . وتخرج من القدر أنابيب الماء الساخن والبارد ، وتدخل فى الجدران لتصب فى أحواض الخلوات .

ويلاحظ أن درجة الحرارة ترتفع فى الحمام بالتدريج من البيت البارد الى البيت الساخن ، فاذا انتهى المستحم من حمامه تعرض بالتدريج لهواء أقل حرارة من الهواء الداخلى الساخن حتى يصل الى البيت البارد فيستريح فيه قليلا قبل أن يغادر الحمام .

وكانت أرضية الحمام تكسى عادة بالفسيفساء أو بلوحات الرخام ، وجدرانه تزين بلوحات الزليج ، أو تحلى بالرسوم الجميلة التى تمثل صور النساء عاريات . وكثيرا ماساهمت التماثيل الرومانية فى تجميل الحمامات . ويذكر المقرى أنه عثر فى أطلال طالقة الرومانية على تمثال جارية من المرمر تحتضن صبيا ، وتنظر فى ذعر الى حية تكاد تقترب من صبيها ، وقد حملت هذه الدمية ووضعت فى حمام الشطارة باشبيلية ، وتعشقها جماعة من العوام . وفيها يقول أبو تمام غالب بن رحاب الحجام ، من شعراء القرن الحادى عشر :

ودمية مرمر تزهى بجيد
تناهى فى التورد والبياض
لها ولد ولم تعرف حليلا
ولا ألمت بأوجاع المخاض
ونعلم أنها حجر ولكن
تتيمنا بألحاظ مراض !

وكان يعمل بالحمامات قومة ، منهم الحكاك والحجام ، وكان لا يسمح لهم بالتجول داخل الحمام الا بسراويل نظيفة بيضاء . وكان السقاءون يحملون الماء على ظهورهم من السقايات الى الحمامات . وقد تصل المياه رأسا الى الحمامات من قنوات فى جوف الأرض ، تتفرع منها أنابيب الى المبانى المختلفة كما حدث فى أشبيلية فى عهد أبى يعقوب يوسف (١١٧٢).

ولقد تبقى فى اسبانيا عدد كبير من الحمامات الاسلامية — فى اشبيلية وبلنسية وميورقةوغرناطة وقرطبة وسرقسطة ومرسية وطليطلة وبسطة — ويرجع سبب بقاء كثير منها فى حالة جيدة الى ضخامة جدرانها وصلابتها والى قدرة قبواتها على تحمل بخار الماء ، ثم الى وظيفتها النفعية ، وعدم وجود أية علاقة بينها وبين عمارة المساجد التى عمد الاسبان الى محوها من اسبانيا . ولذلك فان الحمامات هى أقل المنشآت الاسلامية تعرضا للتخريب والتدمير الذى لم تسلم منه بقية الآثار الأخرى .

حمامات طليطلة

تبقى منها حمامان ، وقد أصبح هذان الحمامان اليوم مصارف للقاذورات ومخازن ، الأمر الذى أدى الى سد فتحاتهما وتشويههما . وأحدهما يقع قريبا من البوثو أمارجو (البئر المرة) بطليطلة ، وكان يعرف فى القرن الثالث عشر باسم حمام يعيش ، ويتألف من ثلاثة أروقة متوازية ، طول الواحد منها عشرة أمتار ، تعلوها قبوات نصف أسطوانية . ويقع الحمام الثانى — وكان يعرف بحمام زيد — فى الحى القديم لليهود ، ويتصل أسطوان المدخل فيه برواقين متوازيين فى حجم مماثل لأروقة الحمام السابق ، تعلوهما قبوتان أسطوانيتان مزودتان بالمضاوى التقليدية .

حمام غرناطة

أقامه بادريس الصنهاجى ، وكان يعرف فى العصر الاسلامى بحمام الجوز . وقد وصل الينا هذا الحمام فى حالة جيدة للغاية . وباب الحمام يؤدى الى بيت المستراح الذى تخلع فيه الثياب ، وهو قاعة تعلوها قبوة نصف أسطوانية تتخللها مضاو مثمنة نجمية الشكل . ويتلو هذه القاعة البيت

البارد ، وهو قاعة طويلة فى نهايتها مخدعان يتقدمهما عقدان على شكل حدوة الفرس تحملهما أعمدة ، ويلى هذه القاعة البيت الوسطانى ، وتحيط به ثلاثة ممرات ، فى كل ممر ثلاثة عقود على شكل حدوة الفرس قائمة على عمد ، وتلتقى بهذه العقود عقود أخرى عمودية على جدران القاعة أقل من نصف دائرية . ويعلو الجزء الأوسط من القاعة قبوة مفرطحة . ويتبع هذه القاعة قاعة البيت الساخن التى تشبه القاعة الأولى . وينتهى الحمام بموقد وبعض الملحقات .

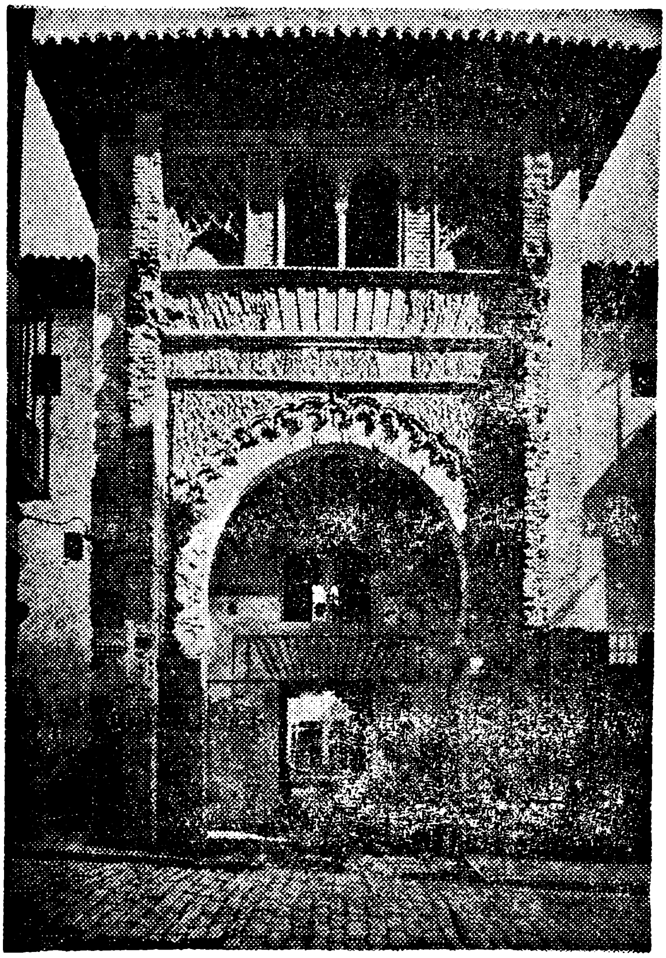
وجدران الحمام مبنية من ملاط شديد الصلابة ، أما العقود فمن الآجر .

حمام بلنسية

هو أكمل هذه الحمامات جميعا ، ويسمى اليوم حمام الميرانتى (Almirante) . ولقد تهدمت منه ردهة المدخل ، وبقيت عدة قاعات منها البيت الوسطانى ، وتعلو الفراغ المركزى بهذا البيت قبة مثمنة تقوم على جوفات مقوسة ، وحول هذا الفراغ أربعة ممرات تطل على وسط القاعة بعقود على شكل حدوة الفرس ، قائمة على عمد من الرخام الوردى بتيجانها الملساء . وتعلو هذه الممرات قبوات نصف أسطوانية تتخللها ، وتتحلى القبة الوسطى مضاو نجمية الشكل .

الفنادق

تأثر المسلمون فى الأندلس بنظام الفندق الذى كان شائعا عند اليونان باسم (Agora) ، والرومان باسم (Horrea) ، فاستخدموا هذا البناء فى مدنهم ومن العجيب أن الفندق الاسلامى فى الأندلس ظل معروفا فى اسبانيا المسيحية ، وكان يعرف باسم (Alhondiga) أو (Alfondiga)



واجهة فندق الفحم بغرناطة

، ومنها اشتقت اليوم كلمة (Fonda) ، وتعنى بالاسبانية فندقا يأكل فيه النزلاء وينامون .

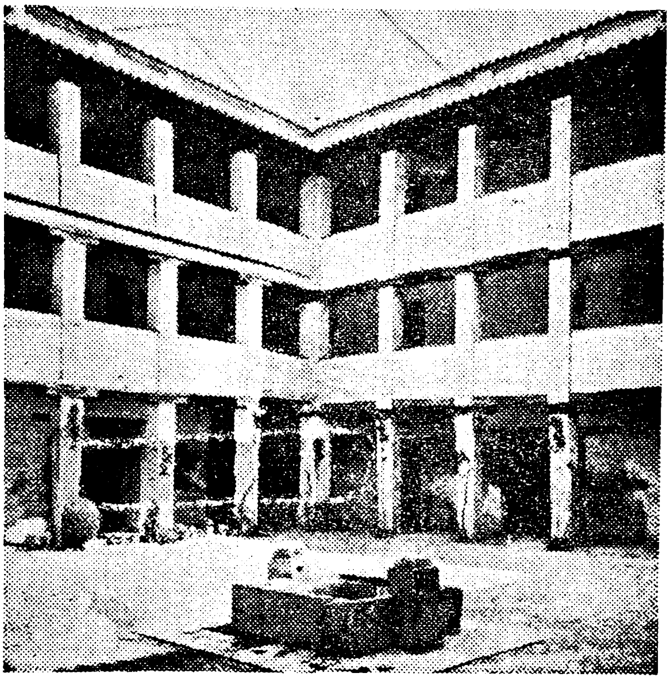
وكان الفندق فى الأندلس بناء يقضى فيه التجار الغرباء ليلهم ، وتحفظ فيه البضائع وتخزن أو تباع أحيانا بالجملة ، فكان بمثابة الخان فى المشرق بجانب وظيفته فى التخزين والبيع . وكانت هذه الفنادق تتسمى بأسماء ما يباع فيها من بضائع : كالحبوب والقمح والخضروات والقراميد والتين ... الى غير ذلك ، أو كانت تتسمى بأسماء أصحابها ، كفندق زايدة بغرناطة .

ويشغل الفندق الأندلسى مكانة هامة فى العمران الاقتصادى ، ولذلك كثرت الفنادق فى أهم مراكز المدينة ، أى حول المسجد الجامع . ويؤيد ذلك ما ذكره الادريسى خاصا بفنادق المرية من أنه كان

بها ، فى النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى ، ما يقرب من ٩٧٠ فندقا .

ويتألف الفندق فى الأندلس — كما نراه اليوم فى مراكش — من بهو مستطيل أو مربع تدور به مجنبات أو ممرات تطل على هذا البهو ، وتتوزع غرف الفندق وراء هذه الممرات . ويخصص الطابق الأدنى من الفندق للمخازن والاصطبلات ، أما العلوى فيشتمل على حجرات النزلاء ومخازن البضائع المعدة للبيع . وتقوم عقود المجنبات حول بهو الفندق على دعائم خشبية تربطها فيما بينها أوتار خشبية كذلك . وكانت هذه الدعائم ، فى الفنادق الغنية ، تتخذ من الآجر ، ويتوسط البهو عادة فوارة للسقاية .

ويمكن الصعود الى الطابق العلوى من الفندق من درجين . وجدران الفندق الخارجية خالية من أى منفذ وذلك لتجنب السرقات . أما المدخل فكان يتخذ شكل عقد متجاوز على هيئة حدوة الفرس ، أو منكسر على مثال عقود الموحدين ، ويحيط به اطار مستطيل تزين بنيقتيه ، اى خاصرتيه ، بعض التكوينات الزخرفية



جانب من بهو فندق الفحم بغرناطة من القرن الرابع عشر الميلادى

والتوريقات . ويلى المدخل ردهة أو أسطوان تعلوه قبوة أسطوانية أو من المقرنصات ، كما هو الحال فى فندق غرناطة المعروف اليوم بفندق الفحم . وتقوم غرفة الفندقى فوق هذا الأسطوان مباشرة ، وهى غرفة مزودة بنافذة مزدوجة العقد ، تطل على البوابة حتى يستطيع الفندقى أن يراقب منها عملية نقل البضائع .

ونظام هذه البوابة ، بعقدها الضخم المنكسر ، يذكرنا بالايوانات المشرقية التى ظهرت بادىء ذى بدء فى القصور الساسانية . وتؤدى الردهة الى باب يفضى الى البهو ، ويعلو هذا الباب عتب ، وتعلو العتب نافذة مزدوجة العقد . ولم يكن بفنادق الأندلس أسرة للنوم ، بل كان النزلاء ينامون على حصر يمدهم بها الفندقى كما يمدهم بالأغطية اللازمة . وكان على النزلاء أن يشتروا طعامهم من الخارج .

وما زال اسم الفندق يطلق اليوم على أحد شوارع اشبيلية (Calle de la Alfondiga) ويعد فندق الفحم بغرناطة أروع أمثلة الفنادق الأندلسية فى القرن الرابع عشر . وبوابته من أجمل البوابات فى العمارة الأندلسية . ويتألف هذا الفندق من ثلاثة طوابق ، ويتوسط بهوه الفسيح حوض لسقاية النزلاء .

القيساريات

اشتهرت مدن الأندلس فى العصر الاسلامى بازدهار متاجرها وكثرة أسواقها . واختصت بعض المدن بكثرة منتجاتها الزراعية — كالزيتون وما يقوم عليه من صناعات ، والفواكه والغلال — وأخرى بوفرة منتجاتها الصناعية : كصناعة المنسوجات والبسط والغضار المذهب (الخزف) والزليج ، وصناعة الصابون واستخراج زيت

الزيتون ، وصناعة آلات الصفر والحديد من السكاكين وما اليها . ولذلك كثرت بمدن الأندلس الأسواق العامرة .

وكانت هذه الأسواق تمتد حول ساحة المساجد الجامعة ، وكانت البضائع القيمة تباع فى بناء كبير على شكل مستطيل ، بداخله طريق تتوزع فيه الحوانيت على كلا الصفين . وكان يطلق على هذا البناء اسم « قيسارية » . وكلمة قيسارية تعريب للكلمة اليونانية اللاتينية (Kaisareie) ، وتعنى السوق القيصرى التابع للدولة .

ونظام القيسارية فى الأندلس يخضع لنظام قيسارية حلب الرومانية . وكانت القيسارية الأندلسية تتألف أحيانا من شبكة من الطرقات الضيقة المسقوفة (زنقات) ، أو من ممرات تدور حول بهو فسيح . وتنفتح الحوانيت على هذه الممرات . وما زالت اشبيلية تحتفظ حتى اليوم بشارع يعرف بشارع القيسارية بجوار كنيسة سان سلفادور ، نسبة للسوق الذى كان يحيط بجامع ابن عدبس . ويحدثنا ابن عبدون فى كتابه عن آداب الحسبة ، بأن هذه القيسارية كانت تضم سوق الثياب ، وسوق الخياطين الذى يسمى اليوم (Calle de los Alfayates) والصباغين ، وسوق السقاطين ، وسوق الصاغة والعطارين .

وكانت القيسارية قائمة حتى عهد الخليفة أبى يوسف يعقوب المنصور سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) . اذ أمر بهدم الديار والحوانيت والفنادق التى كانت تحيط بساحة المسجد الجامع ، ثم أمر ببناء قيسارية حول هذا المسجد الموحدى : تأنق فى بنائها ، وجعل لها أربعة أبواب ضخمة تحوطها من جوانبها الأربعة ، أكبرها الباب القبلى والباب الشمالى ، وكانا يقابلان بابى الجامع القبلى والشمالى . فلما كمل بناؤها بحوانيتها نقلت اليها أسواق العطارين والبزازين والخياطين . وتزاحم الناس فى المزايدة فى كرائها ، فنما الخراج فى ذلك الوقت ، وعمر الجامع بالصلوات فيه . ويغلب على الظن أن أسقف هذه القيسارية الاشبيلية كانت من ألواح الخشب المنقوشة بالزخارف النباتية والتوريقات ، كما كان الحال فى قيسارية مراكش .

وظلت هذه القيسارية قائمة بعد سقوط اشبيلية فى أيدى المسيحيين . وبقيت أبوابها قائمة حتى النصف الثانى من القرن السادس عشر وفقا لوصف المؤرخ الاشبيلى المعاصر لها ألونسو مرجادو . كذلك وصفها المؤرخ رودريجو كارو بعد ذلك بخمسين عاما بقوله : « وتقع القيسارية أمام الدرجات المؤدية الى كاتدرائية سانتا مارية . وعلى الرغم من فقرها الزخرفى فانها تعد بحق غنية بما تحتويه من أسواق الحرير والديباج وغيرها من المنسوجات القيمة . وهناك سوق الصاغة والحلى والجواهر » .

ويحدثنا المؤرخ نفسه عن قيسارية جامع ابن عدبس (كنيسةسانسلفادور) فيقول : «مازالتقائمة فى المكان الذى كانت تشغله فى عهد المسلمين » . وظلت القيسارية الكبرى قائمة حتى طليعة القرن التاسع عشر ، ثم اقتصرت — قبل عام ١٨٣٩ بقليل — على شارع واحد قصير هو شارع قيسارية الحرير ، فى نهاية كل طرف منه عقد ضخم تقوم عليه غرف .

وكانت قرطبة تحتفظ حتى عهد حديث بميدان مستطيل الشكل يعرف بالقيسارية . وكانت لبلنسية قيسارية فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر . كما كانت لكل من طليطلة ومالقة وغرناطة قيسارية تقع قريبا من المسجد الجامع . وتبقى من

قيسارية غرناطة طريق واحد من الطرق الكثيرة المتشعبة داخلها ، وتصطف على كلا جانبى هذا الطريق حوانيت كانت تباع فيها المصنوعات القيمة والمنتجات الثمينة . وقد احترقت هذه القيسارية سنة ١٨٤٣ . ويصفها مارينيو سيكيلو فى القرن السادس عشر بقوله : « يوجد بها ما يقرب من مائتى حانوت ، تباع فيها المنسوجات الحريرية وجميع أنواع التجارات الثمينة . وهذا البناء — الذى يعد فى حد ذاته مدينة صغيرة — يشتمل على كثير من الأزقة والزنقات ، وينفتح فى سوره عشرة أبواب عليها درابون أو حراس معهم كلاب يسهرون الليل » .

دور الصناعة

دار الصناعة بناء تصنع فيه السفن والآلات ، وكانت تسمى أيضا بدار صناعة القطائع ، أو دار صناعة الأسطول . ومن كلمة دار الصناعة اشتقت الكلمة الاسبانية (Atarazana) والكلمة الفرنسية (Arsenal) .

ولم يكن للمسلمين عند فتحهم الأندلس معرفة بصناعة السفن ، فاستخدموا دور الصناعة القديمة لعمل سفنهم . فقد ذكر ابن القوطية القرطبى ، أن سارة القوطية[١] أنشأت مركبا باشبيلية توجهت به الى الشام ، ونزلت بعسقلان . ويغلب على الظن أن هذه الدار كانت من بناء الرومان .

وذكر الحميرى فى كتابه « الروض المعطار » أنه كان بالجزيرة الخضراء دار للصناعة سنة ٧٤١ م فى الوقت الذى نزلت فيه جنود بلج بن بشر فى شبه الجزيرة . وقد أصلح الأمير عبد الرحمن بن محمد هذه الدار ، وأتقن بناءها ، وعلى أسوارها . ثم اتخذها الثائرون زمن الطوائف قصرا . وورد ذكرها أخيرا فى عهد الملك عبد الله الزيرى ملك غرناطة .

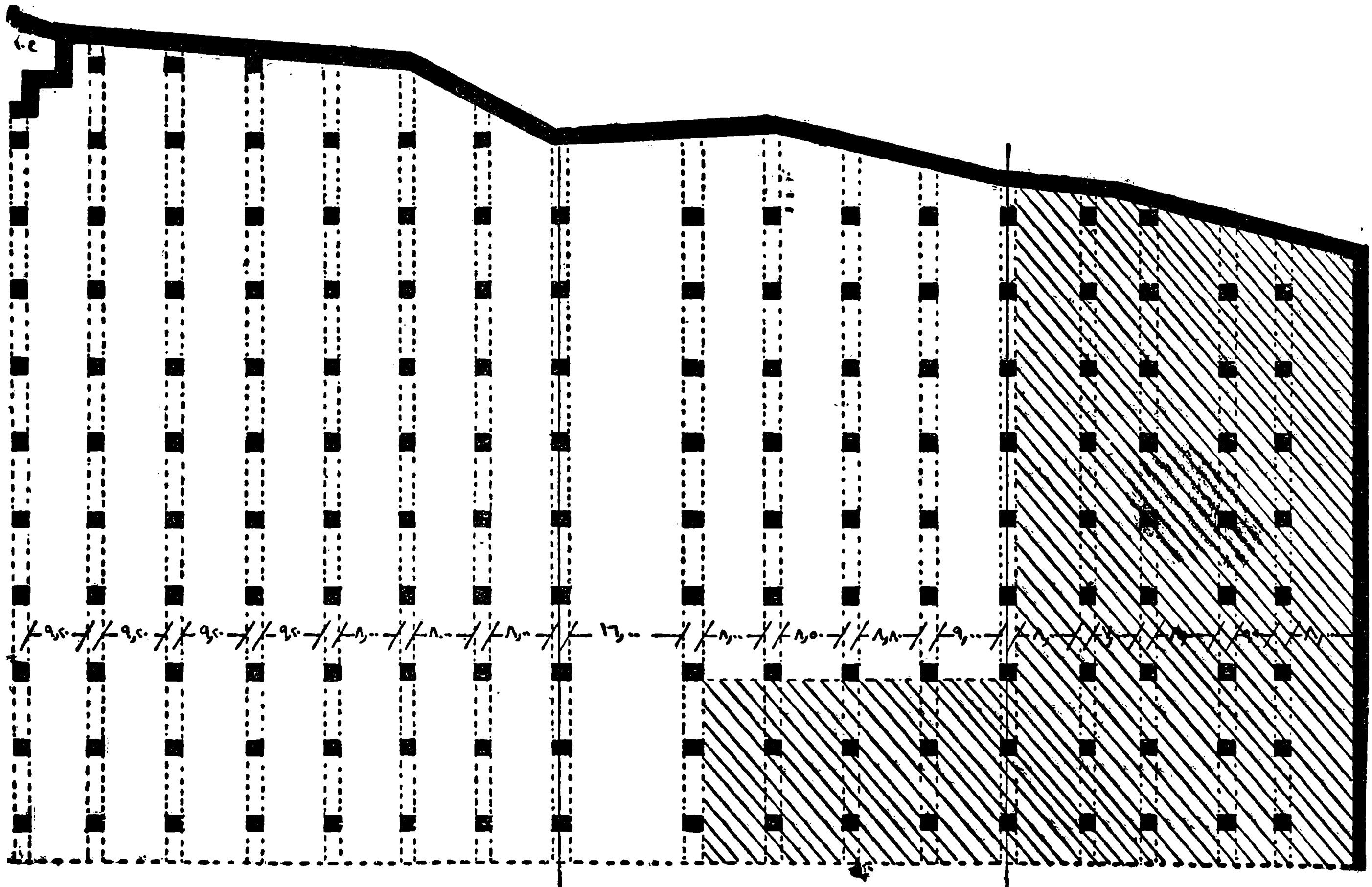
ويبدو أن دار الصناعة باشبيلية قد توقفت عن انتاج السفن حتى عهد عبد الرحمن الأوسط ، حين بدأ النورمانديون يغيرون على سواحل الأندلس ، فاضطر الأمير ازاء ذلك الى بناء دار صناعة باشبيلية . ويقول ابن القوطية بهذه المناسبة : « فأمر باقامة دار صناعة باشبيلية ، وأنشأ المراكب ، واستعد برجال البحر من سواحل الأندلس ، فألحقهم ووسع عليهم ، فاستعد بالآلات والنفط .. فلما قدموا القدمة الثانية سنة أربع وأربعين ومائتين (٨٥٨ م) ، فى أيام الأمير محمد ، تلفوا فى مدخل نهر اشبيلية فى البحر ، فهزموا وحرقت لهم مراكب ، فانصرفوا » .

واهتم عبد الرحمن الناصر ، من بنى أمية خاصة ، باصطناع سياسة بحرية فى الأندلس لمواجهة أخطار النورمانديين والغزو الفاطمى . وأقام دارا للصناعة بالمرية ، وثانية بطرطوشة ، وثالثة بقصر أبى دانس .

وبلغ الاهتمام بصناعة السفن أقصاه فى عصر الموحدين ... فقد ذكر ابن صاحب الصلاة أن الخليفة الموحدى أبا يعقوب يوسف ، أمر واليه على اشبيلية ، أبا داود بلول بن جلداسن ، قبل حملته على شنترين بالبرتغال سنة ١١٨٤ : « أن يقوم ببناء دار صناعة للقطائع ، تتصل من سور القصبة الذى على الوادى بباب القطائع الى الرجل السفلى المتصلة بباب الكحل » . وقد أكد المؤرخ الاشبيلى « أورتث دى ثونييجا » أن دار الصناعة الاسلامية كانت فى الموضع نفسه الذى ذكره المؤرخ المسلم ابن صاحب الصلاة .

---

(١) هى ابنة « المند » أكبر ابناء الملك « غيطشة » ، آخر ملوك القوط الغربيين الشرعيين .



تصميم لبقايا دار الصناعة بأشبيلية والجزء المظلل هو الباقى على حالته حتى اليوم

وقد قامت هذه الدار فى عهد الناصر الموحدى بصناعة عدة سفن حربية . وكان يحميها برج الذهب الذى بناه أبو العلا ادريس المأمون سنة ١٢٢٠ ، الا أن هذه الدار هدمت عند الهجوم البحرى الذى قام به رامون بونيفاث ، قائد أسطول قشتالة ، على مدينة اشبيلية سنة ١٢٤٦ . وفى سنة ١٢٤٨ شرع ألفونسو العاشر فى اعادة بناء دار الصناعة باشبيلية متبعا فى ذلك النظام القديم .

وكانت دار الصناعة باشبيلية تتألف من عدة أروقة عمودية على الوادى الكبير ، تفصل فيما بينها دعائم قوية من الآجر ، وتعلوها قبوات مرتفعة من البناء .. اذ كان المسلمون يحرصون على تجنب الخشب فى أبنيتهم الحربية لقابليته للحريق .

وفى عهد بنى نصر أقيمت دور أخرى لصناعة الأسطول فى المرية ومالقة . وقد استمرت دار صناعة الأسطول بالمرية قائمة حتى سقوط المرية سنة ١٤٨٩ ، ثم خربت بعد ذلك .

أما دار صناعة الأسطول بمالقة ، فقد أنشئت كذلك فى عصر بنى نصر ، ولم يتبق منها اليوم سوى بوابتها الكبرى التى يبلغ ارتفاعها ٨ر٥٦ متر وعرضها ٥٠ر٧ متر . وعقدها من الرخام على شكل حدوة الفرس المنكسرة بعض الشىء فى رأسها ، وتتناوب فى هذا العقد سنجات بارزة وأخرى فى مستوى البناء ، ويحيط بحنية العقد شريط منبعج يتصل بالاطار العام المربع ، ويعلوه عتب مستطيل ، ويشغل بنيقتى العقد رنكان بارزان عليهما شعار بنى نصر ، وهو العبارة المشهورة « لا غالب الا الله » . ويعلو جدران البوابة افريز يمتد فيه صف من العقود المتجاوزة الصغيرة . ويتوج الجدار كله شرفات تشبه شرفات الحصون.

جسور المياه

عندما افتتح المسلمون الأندلس شاهدوا كثيرا من الجسور الرومانية الضخمة ، تحمل المياه من الجبال فى أنابيب دقيقة الى المدن . وقد استخدم الفاتحون هذه الجسور حينا ، ثم تفننوا فى تشييد جسور من عمارتهم حين تقدم عندهم فن البناء .

ويذكر ابن الفرضى أن عبد الرحمن الناصر أقام سنة ٣٢٩ هـ (٩٤٠ م) « القناة الغريبة الصنعة ، التى أجرى فيها الماء العذب من جبل قرطبة ، الى قصر الناعورة غربى قرطبة ، فى المناهر المهندسة ، وعلى الحنايا المعقودة . يجرى ماؤها ، بتدبير عجيب وصنعة محكمة ، الى بركة عظيمة عليها أسد عظيم الصورة ، بديع الصنعة ، شديد الروعة ، لم يشاهد أبهى منه فيما صور الملوك فى غابر الدهر ، مطلى بذهب ابريز ، وعيناه جوهرتان لهما وميض شديد ... يجوز هذا الماء الى عجز هذا الأسد ، فيمجه فى تلك البركة من فيه ، فيبهر الناظر بحسنه وروعة منظره وثجاجة صبه ، فتسقى من مجاجه جنان هذا القصر على سعتها ، ويستفيض على ساحاته وجنباته ، ويمد النهر الأعظم بما فضل منه ... فكانت هذه القناة وبركتها ، والتمثال الذى يصب فيها ، من أعظم آثار الملوك فى غابر الدهر ... لبعد مسافتها ، واختلاف مسالكها ، وفخامة بنيانها ، وسمو أبراجها التى يترقى الماء منها ويتصوب من أعاليها . وكانت مدة العمل فيها ، من يوم ابتدأت من الجبل الى أن وصلت الى هذه البركة ، أربعة عشر شهرا »[١] .

ويغلب على الظن أن هذا الجسر كان لايختلف فى كثير أو قليل عن الجسور الرومانية بماردة وشقوبية وطركونة . ولسوء الحظ لم يتبق شىء من هذا الجسر .

أما اشبيلية فقد كان مشكلة امدادها بالمياه أمرا محيرا بسبب قلة مياهها العذبة القابلة للشرب . ولما اختار الموحدون هذه المدينة عاصمة لهم فى اسبانيا ، لم يقفوا عاجزين أمام هذه المشكلة . فقد نظر الخليفة أبو يعقوب يوسف فى أمر توصيل المياه الى قصوره باشبيلية والبحيرة .

وكان خارج باب قرمونة — فى الفحص الواسع — أثر قديم ، قد بعد به العهد ، من بنيان جسر رومانى قديم ، قد علت عليه الأرض ، وأصبح هذا البناء خيطا رفيعا من حجارة لايفهم المسلمون الغرض منه . فخرج اليه الحاج يعيش المهندس ، وحفر حول هذا الأثر ، فاذا به جسر من المياه قديم من عهد الرومان كانت تجرى فيه المياه . فمازال يعيش يتتبعه بالحفر حتى أوقعه الحفر فى العين القديمة ، المسماة عند أهل اشبيلية بعين الغبار ، كانت تخرج منها المياه ... فاذا تلك العين ليست بعين ماء كما كان الظن ، وانما كانت فتقا فى طريق الجسر الرومانى . فاستمر يعيش فى الحفر حتى اهتدى الى أصل الجسر — قرب قلعة وادى أيرة — فأصلحه المهندس ، وأجراه الى داخل اشبيلية حيث وزع على القصور والحدائق . ومازالت بقية من هذا الجسر قائمة بالقرب من باب قرمونة باشبيلية . وبعض عقودها من الآجر ، والبعض الآخر من الحجارة .

القناطر

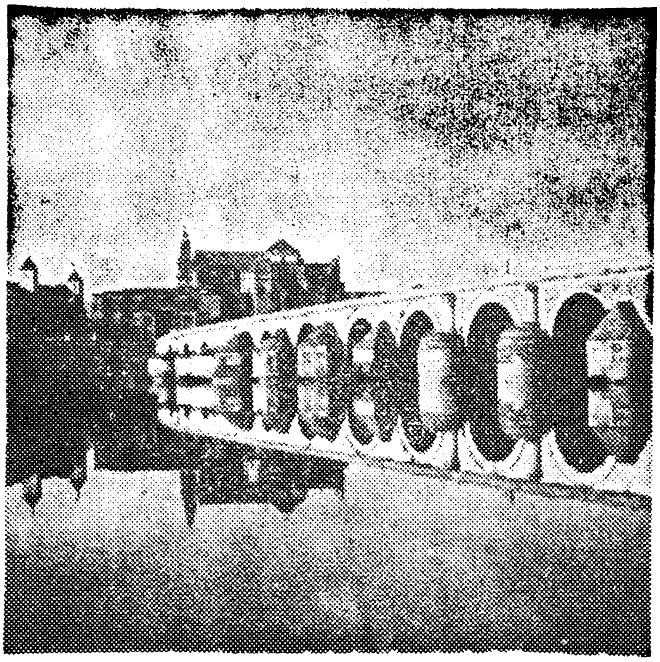
تتميز الأندلس بكثرة أنهارها التى تشق مدنها ، مثل : نهر تاجة ، ونهر آنة ، ونهر الوادى الكبير ، ونهر حدره ، ونهر شنيل ، ونهر وادى لكة

(١) قال ابن بشكوال عن هذا الجسر : « ابتدع الخلفاء من بنى مروان فى قصرها البدائع الحسان ، وأجروا فيه المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة ، وتمونوا المؤن الجسيمة حتى أوصلوها الى القصر الكريم وأجروها فى كل ساحة من ساحاته وناحية من نواحيه فى قنوات الرصاص تؤديها منها الى المصانع صور مختلفة الاشكال من الذهب الابريز والفضة الخالصة والنحاس المموه الى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة فى أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة»

ووادى سليط . فكان من الضرورى أن يهتم أمراء الأندلس باقامة القناطر على هـذه الأنهـار لربط الضفتين . وكانت هذه القنـاطر اما قائمـة على أقواس : مثل قنطرة طليطلة ، وقنطرة قرطبة وقنطرة سرقسطة ، وقنطرة ماردة . واما قائمة على سفن : مثل قنطرة اشبيلية ، وقنطرة مرسية .

وقنطرة اشبيليـة بناها الخليفـة الموحـدى أبو يعقـوب يوسف سنة ٥٦٦ هـ (١١٧٠ م) ، لانجاز مصالح النـاس ، واجازة الجنـد عليها . فابتدأ العرفاء والصناع العمل بهـا ، والنجـارة والهنـدسة لوضعها على النهر ، فى أول المحـرم سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) فتمت فى ٧ من صفر من العام نفسه . وعقد القنطرة على سفن مربوطة ، وبذلك يسر الاتصال بين اشبيلية وربضها المعروف بطريانة . وقد هدمت هـذه القنطرة سنة ١٢٤٦ عنـد فتح الاسبان لاشبيلية .

وقنطرة قرطبة كانت تصل بين مدينـة قرطبة وربضها المعـروف بشقنـدة ، وهى من بنـاء الامبراطور أغسطس قيصر ، وقد وجدها الفاتحون العرب ، عنـد فتحهم لمدينة قرطبة ، مهدمة : قد



قنطرة قرطبة على نهر الوادى الكبير



قنطرة على نهر حدرة بغرناطة

سقطت حناياها ، ولم يبق منها سوى دعائمها ... فجددها السـمح بن مالك الخولانى من أحجـار السور الرومانى . ثم جددت بعد ذلك فى عهد هشام بن عبـد الرحمن الداخل من خمس فىء أربونة ، وأحكم بناءها وأتقنها . وقال يوما لوزرائه : « ما يقول أهل قرطبة ؟ » . فقال أحدهم : « يقولون ما بنـاها الأمير الا ليمضى عليهـا الى صـيده وقنصه » . فآلى هشام على نفسه ألا يسلك عليها . وبالفعل لم يمر عليها طول حياته ، ووفى بما حلف عليه .

ثم جددها عبد الرحمن الأوسـط مرة ثانية . وأعيد بناؤها فى عهد الملك دون بدرو . ثم جددها الملكان الكاثوليكيان . ثم أقيم بها سـنة ١٦٠٢ قوسان جديدان . وفى سنة ١٧٨٠ جددت الدعائم التى تحمل القنطرة . وفى سنة ١٨٨٠ أعيد رصفها من جديد . ثم كسـيت سـنة ١٩١٢ بكسوة من الأسمنت غطت معالمها الأثرية . وفى نهاية القنطرة

من جهة شقنده برج كبير يطلق عليه القلعة الحرة ، بناه أنريكى الثانى سنة ١٣٦٩ على أسس بناء اسلامى . وعدد أقواس هذه القنطرة اليوم ستة عشر قوسا تحملها سبع عشرة دعامة .

أما قنطرة طليطلة فتقوم على نهر تاجه . وكانت تتألف من قوس واحد تكتنفه فرجتان من كل جانب ، وقد خربت القنطرة أيام الأمير محمد وهدمها . ثم أعاد بناءها خلف بن محمد العامرى قائد طليطلة بأمر المنصور بن أبى عامر سنة ٩٩٧ . وخربت بعد استرداد القشتاليين لطليطلة ، ولم يبق منها سوى الكتف الكبير للجانب المقابل للمدينة ، فرممت سنة ١٢٥٩ . وظلت على حالتها الى يومنا هذا .

وقنطرة القاضى بغرناطة ، التى تقوم على نهر حدرة ، لم يتبق منها اليوم سوى مخرج عقد على شكل حدوة الفرس ، ويلتقى هذا المخرج ببرج سداسى الشكل ، مشيد من كتل حجرية . وفى هذا العقد شق مزدوج كانت تحفظ فيه شبكة حديدية ترتفع فى حالة الفيضان ، وتنخفض وقت الجفاف لتسد النهر . ومن هنا سمى هذا الموضع باسم باب الشبكة ، وسمى أيضا بباب الضفاف ، وباب الحواجز ، اشارة الى تلك المغاليق .

ووصلت الينا قنطرة نهر شنيل عند التقائه بنهر حدره فى حالة جيدة ، وتتألف من خمسة أقواس نصف دائرية ، قطر الأوسط منها سبعة أمتار ، وهو أكبر من بقية الأقواس . وتقوم هذه الأقواس جميعا على دعائم مزودة بأكتاف مستديرة من ناحية ، ومدببة من الناحية الأخرى . والبناء قوامه ألواح من الحجر الرملى مصفوفة على جوانبها ، كما هو الحال فى قنطرة القاضى ، تتعاقب فى صفوف من كتل قائمة وأخرى ممتدة طولا .

دكتور عبد العزيز سالم

العمارة الحربية بالأندلس

يشتمل هذا النوع من العمارة فى الأندلس على الأسوار المحيطة بالمدن بأبراجها وأبوابها ، وما أدخل على هذه الأسوار والأبراج من تحصينات استحدثها المسلمون لتدعيم النظم الدفاعية أمام خطر الاسترداد الاسبانى : مثل الأبراج البرانية ، والأسوار الأمامية ، والأبواب ذات المرافق . كما يشتمل على القصاب والقلاع التى كانت تقام عادة فوق الأماكن المشرفة العالية حتى تتمكن حامياتها من السيطرة والاشراف على كل ما يحيطها من مناطق .

وتحتفظ المدن الأندلسية فى وقتنا هذا بتراث ضخم من الأسوار والقلاع الاسلامية التى تنطق حقا بالدور الكبير الذى قامت به ، كما تعبر عن الجهاد المرير الذى قام به المسلمون للاحتفاظ بوطنهم الحبيب والدفاع عن شرفهم وكرامتهم . وقد ظلت هذه الأبنية الحربية الاسلامية مثلا يحتذى للعمارة المدجنة والمسيحية حتى عصر النهضة ، حين فقدت التحصينات من قيمتها الدفاعية القديمة على أثر ما ابتكرته الحروب من آلات حربية جديدة ، كالمدافع والمتفجرات .

الأسوار

قنع الفاتحون المسلمون فى أول عهدهم بالأسوار الرومانية التى كانت تحيط بأهم مدن الأندلس . فلما اتسع نطاق هذه المدن بازدياد عدد سكانها ، وتثلمت أسوارها ، وتمزقت نتيجة طبيعية للتوسع العمرانى ، واقامة الأرباض الخارجة عن نطاق المدينة ، واتصالها بالحومات أو الأحياء الداخلية وأصبحت هذه الأسوار عقبة كأداء فى سبيل العمران ... استعمل المسلمون أحجار هذه الأسوار فى بناء منشآتهم الدينية والمدنية ، وتحولت مواضع

الأسوار المتهدمة الى شوارع فسيحة . ثم أقيمت أسوار اسلامية البناء على نطاق أكثر اتساعا من الأسوار القديمة ، بحيث أصبحت الأسوار الجديدة تحيط بكل ما طرأ على المدينة من توسع عمرانى جديد بعد الفتح .

وتأثرت العمارة الحربية الاسلامية ، بطبيعة الحال ، بالعمارة الحربية الرومانية أو البيزنطية التى كانت سائدة فى اسبانيا ، وحذت حذوها بحيث يصعب على المرء التمييز بين الأسوار الرومانية والأسوار الاسلامية . وما لبث بناء الأسوار الاسلامية أن اكتسب طابعا اسلاميا خالصا ، وذلك منذ عهد الموحدين حيث بلغ الغاية فى الاتقان والتقدم أمام خطر الاسترداد الذى كان يهدد مملكة المسلمين فى الأندلس .

وقد تبقت أجزاء كثيرة من الأسوار التى كانت تحيط بمدن الأندلس : ففى المرية أجزاء ما زالت قائمة من سور خيران العامرى ، وفى قاصرش تبقى جزء كبير من سورها الموحدى ، وفى بطليوس أجزاء من سورها فى عصر الموحدين ، وفى استجة كذلك بقايا من أسوار الموحدين ، وفى غرناطة وقرمونة والجزيرة الخضراء وأرقش ومدلين بقايا أسوار من عهود مختلفة . ودراسة جميع أسوار الأندلس أمر يخرج عن مجالنا ، لذلك فقد اكتفيت بمثالين لبعض هذه الأسوار بقرطبة واشبيلية .

أسوار قرطبة

نجح المسلمون فى الاستيلاء على قرطبة من ثغرة فى سورها القبلى بجانب باب القنطرة التى كانت قد تهدمت وقتئذ . ويبدو أن هذه الثغرة قد اتسعت بعد ذلك بسنوات ، كما تهدمت أسوار قرطبة من الجانب الغربى ، وأصبحت مدينة مفتوحة للداخلين اليها والخارجين منها .

وكان لا بد لوالى الأندلس فى ذلك الوقت أن يفكر فى ترميم سور المدينة ، وتجديد بناء الجسر . فكتب السمح بن مالك الخولانى — وكان واليا على الأندلس وقتئذ — الى الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز يستشيره فى ذلك الأمر ، ويخبره « أن مدينة قرطبة تهدمت من ناحيتها الغربية ، وكان لها جسر يعبر عليه نهرها ، ووصفه بحمله وامتناعه من الخوض فى الشتاء عامة ... فان أمرنى أمير المؤمنين ببنيان سور المدينة فعلت ، فان قبلى قوة على ذلك من خراجها بعد عطايا الجند ونفقات الجهاد . وان أحب صرفت صخر ذلك السور فبنيت جسرهم . فيقال — والله أعلم — أن عمر رحمه الله أمر ببنيان القنطرة بصخر السور ، وأن يبنى السور باللبن اذ لا يجد له صخرا » . فبنى السمح قنطرة قرطبة ، ثم مات عمر . وتولى يزيد بن عبد الملك ، وعزل السمح بعد ذلك ، وبذلك تعطل بناء سور قرطبة .

وظل سور قرطبة مهدما حتى ولى الأمير عبد الرحمن الداخل الأندلس ، فأعاد بناء السور حول قرطبة باللبن فى سنة ٧٦٦ م على أساس السور الرومانى القديم .. وفى ذلك يقول صاحب كتاب فتح الأندلس : « وفى سنة خمسين ومائة أمر الامام ابن معاوية ببناء سور قرطبة ، فبنى ما كان جبر منه باللبن ، اذ بنيت القنطرة من صخره ، فكمل بناؤه حسب ما أمر به » .

وكانت أبواب قرطبة سبعة : واحد فى السور القبلى هو باب القنطرة ، ويعرف بباب الصورة نسبة الى تمثال للعذراء كان منصوبا فى أعلاه ، وكان يسمى كذلك بباب الوادى . وباب الجزيرة الخضراء ، وبابان فى السور الشرقى هما الباب الجديد ويعرف بباب سرقسطة ، وباب عبد الجبار ويعرف أحيانا بباب طليطلة ، وباب رومية . وفى السور الشمالى باب واحد هو باب اليهود أو باب

ليون أو باب طليرة . وفى السور الغربى ثلاثة أبواب هى من الشمال : باب عامر القرش ، وباب الجوز أو بطليوس ، وباب العطارين أو اشبيلية .

وفى سنة ٣٠١ هـ (٩١٣ م) ابتنى الناصر لهذه الأبواب أبوابا داخلية توازيها حتى يتمكن البوابون من تثقيفها . وكان هذا ابتكارا معماريا بقصد المبالغة فى احكام اغلاق هذه الأبواب .

وكانت أرباض قرطبة قد زادت ، وأصبحت تحيط بمدينة قرطبة أو قصبتها من جميع الجهات ، حتى بلغت واحدا وعشرين ربضا . وكانت هذه الأرباض خارج أسوار المدينة القديمة ، غير مسورة على الاطلاق . فلما كان عهد الفتنة التى تبعت سقوط الخلافة الأموية ، وأصبح الناس لا يأمنون على مالهم وأرواحهم ... أقيم حول هذه الأرباض سور مانع وخندق يدور بجملتها . وذكر ابن غالب أن محيط هذا السور بلغ أربعة وعشرين ميلا بما فى ذلك ربض شقندة على الضفة الأخرى من النهر . وكان بناء الأسوار من الطابية [1] .

ظل سور قرطبة موضع رعاية الأمراء والخلفاء حتى أعاد الموحدون بناءه بالملاط الصلب ، ولم يتبق منه اليوم الا بقايا متناثرة لها طابع عمارة الموحدين ، التى تتميز بأبراجها المربعة . ويحيط بالسور الأساسى سور آخر أمامى — أو « حزام برانى » وفقا لتسمية ابن أبى زرع فى كتابه روض القرطاس — ويبلغ ارتفاع هذا السور الأمامى نصف ارتفاع السور الرئيسى . ويعلو الأسوار ممشى أو درب يسير عليه المتحاربون . ويتوج السور شرفات مستطيلة الشكل .

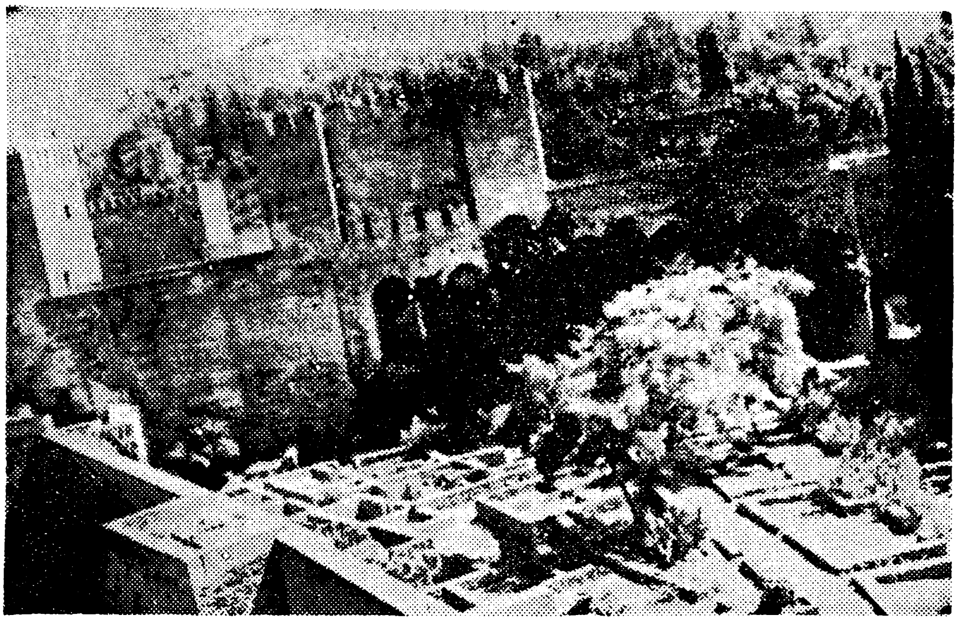
وما زالت بقايا سور عبد الرحمن الداخل قائمة ابتداء من المستشفى العسكرى بقرطبة . وترتكز هذه الأسوار على أسس من قطع الحجارة المهذبة القطع . وهناك قطاع آخر من السور الرومانى القديم ما زال قائما حول باب العطارين .

أسوار اشبيلية

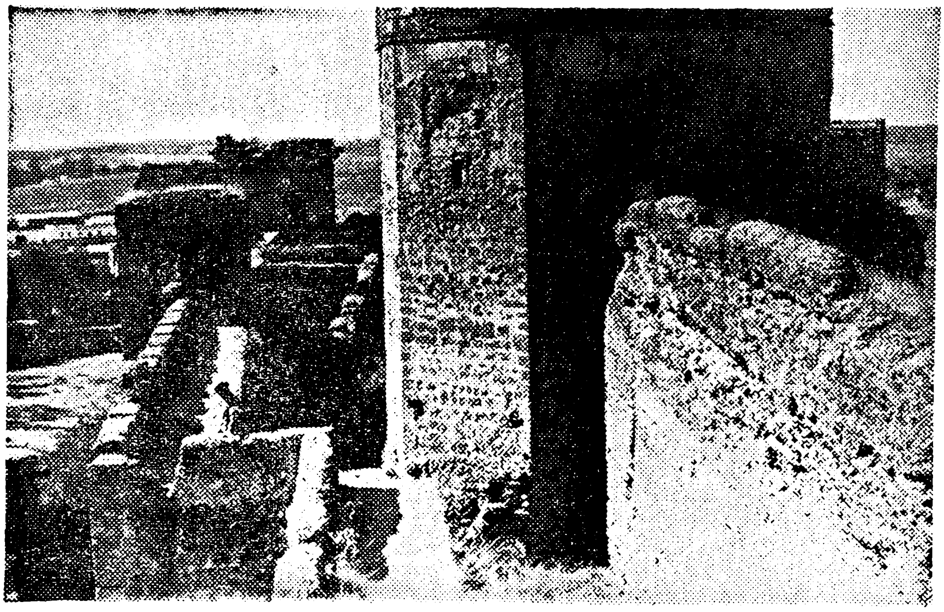
ظلت أسوار اشبيلية الرومانية تقوم بوظيفتها بعد الفتح الاسلامى مباشرة حتى اللحظة التى فاض فيها المجموع العمرانى على نطاق المدينة ، وتجاوز سورها القديم نتيجة لازدحام السكان وكثرتهم ، خاصة عند مقدم جنود الشام الى الأندلس واستقرار جند حمص فى اشبيلية . وكان لابد للأسوار أن تطأطىء من رءوسها أمام هذه الزيادة فى عدد السكان ، لأنها لو بقيت كما هى لأصبحت لا محالة عقبة للتوسع العمرانى للمدينة ... لذلك فان أجزاء من أسوار اشبيلية تفتحت لتتيح للسكان الاتصال فيما بينهم داخل المدينة وخارجها . ويغلب على الظن أن الجزء الذى تهدم منها هو الجزء المواجه للميناء ، وذلك لكثرة العمران به ، ولأنه المكان الذى دخل منه النورمانديون عند ما احتلوا اشبيلية .

وكانت اشبيلية مدينة غنية بمنتجاتها ، عامرة بأبنيتها . وكانت ميناء تصدر منه منتجات الاقليم الجنوبى والغربى من الأندلس عبر الوادى الكبير والمحيط الأطلسى ، فكانت مدينة هامة ، تتمنى أى دولة الاستيلاء عليها . وجاءت اللحظة الحاسمة سنة ٨٤٤ عند ما نزل النورمانديون فى اشبيليه ودخلوها ، ولم تستطع الأسوار أن تمنع دخولهم ،

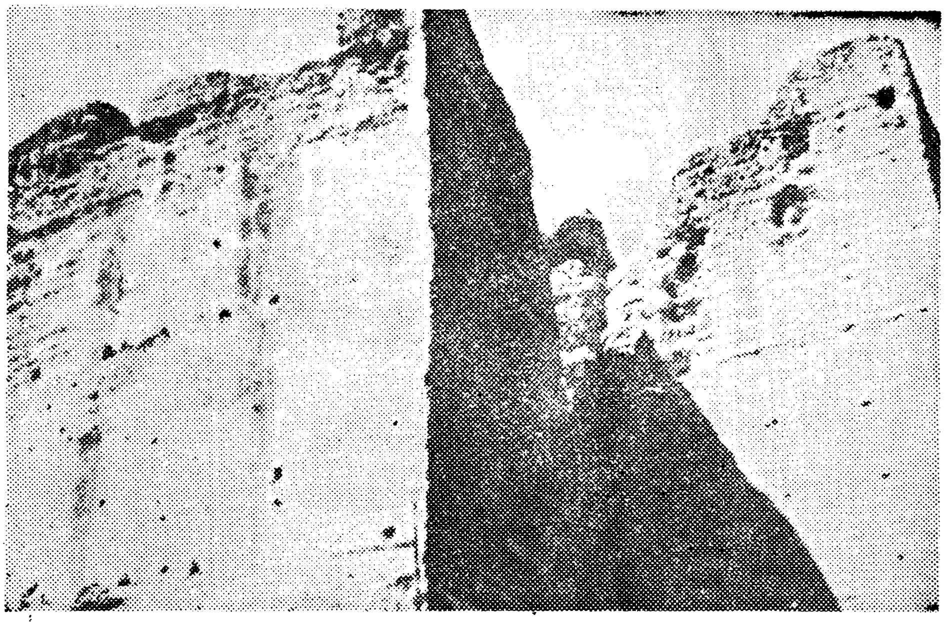
(١) هو تراب مختلط بالكلس يصب بين لوحين من الخشب مقدرين طولا وعرضا ، ومركزين على سمكهما فى المواضع المعدة للبناء . ويبنى السور هكذا سطرا سطرا أو مدماكا مدماكا الى ان ينتظم السور كله ملتحما كأنه قطعة واحدة .



القصبة القديمة بغرناطة



جزء من السور الرئيسى والسور الأمامى المحيط بقلعة جابر



جزء من أسوار قصير منتقوط

أو تدفعهم عنها[1] . وذعر الناس ، وأخلوا المدينة... فتحرك جيش قرطبة ، بقيادة الفتى نصر ، يؤازره جيش الثغر الأعلى بقيادة موسى بن قسى . وأعد المسلمون للنورمانديين كمينا وقع فيه هؤلاء ، وقتلهم المسلمون قتلا ذريعا ، واستردوا اشبيلية بعد أن طردوا منها الحامية النورماندية .

عندئذ أشار الوزراء على الأمير عبد الرحمن الأوسط ببنيان سور اشبيلية . وكتب الوزير عبدالملك بن حبيب الى الأميرعبدالرحمن ، اثرمحنة اشبيلية ، فى بنيان سورها وتحصينها . ووافق ذلك مشروع الأمير عبد الرحمن فى بنيان زيادته بالمسجد الجامع بقرطبة . وذكر له الوزير فى كتابه « ان بنيان سور مدينة اشبيلية أوكد عليه من بنيان الزيادة فى المسجد الجامع . فعمل برأيه فى بنيان سور اشبيلية ، ولم يثن ذلك عزمه عن بنيان الزيادة ، فأعطى كلا منهما بقسطه من ارهاق العزيمه والسخو بالنفقة ، الى آن كملا معا ، كما أراد » .

وذكر ابن القوطية القرطبى أن الأمير عبد الرحمن عهد ببنيان السور الى عبد الله بن سنان ، أحد موالى بنى أمية بالشام ، وكان وثيق الصلة بالأمير وهو طفل . فلما أصبح عبد الرحمن أميرا بعث فى استقدامه ، فقدم فى هذه الآونة التى قامت فيها مشكلة بناء سور اشبيلية . وقام عبد الله بن سنان ببناء السور ، ونقش اسمه على أبوابه .

ويذكر الحميرى أن سور اشبيلية أوثق بناؤه بالحجارة . ويغلب على الظن أن نظام بنائه كان مماثلا لبناء قصبة ماردة التى بنيت عام ٨٣٥ فى عصر عبد الرحمن الأوسط نفسه ، وكذلك كان مماثلا لبناء مسجد عمر بن عدبس باشبيلية الذى بنى فى عهد الأمير أيضا . ومن المحتمل أن هذا السور بنى من حجارة السور الرومانى القديم .

ظلت أسوار اشبيلية صلبة قوية . وكانت اشبيلية ، زمن الأمير عبد الله ، حصينة ممتنعة . وكان يقوم بأمرها بنو خلدون وبنو حجاج . وفى عهد عبد الرحمن الناصر أرسل جيشا الى اشبيلية بقيادة محمد بن حجاج وقاسم بن وليد ، وحاصرها الجيش . ويظهر أن جزءا من السور تهدم فى أثناء الحصار ، وحاول ابن حجاج دخول المدينة منه . ولما دخل جيش الناصر اشبيلية أمر — بعد وقت قصير — واليه عليها ، سعيد بن المنذر ، المعروف بابن السليم ، بتهديم أسوارها حتى يضمن خضوع المدينة له فهدمت سنة ٩١٣ م .

ثم أحيطت اشبيلية مرة أخرى بسور من الطابية زمن الفتنة ، أى بعد سقوط الخلافة الأموية بقرطبة ، وكان هذا السور يحيط بجميع حومات المدينة . فلما استولى المرابطون على اشبيلية ، قنعوا أول الأمر بأسوارها القائمة . ولكن المدينة لم تلبث أن اتسعت خارج الأسوار ، وأصبحت الأسوار لا تفى بحاجة المدينة الدفاعية فى عصر اشتد فيه الصراع بين المسيحية والاسلام فى الاندلس . وترك مدينة هامة ، مثل اشبيلية ، مفتوحة أمام غارات القشتاليين والأرغونيين ، بعد مغامرة خطيرة ... فالأمر كان يقتضى حماية المدينة بأسوار ضخمة تحيط بأحيائها جميعا ، وتدفع عنها غارات الأعداء .

ثم ان اكتساح البسائط ، واضرام النيران فى الفحوص التى تحيط بالمدن الأندلسية ، أمر من

(١) يقول ابن سعيد : « وفى سنة تسع وعشرين ومائتين ظهرت مراكب الاردمانيين المجوس بسواحل غرب الاندلس . ويوم الأربعاء لأربع عشرة خلت من محرم سنة ثلاثين ومائتين حلت على اشبيلية — وهى عورة — فدخلوها ، واستباحوها سبعة أيام ... الى أن جاء نصر الخصى ، وهزم عنها النصارى المعروفين بالمجوس ، وعاث فى مراكبهم . وفى ذلك يقول الشاعر عثمان بن المثنى : —

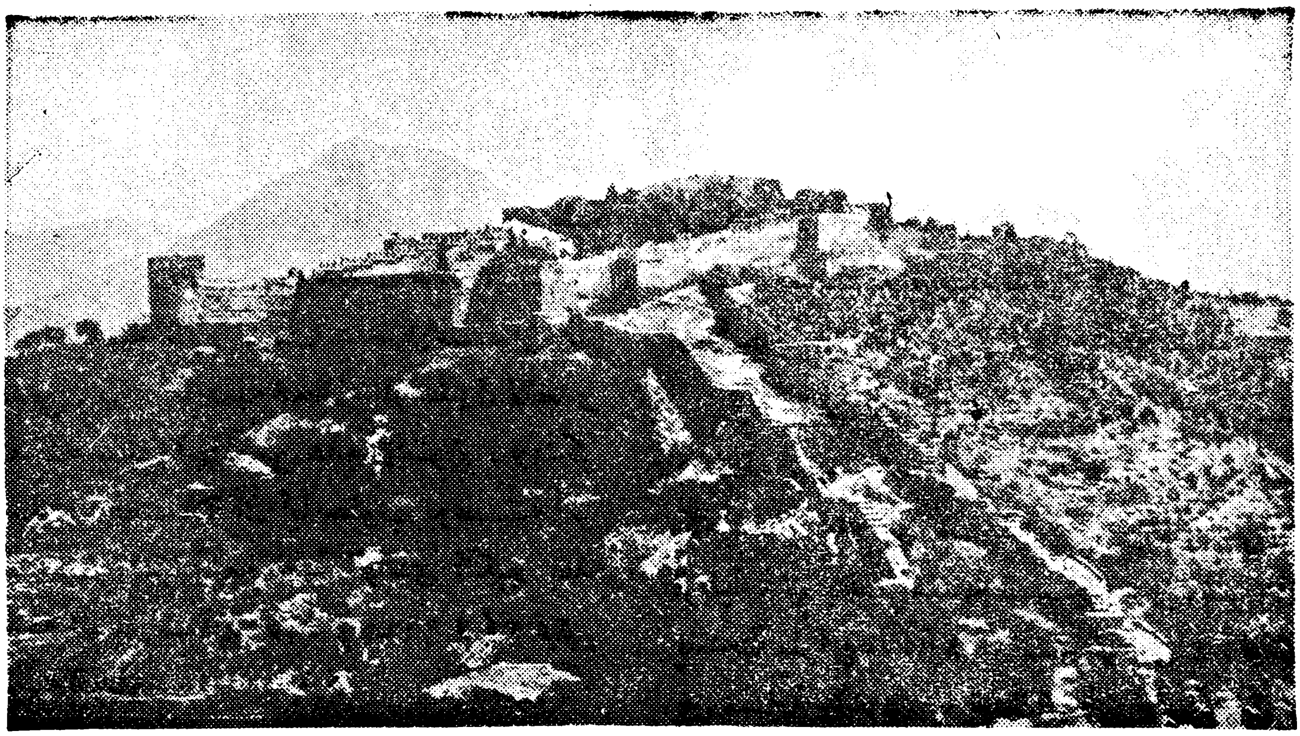
يقولون ان الأردمانيين أقبلوا   فقلت اذا جاءوا بعثنا لهم نصرا
وبعد هذا بنى سور اشبلية باشارة عبد الملك بن حبيب » .



جانب من قلعة جابر



مئذنة جامع قرطبة بعد تحويلها الى برج للنواقيس



حصن جبل فارو بمالقه

السهل تحقيقه . أما فتح مدينة مسورة منيعة فهو أمر صعب .. لذلك اتجهت أنظار رؤساء الأندلس فى عهد المرابطين — خاصة بعد غارة ألفونسو المحارب سنة ١١٢٥ ، واكتساح أراضى اسبانيا الاسلامية حتى غرناطة واشبيلية — الى تحصين المدن الأندلسية ، فعمد هؤلاء الرؤساء الممثلون لحكومة المرابطين الى فرض ضريبة نعرف بالتعطيب على الفنادق ، وخصصت الأموال الناتجة لاعادة بناء أسوار بعض المدن كالمرية مثلا .

أما اشبيلية ، فلم يكن بها مال متوفر فى الوقت الذى قامت فيه مشكلة اعادة بناء أسوارها . فاضطر قاضى المدينة أبو بكر محمد بن عبد الله ابن العربى المعافرى ، الى أن يفرض على أهل المدينة جلود ضحاياهم يوم عيد الأضحى ، فأحضروها كارهين ... الا أن العامة ما لبثت أن ثارت عليه ، ونهبت داره . فاضطر القاضى الى بناء سور اشبيلية من ماله الخاص ، فأقامه بالحجارة والآجر والنورة (الكلس) .

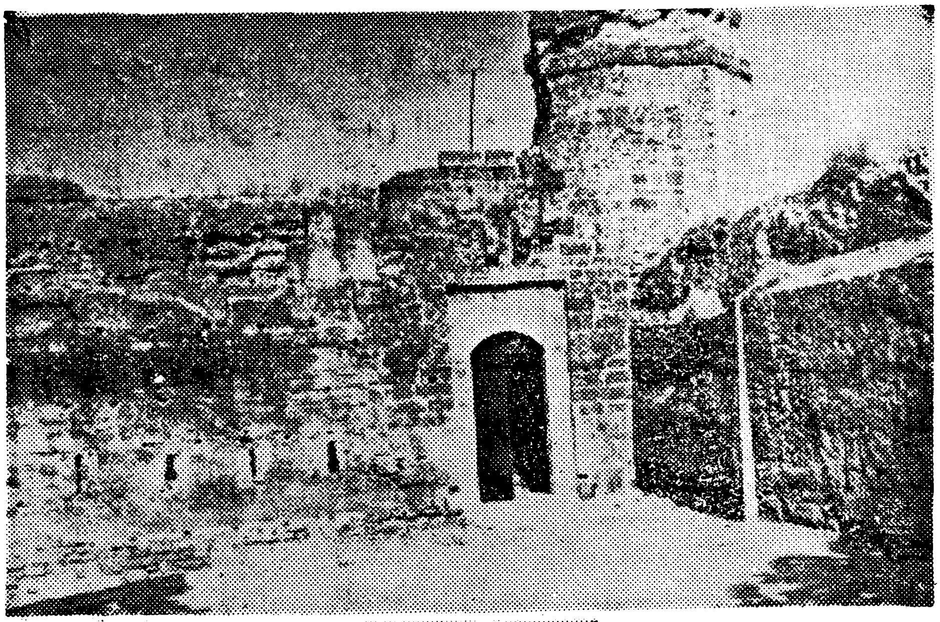
ونضيف الى هذا النص الهام ، نصا آخر اكتشفه الأستاذ بروفنسال فى مخطوط لابن عذارى المراكشى . ويذكر هذا النص أن عليا بن يوسف أمر ببناء سور اشبيلية والشرقية بقرطبة وجزء من سور غرناطة . وقد هدمت هذه النصوص النظرية القديمة التى تنسب هذه الأسوار الى الموحدين . فكل ما عمله الخلفاء الموحدون لايعدو تجديد بناء بعض أجزاء من هذه الأسوار . ويذكر ابن صاحب الصلاة أن أبا يعقوب يوسف أمر ببنيان سور اشبيلية من جهة الوادى الكبير بعد أن هدمه السيل سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨ م) ، فبنى بالجص والجيار .

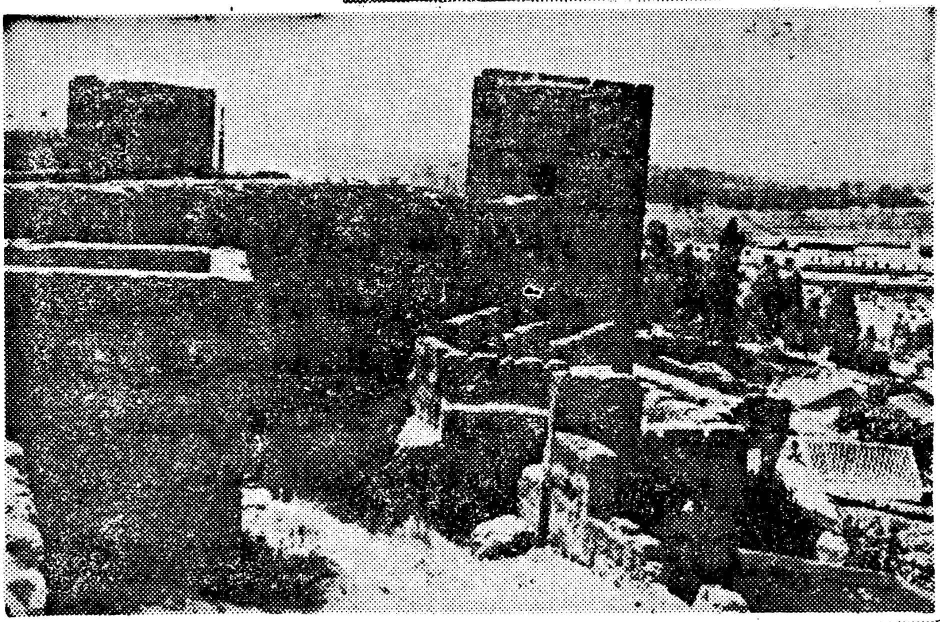
وابتكر المرابطون عند بنائهم لسور اشبيلية نظاما جديدا ... ذلك أنهم أكثروا من الزوايا الداخلية والخارجية فيه بحيث يتخذ شكل خطوط متعرجة منكسرة . وميزة هذا النظام أن يترك المسلمون أعداءهم يتقدمون داخل احدى الزوايا ، ثم يندفعوا عليهم من أعلى الأسوار وعلى دروبها فيفتكوا بهم فتكا ذريعا . ويشبه هذا النظام الزمبرك : اذا ضغط عليه ثم ترك ، اندفع بقوة فيصيب ما يقابله .

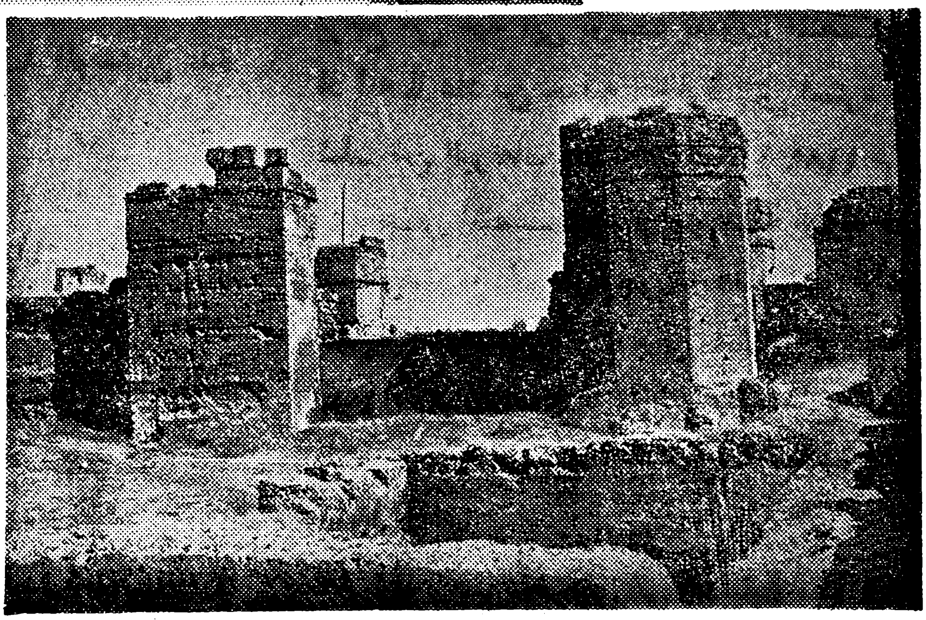
ولما انهزم المسلمون فى عهد الخليفة محمد الناصر فى واقعة العقاب سنة ١٢١٢ ، واشتد خطر النصارى على اشبيلية ، عمد أبو العلاء ادريس (١٢١٨ — ١٢٣٠) الى تحصينها أمام الخطر المحدق بها ، فأقام بها سنة ١٢٢١ برجا هائلا هو برج الذهب المشهور الذى لا يزال قائما حتى اليوم . ثم جدد أسوار المدينة ، وشيد أمامها سورا أماميا يحيط بها جميعا ، وحفر حولها خندقا يدور بهذه الأسوار مبالغة فى تحصين المدينة .

وكل هذه التحصينات جديدة فى فن العمارة الحربية ، ابتدعها المسلمون فى أواخر أيام دولة الموحدين ، حين اشتد الصراع بين ملوك اسبانيا المسيحية والمسلمين . واهتم المسلمون بالذود عن أراضيهم والدفاع عن كرامتهم ، فاتجهوا الى تحسين وسائل دفاعهم ، وتفننوا فى مناعتها ، فابتدعوا هذه النظم المعمارية الجديدة : كالأبراج البرانية ، والأسوار الأمامية ، والأبواب ذات المرافق .

وقد تبقى من سور اشبيلية الذى بناه المرابطون وجدده وحسنه الموحدون ، قطاع كامل : يبدأ من باب مقارنة ، وينتهى الى باب قرطبة ، ثم ينقطع مسافة قصيرة ، ويستمر دائرا بالمدينة مارا بحديقة « معهد الوادى » . وتقوم بين مسافة وأخرى من هذا السور الأساسى أبراج أكثر منه ارتفاعا تبرز خارج المدينة . وكان معظم هذه الأبراج على شكل مربع . ويتألف البرج من


مدخل قلعة جابر


جانب من قلعة جابر


بعض أبراج قلعة جابر

نصفين : نصف أدنى مصمت ، ونصف أعلى تشغله غرفة تعلوها فى بعض الأحيان غرفة أخرى أعدت للدفاع ، وفتحت فيهـا منافذ السـهام . ويرتقى الراقون درجا فى داخل البرج يفضى الى أعلاه ، بحيث يشرف على الأسوار جميعا ، ويدور بأعلى البرج شرفات ودراو مستطيلة الشكل .

أما برج الذهب فهـو برج برانى . والأبراج البرانية (Torres Albarranas) ابتداع موحدى قصد به الدفاع عن منطقة الوادى الكبير ، واغلاق الطريق أمام الأعداء فى أضعف أجزاء السـور . ويرتبط برج الذهب بالسـور الأساسى من طريق قورجـة (Coracha) . وهى عبـارة عن سـور بسيط لم يتبق منه أى أثر اليوم . وأصبح البرج منعزلا يقوم وحيدا على حافة نهر الوادى الكبير .

كذلك أحس الموحدون بأهمية نظام الأسوار الأمامية فى تحصيناتهم ، لأن السور الأمامى يمنع العدو المهاجم من شن هجومه مباشرة على الأسوار الرئيسية ، ويعطل من تقدمه لفتح الثغرات التى يمكنه أن ينفذ منها داخل المدينة ، لذلك ابتنـاه أبو العلاء ادريس سـنة ١٢٢١ ليدعم به سـور اشبيلية .

وكان يخترق اشبيلية فى عهـد الموحدين عدة أبواب ، سمى بعضها بأسماء المدن التى تتجه اليها مثل : باب قرطبة ، وباب قرمونة ، وباب مقارنة ، وباب شريش ، وباب طريانة . وأطلق على أحدها اسم معدن من المعادن الموجودة فى المنطقة ، وهو باب الكحل ، وباب آخر سمى باسم دار الصناعة ، ويعرف بباب القطائع ، وباب سمى باب جهور ، والباب التاسع عرف بباب الفتح .

ولم يتبق من جميع هذه الأبواب ، بحالتـه الاسلامية ، غير باب واحد هو باب قرطبة .

القلاع والقصاب

لما توطد سلطان المسلمين فى الأندلس ، بحيث شمل الجزء الأعظـم من شـبه جزيرة أيبيريا ، وأحسـوا بالاستقرار بعد الفتح ... عمـدوا الى انشـاء مراكز عمرانية جديدة ، تمكينا لمصالحهم الاقتصادية ، ورغبة فى دعم نظامهم الدفاعى أمام المحاولات المسـتمرة من جانب الاسبان لطـرد المسـلمين من الأندلس . وتتميز أكثـر المـدن الأندلسية التى أسسها المسلمون بصـفات حربية بحتة ، مما يدل على أنها أسست للدفاع عن بعض المناطق . وأسماء هـذه المدن تعبر بجلاء تام عن هذه الصفات : مثل قلعة جابر ، وحصن القصر ، وحصن الفرج . كذلك أقام المسـلمون قصـابا أو حصـونا عظمى فى بعض الأماكن المرتفعة من المدينة لدعم الدفاع عنها .

حصن الفرج :

يقع حصن الفرج جنوب غربى طريانة من مدينة اشبيلية ، ويعرف اليوم باسـم « سان خوان دى اثنالفراش » (San Juan de Aznalfarache) وهو تحريف من حصن الفرج . وتاريخ بناء هذا الحصن يرجع الى عهد أبى يوسف يعقوب المنصـور ... اذ أنه لما عاد من حملته الظافرة التى استرد فيهـا شلب من البرتغاليين سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م) — أى قبـل انتصـاره فى موقعـة الأرك بخمس سـنوات — أمر أن يبنى له على النهر الأعظـم باشبيلية حصـن ، وأن تبنى له فى ذلك الحصـن قصور وقباب ، جاريا فى ذلك على عادته من حب البناء وايثار التشييد ، فتمت عمارة هذه القصور مثلما أراد .

ولما رجع المنصور الى اشبيلية سنة ٥٩١ هـ (١١٩٥ م) ، بعد انتصاره فى موقعة الأرك ، جلس

للوفود المهنئة فى قبة من تلك القباب المشرفة على نهر الوادى الكبير ، ودخل عليه الشعراء يمدحونه . وفى هذا اليوم أمر باستعراض جنده فى سلاحهم التام ، فلما مروا بين يديه ، وأعجبه ما رأى من حسن هيئاتهم ، قام وصلى ركعتين لله . وكان ذلك فى ٢٨ من جمادى الآخرة سنة ٥٩١ هـ ، وأصبح هذا الحصن مقرا صيفيا لخلفاء الموحدين ، ومركزا دفاعيا لمنطقة الشرف .

وسقط هذا الحصن فى أيدى القشتاليين سنة ١٢٤٦ بعد مقاومة عنيفة من جانب المسلمين ، ثم تهدمت أسواره فى سنة ١٢٨٤ ، وأقيمت حوله قرية سميت منذ ذلك الحين باسم (San Juan de Aznalfarache) . ولم يتبق منه اليوم سوى آثار ضئيلة لبعض أسواره المرتفعة .

حصن القصر :

من الحصون الشهيرة فى منطقة الشرف المحيطة باشبيلية ، ويقع على بعد ٢٥ كيلو مترا جنوب غربى اشبيلية ، فوق نشز يعرف اليوم باسم (Cerro de Alcazar)، بحيث يشرف من هذا المرتفع على وادى الطلح . وهذا الموقع يعد من أروع المواقع الاستراتيجية . وكان المعتمد بن عباد كثيرا ما يقضى فيه أوقات نزهه . وآثار هذا الحصن الضئيلة تثبت أنه أقيم فوق أبنية رومانية قديمة . أما الآثار الاسلامية فيه فلا تعدو قطاعا من الأسوار طوله ٢٠ مترا وارتفاعه أربعة أمتار ، وبرجا ضخما ، بنيت جميعا من الطابية .

حصن فارو بمالقة :

يقوم على مرتفع جبل فارو ، الواقع شرقى مالقة ، على أسس قلعة فينيقية قديمة . بناه الأمير عبد الرحمن الداخل سنة ٧٨٧ م . وكان يتألف



لوحة تمثل حصن طريانة من اشبيلية قبل تهدمه منقولة من كتاب وضع فى القرن الخامس عشر

فى ذلك الوقت من سياجين : أحدهما خارجى مبنى من الآجر ، والثانى يتصل بالقصبة . ولما تولى عبد الرحمن الناصر اهتم بتحصينه واتمامه . وحوله بنو حمود الى قلعة منيعة ، وأقاموا به برجا هائلا للاشراف على مالقة وخليجها يعرف اليوم باسم (Torre Vigia) ، ويبلغ ارتفاعه ١٧ مترا .

وقد سقط هذا الحصن فى أيدى الملكين الكاثوليكيين سنة ١٤٨٧ م بعد حصار شاق دام أربعين يوما . وتبقى منه اليوم أسوار السياجين والجباب ، وجزء من البرج الأعظم الذى يقال انه كان يعلوه فنار يرسل الضوء الى البحر .

حصن المدور :

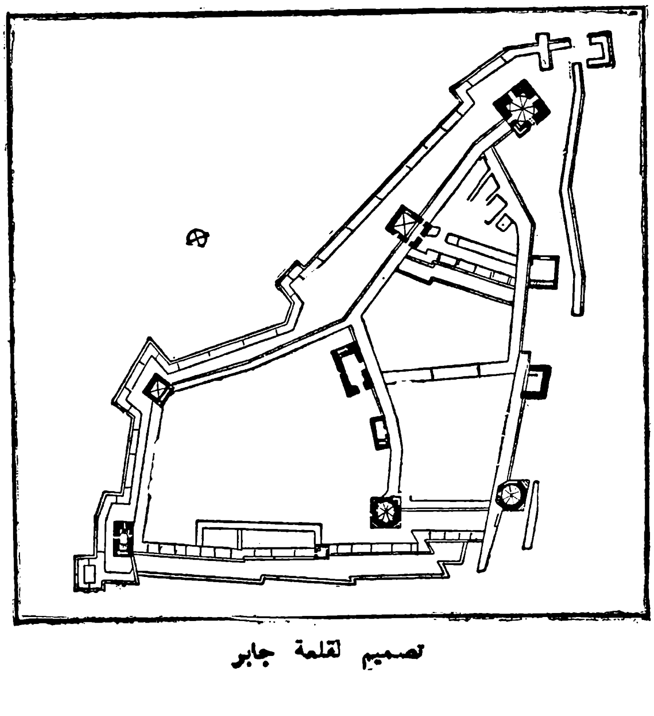
يقع هذا الحصن على جبل يبلغ ارتفاعه ١٥٥ مترا فى الطريق ما بين قرطبة واشبيلية . بناه

المسلمون سنة ٧٥٩ م ، وسمى بالمدور لاحاطة البياسى سنة ١٢٢٦ ، ولكن فرناندو الثالث افتتحه سنة ١٢٤٠ م . وأسوار هذا الحصن متعرجة أسواره لقمة هذا الجبل . وقد جدده أبو محمد تنفق مع تعرجات الأرض التى أقيم عليها ، وتزدوج بعض أسواره فى أماكن مختلفة منه ، وتقوم بها أبراج ضخمة كلها صماء من الداخل ، وتعلوها جميعا شرفات منشورية الشكل . أما مدخل الحصن فيقع فى الجنوب الشرقى منه .

قلعة جابر أو قلعة وادى ايرة :

تقع على بعد ١٢ كيلو مترا غربى اشبيلية ، على الجانب الغربى لاحدى الهضاب ، ويبلغ ارتفاعها نحو ٥٠ر٨٢ مترا ، ويحيط بها وادى أيرة من الجنوب والغرب .

وقلعة جابر أهم مثل للحصون الأندلسية الباقية الآن . وكانت تعد فى العصر الاسلامى المفتاح الحقيقى لاقليم اشبيلية . وكانت — بما تشتمل عليه من أسوار وأبراج ، وقصور ، ودور ، ومسجد جامع ، وحوانيت — مدينة صغيرة .



تصميم لقلعة جابر

وقد تردد اسم هذه القلعة فى المدونات العربية على ثلاث صور : الأولى — وهى التسمية القديمة — أطلقها المؤرخون عند الفتح ، وهى قلعة الرعواق . ثم أطلقت عليها التسمية الثانية : القلعة ، أو قلعة وادى أيرة (Alcala de Guadaira) وهى التسمية الحالية . والصورة الثالثة هى قلعة جابر ، وهذه التسمية الأخيرة أطلقت عليها فى عهد الموحدين .

ومن الثابت أن الموحدين جددوا بناء هذه القلعة ، وزودوا أسوارها بالخنادق والأسوار الأمامية . ويتجلى ذلك فى نظام الأبراج والأسوار التى تشابه كل الشبه أسوار اشبيلية وقاصرش وبطليوس وأبراجها . وكانت القلعة تتألف من سياجين بينهما سور فاصل فى وسطه باب . ولما استولى فرناندو الثالث على القلعة أصلح حصونها ثم أعيد اصلاحها فى القرن الخامس عشر فى عهد الملكين الكاثوليكيين . وفى سنة ١٥٤٣ أجريت عليها اصلاحات عديدة ثم جددت مرة ثالثة فى عهد فيليب الثانى .

ولما استولى الفرنسيون فى القرن الثامن عشر على القلعة ، خربوا كثيرا من أبراجها ، وفتحوا ثغرات واسعة فى أسوارها لتركيب المدافع . وبالرغم من جميع هذه الاصلاحات التى غيرت مظهر القلعة الاسلامية ، نستطيع أن نميز أبراج الموحدين .

قصبة المرية :

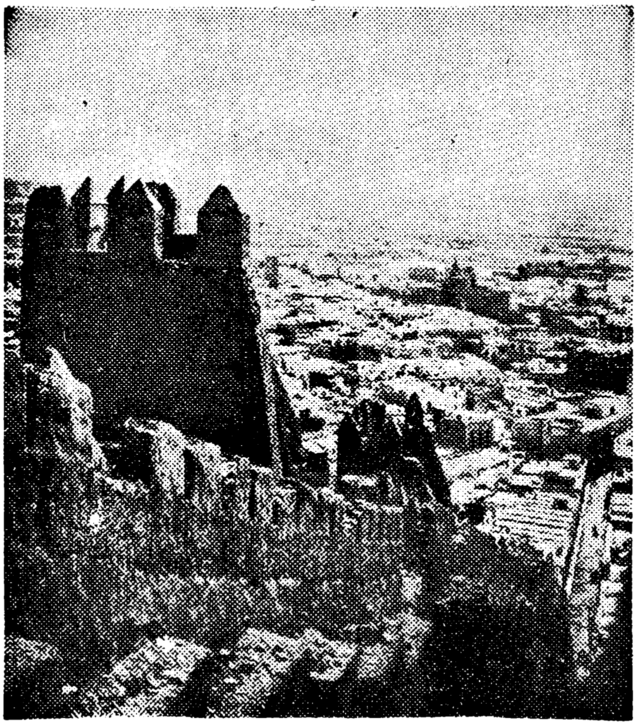
تقع هذه القصبة فى الجزء الشمالى من المدينة ، على جبل مرتفع بحيث يمكن الاشراف منها على الثغر . وتمتد القصبة طولا من الشرق الى الغرب ٥٣٠ مترا ، وتتخللها البروزات والأبراج الكثيرة فى غير نظام . وقد لاحظ الحميرى هذا الامتداد طولا فقال : « وهو حصن منيع لا يرام ، مديد من الشرق الى الغرب » .

وكان يصل القصبة بالمدينة الوسطى باب ، كما كانت مزودة بباب شرقى يخرج من أسوار المدينة . وكان بها مسجد جامع ما تزال آثاره قائمة حتى وقتنا هذا . وتتوزع القصبة فى ثلاثة مرتفعات غير متساوية : فالمرتفع الأعلى يقع غربى القصبة ، ويتصل بسور ربض الحوض فى خط يتفق مع طريق يعرف اليوم باسم شانكا . وكان هذا الجزء من القصبة هو معقلها الأمنع . ويغلب على الظن أنه القلعة المنسوبة الى خيران . وقد أعيد بناؤه فى عهد الملكين الكاثوليكيين ، ويبدو ذلك واضحا فى أبراجه الأسطوانية . أما المرتفع الثانى فيكاد يكون مربعا منبسطا فى سطحه ، وكان يشغله القصر وملحقاته ، ويتصل سوره بسور ربض المصلى مخترقا الطريق المعروف اليوم باسم لاهويا ، وكان يصعد فى سيره حتى يصل الى تل سان كريستوبال أو جبل لاهم الذى ذكره الادريسى . والمرتفع الثالث طويل للغاية ، وكانت فى موضعه حدائق وبساتين أنشأها خيران بعد أن أجرى اليها المياه من المدينة .

وبناء أسوار القصبة قوامه ، فى سائر أجزائها ، خليط من الملاط ، وتسندها أبراج تتجاوز السور فى ارتفاعها . وبالأجزاء العليا منها غرف داخلية ، وتتمثل فى بعض آثار هذه الأسوار بقايا جدران تتبع فى بنائها النظام الخلافى . وقد أسفر البحث الأثرى عن كشف آثار حمام كان يتألف من خمس غرف تمتد على صف واحد .

قصبة بطليوس :

ذكرنا عند الحديث عن بطليوس أنها من بناء عبد الرحمن بن مروان الجليقى ، وأنه بنى أسوارها من الطوب والطابية . وقد زيد فى سمك هذا السور فى عهد الأمير عبد الله بن محمد . وأصبحت بطليوس فى عهد الموحدين مهددة أمام خطر



بعض أسوار قصبة المرية

البرتغاليين والقشتاليين ، فأقام الخليفة أبو يعقوب يوسف بها قصبة شاهقة ، وأجرى اليها المياه من الوادى المعروف بوادى آنة سنة ١١٧٢ م .

وتقوم هذه القصبة على مرتفع من الأرض يبلغ ارتفاعه نحو ستين مترا ، يشرف على المدينة وعلى واديها . ويحيط بالقصبة سور بيضى الشكل ، مزود بأبراج مربعة ، وتتصل به بثلاثة قورجات لا يقل طول الواحدة منها عن ٢٢ مترا . وتنتهى هذه القورجات بأبراج برانية أشهرها البرج المعروف باسبانتا بروس الذى كان يطلق عليه ، منذ عهد ليس ببعيد ، اسم برج الطلايع ، وهو مثمن الأضلاع يشبه برج الذهب باشبيلية ، وجدرانه مبنية من ملاط ، ويجرى على هذه الجدران من أعلى افريز بارز من الآجر ، على نحو أبراج الموحدين . وقد تخلف من أبواب القصبة الثلاثة بابان : أحدهما يعرف بباب التاج ، والآخر بباب الزائدة ، وكلاهما على نظام الأبواب ذات المرفق ... اذ أن الممر الواصل بين فتحتى الباب

ينحنى بزاوية قائمة فى شكل المرفق . ويمتاز هذا النظام بوضع عقبات بتلك الانحناءات تفاجىء الأعداء عند هجومهم .

وجميع الأبراج والأسوار مبنية من الطابية ماعدا عقود الأبواب فهى حجرية . وقد تبقت من أسوارها الواجهة الشمالية الغربية فى حالة جيدة . وكان يتقدم هذه الأسوار أسوار أخرى أمامية ، كما هو الحال فى سور مقارنة بأشبيلية ، ويبلغ الفراغ بين السورين ما يقرب من ثلاثة أمتار . وقد أسفرت الحفائر الحديثة ، التى أجريت فى الواجهة الشرقية بالقصبة ، عن كشف بقايا السور الأمامى الذى كان يدعم مراكزها الدفاعية .

قصبة مالقة :

ترتفع أسوار القصبة فى جلال فى منطقة من أجمل مناطق مالقه ، فوق نشز ينحدر تدريجيا . ولقد أقيمت القصبة أول الأمر ، فى أواخر عهد الأمير عبد الرحمن الداخل ، لتحمى المدينة من غارات النورمانديين . ثم أعيد تشييدها بين عامى ١٠٥٧ — ١٠٦٣ ، فى عهد باديس الصنهاجى . والى ذلك العهد ترجع مجموعة أسوارها الموزعة فى نطاقين . والأسوار مزودة بأبراج ضخمة مربعة الشكل ، تمتد من مسافة لأخرى ، مشيدة من الطوب مع ملاط ضعيف . وفى بعض أجزائها من كتل حجرية غير منتظمة فى صفوف ضيقة بين صفوف مزدوجة من الآجر .

وتشتمل القصبة على قصر باديس الواقع بجوار مقر حجرات غرناطة ، كما أن هناك مجموعة من الدور الصغيرة اكتشفت فى القصبة ، ولا تقل أهميتها عن أهمية القصر . ولعلها كانت خاصة بكبار الخدم فى البلاط .

دكتور عبد العزيز سالم

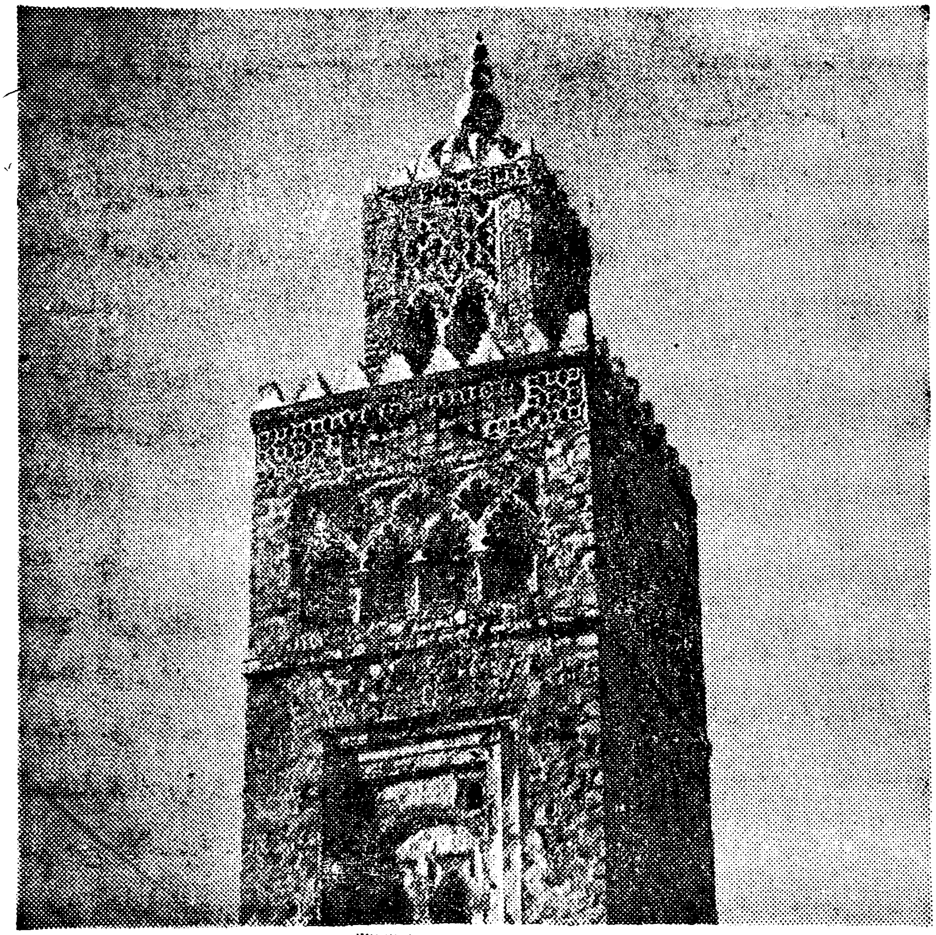
التأثيرات المعمارية فى الأندلس

كانت العلاقات الفنية وثيقة بين الأندلس وبلاد المغرب طوال العهد الاسلامى ، وعلى الأخص منذ أواخر الدولة الأموية بالأندلس . وبدأت التأثيرات الأندلسية فى عهد بنى أمية تتسلل الى بلاد المغرب الأقصى ، ولكنها أخذت تشتد فى عهد ملوك الطوائف ودولتى المرابطين والموحدين ، وشملت كل بلاد المغرب ، وانتهت هذه التأثيرات بسقوط غرناطة ، حين هاجر عدد كبير من أهل الأندلس الى بلاد المغرب ، واستقروا فى مدنه : يعمرونها ، ويغرسون فيها بذور حضارتهم الأصيلة .

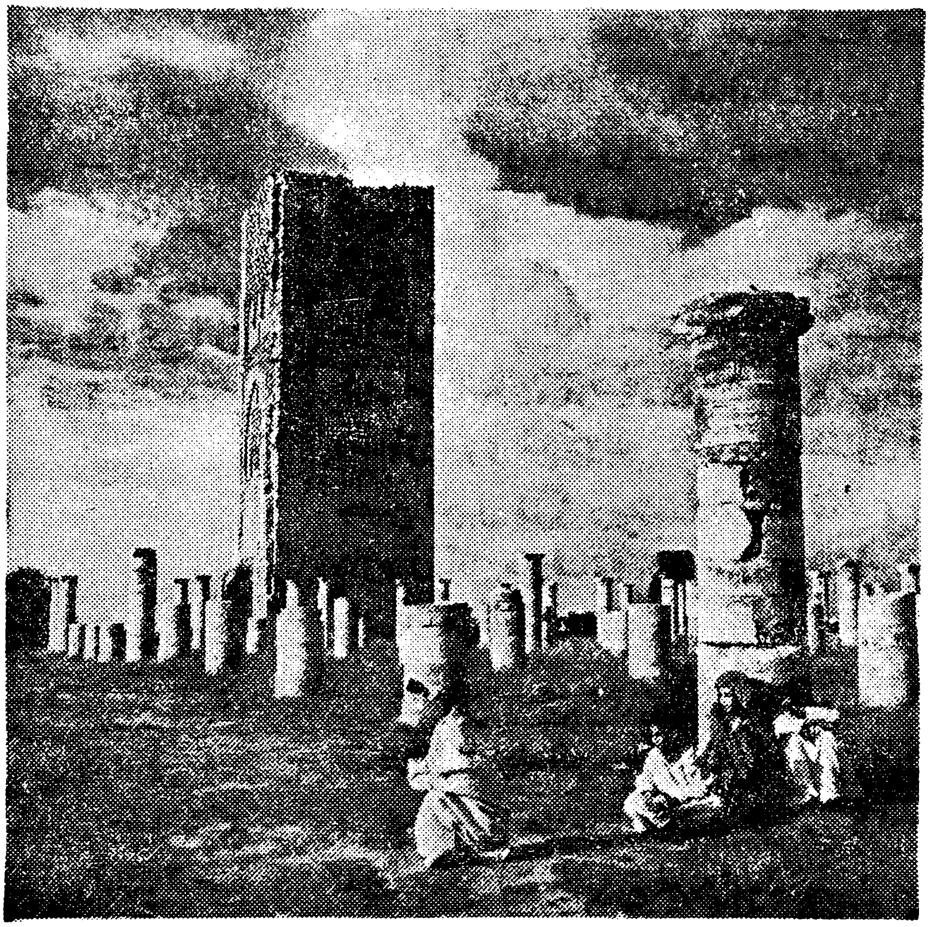
التأثيرات الاندلسية فى عمارة المغرب الأقصى

بدأت التأثيرات الأندلسية تفد الى بلاد المغرب منذ عصر المرابطين الذين تأثروا برقة الأندلس ومظاهر الترف فيها . ويذكر الادريسى أن عليا بن تاشفين ٥٠٠ — ٥٣٧ هـ (١١٠٦ — ١١٤٣ م) ، حين أراد بناء جسر على وادى تنسيفت ، أحضر من الأندلس مهندسين وأشخاصا آخرين مهرة فى فن البناء . ويذكر الاستاذ هنرى تراس أن قلعة تسفيموت المراكشية أقيمت سنة ١١٢٥ م ، فى عهد على بن تاشفين ، بتوجهات رحل أندلسى اسمه الفلكى هاجر الى مراكش وليس من شك فى أن فن المرابطين بمراكش والجزائر تأثر تأثرا كبيرا بالفن الأندلسى ، وهو أمر يقطع باشتراك فنانين أندلسيين فى أعمال البناء بمراكش . ومن هذه العمائر التى يتجلى فيها التأثير الأندلسى : قبة البروديين بمراكش ، والمسجد الجامع بتلمسان .

وعصر الموحدين هو العصر الذى توثقت فيه العلاقات الفنية بين المغرب والأندلس ، وانتقلت التأثيرات الأندلسية الى المغرب ، وظهرت فى جميع



الجزء الأعلى من مئـذنة جامع
الكتبية بمراكش



مئذنة جامع الرباط وبقايا
المسجد الجامع

الأبنية التى أقامها خلفاء الموحدين هنـــاك : مثل جامع حسن برباط ، وجـامع الكتبية بمراكش ، وقصبة رباط .

ويذكر ابن سعيد المغربى : « ان حضرة مراكش هى بغداد المغرب ، وهى أعظم ما فى بر العدوة ، وأكثر مصانعها ومبانيها الجليـلة وبساتينها ، انما ظهرت فى مدة بنى عبد المؤمن . وكانوا يجلبون لها صناع الأندلس من جزيرتهم ، وذلك مشهور معلوم الى الآن » .

هذه العبارة توضح لنا كيف انتقلت التأثيرات الأندلسية الى المغرب الأقصى فى عهد الموحدين . وقد أيدها قول ابن خلدون : « وأما المغرب فانتقل اليه ، منذ دولة الموحدين ، من الأندلس حظ كبير من الحضارة ، واستحكمت به عوائدها بما كان لدولتهم من الاستيلاء على بلاد الأندلس ، وانتقل الكثير من أهلها اليهم طوعا وكرها » .

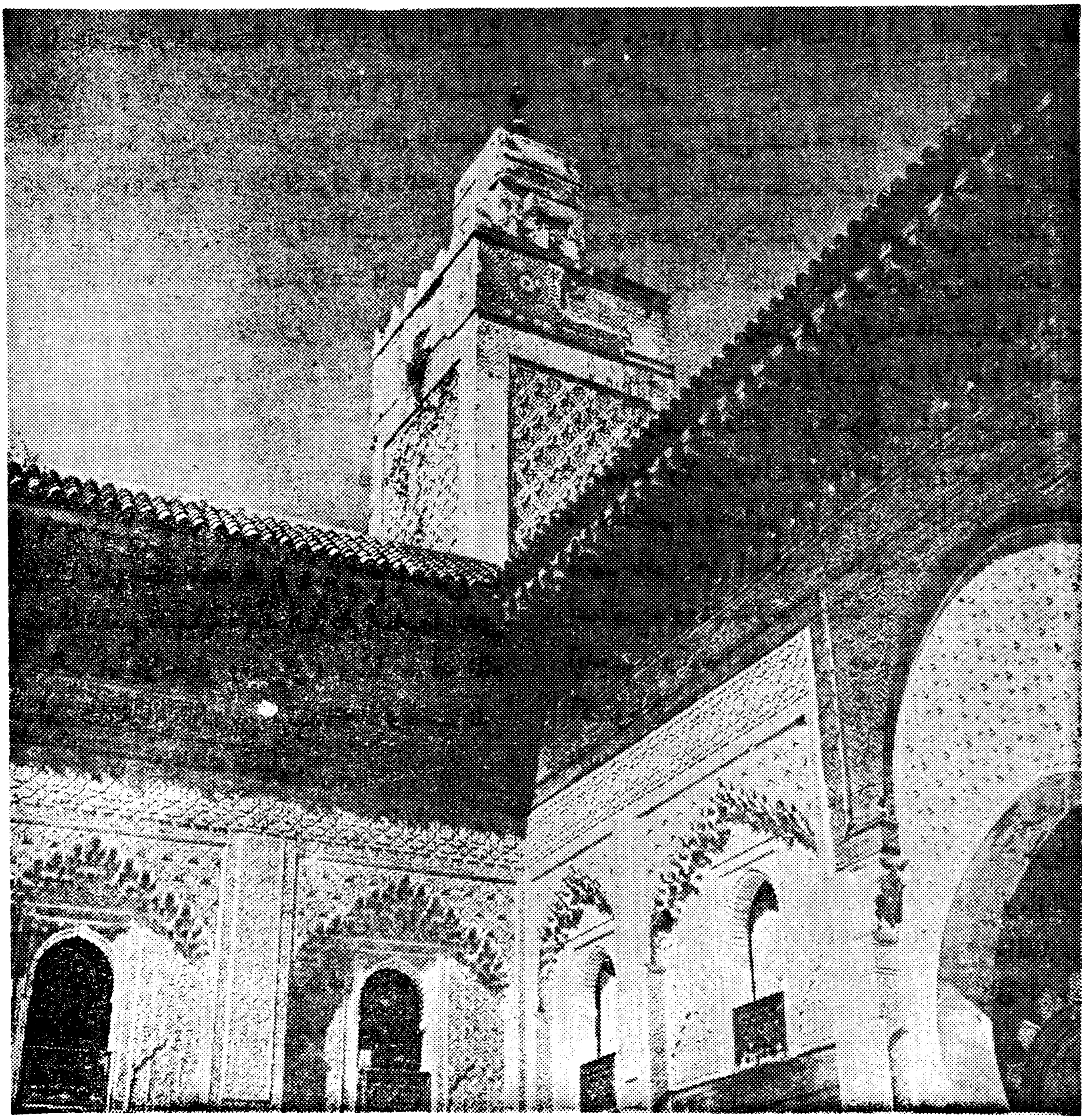
والواقع أن أثر المهندسين الأندلسيين فى عمائر بلاد المغرب فى عهد الموحدين كان عظيما للغاية ، فلقد كان الخلفاء يحيطون أنفسهم — فى بلاطهم بمراكش — بشعراء وعلمـاء من أهل الأندلس . واستخدم عبد المؤمن — وهو أقل خلفاء الموحدين الثلاثة الأوائل اتصالا بالأندلس — عددا كبيرا من الكتاب الأندلسيين : منهم ابن عطية الذى كان يقوم بهذه الوظيفة نفسها فى العهد الأخير من دولة المرابطين .

ولقد برز من بين مهندسى الموحـــدين اثنان اشتركا فى أعمال البناء بالأندلس ، فى عهد عبد المؤمن وابنه أبى يعقوب يوسف ، وهما : أحمد بن باسة ، والحاج يعيش الملقى . ويدلنا اسم أحمد بن باسة على أنه أندلسى الأصل من اشبيلية ، كما يؤكد ذلك أنطونيا ملشر . ولعله ينتسب الى أسرة الباصة المستعربة بطليطلة التى ينسب اليها اليان بن أبى الحسن بن الباصة ، فى أواخر القرن الثانى عشر ، كما ينسب اليها أيضا حسن بن محمد بن باسة المتوفى سنة ٧١٦ هـ (١٣١٧ م) ، المكنى بأبى على صاحب الأوقات بالمسجد الجامع بغرناطة ، والمتضلع فى علم الحساب والفلك ، وصاحب مواقيت الظل ، وابنه أحمد بن حسن بن باسة .

ونعتقد أنه كان لهذه الأسرة فرع فى عهد ملوك الطوائف ، اذ ورد اسم ابن باسة فى أحد فصــول تاريخ أبى مروان بن حيـــان عنـــد ما يقول : « ... وانكدر بأثر وفاته ابن باسة هدام القصور ومبور المعمور ... بيده بادت قصور بنى أميـة الرفيعة ، ودرست آثارهم البديعة ، وحطت أعلامهم المنيعة . قدمه ابن السقاء مدبر قرطبة لجمع آلات ما تهدم من القصور المعطلة » .

أما الحاج يعيش الملقى ، فهو أندلسى أيضا من مالقة . وقد أرسله الخليفة الموحدى عبد المؤمن ابن على مع زميله أحمد بن باســة سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) للاشراف على أعمال البناء بجبل الفتح (جبـل طارق) . وبالفعـل توجه ابن باسة من اشبيلية ، والقائد أبو اسحاق البراز بن محمد من غرناطة الى جبل الفتح ، ولحقهما الحاج يعيش من مراكش . وأمر الخليفة عبد المؤمن بارســال عدد كبير من البنائين والنجارين والفعلة ، من اشبيلية ومناطق أخرى من دولته . وشرع المهندسون فى بناء حصن الجبل فى ٩ ربيع الأول سنة ٥٥٥ ، وكمل بناؤه فى أقل من ثمانية أشهر . وبنى الحاج يعيش طاحونة هواء فى أعلى الجبل .

والحاج يعيش هو صاحب المقصورة الشهيرة الملحقة بالمسجد الجامع بمراكش ، وهى عمل ينم عن فن وحيل هندسية أعجبت كل من شاهدها ، تدور بمحركات خفية ترفع وتهبط بعـد ساعات الصـلاة ، ولا يرى منهـا الا الجزء الأدنى من



فناء المدرسة العنانية بمراكش

المحراب . ولا تزال فى أرضـية الكتبية بمراكش — فى المكان الذى كان يفصل هذا الجزء عن باقى أجزاء المسجد — آثار قطعتين من الخشب بينهما فراغ كاف عميق يتسع لجـدران المقصورة حين تهبط فيه . ولا يشك الأستاذ تراس فى أن يعيش الملقى هو الذى شـيد مسجد الـكتبية بمراكش وجامع تنمال ، وهو المهندس نفسه الذى كشف سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) عن جسر المياه الرومانى باشبيلية ، وكان يحمـل المياه قديمـا من الوادى قرب قلعة جابر ، ثم انقطع منذ عهد قديم ، فتتبعه يعيش فى الطريق الى قرمونة حتى قلعة جابر فجدد بناءه .

وبعد أن أتم أحمد بن باسة أعمال البناء بجبل طارق مضى الى قرطبة لتجديد قصورها ، وتزويد

جوانبها بالقلاع الحصينة . ولما عاد الى اشبيلية فى رمضان عام ٥٦٧ هـ (مارس ١١٧١) ، عهد اليه الخليفة أبو يعقوب بالنظر مع البنائين والعرفاء فى بناء المسجد الجامع . وقد اشترك فى ذلك جميع عرفاء أهل الأندلس ومعهم عرفاء البنائين من مراكش ومدينة فاس وأهل العدوة ، « فاجتمع منهم من أصناف النجارين والنشارين والفعلة لأصناف البناء أعداد من كل صنف ، وصناع مهرة فى كل فن من الأعمال » .

كذلك شرع أحمد بن باسة فى بناء قصور البحيرة سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) خارج باب جهور من اشبيلية . وفى سنة ٥٨٠ هـ (١١٨٤ م) شرع فى بناء مئذنة جامع اشبيلية ، بعد أن ردم أساسها الذى تملؤه المياه بالأحجار والجيار ، وبلط موفد الماء حتى أمن استقرار الأساس وثباته . ويغلب على الظن أنه توفى بعد ذلك بقليل .

واشتهر من مهندسى المغرب على الغمارى من قبيلة غمارة ، وهو الذى قام ببناء مئذنة جامع اشبيلية بعد وفاة المهندس ابن باسة ، وكان يسافر الى مراكش من وقت الى آخر للاشراف على أعمال البناء هناك : كالقصبة بمراكش ، وقصور الخليفة ، والصوامع ، والأسوار بفاس وتاجررات . ويمكننا أن نميز التأثيرات الأندلسية فى جميع هذه الأبنية .

واشتدت التأثيرات الأندلسية فى عمائر المغرب بعد انهزام الموحدين فى موقعة العقاب المعروفة بلاس ناڤاس دى تولوزا سنة ١٢١٢ ، اذ عبر عدد كبير من أهل الأندلس الى بر العدوة مهاجرين الى المغرب ، بعد أن أخذ الأعداء من القشتاليين والأرغونيين يلتهمون مدنهم . وازدادت الهجرة الى المغرب الأقصى بعد هزيمة المسلمين فى موقعة نهر سالادو فى جمادى الأولى سنة ٧٤١ (٣٠ أكتوبر سنة ١٣٤٠) فى عهد السلطان أبى الحجاج يوسف بن الأحمر .

ولما قضى على عدد كبير من أهل الأندلس بالخروج منها — بعد سقوط غرناطة — تفرق كثيرون منهم ببلاد المغرب الأقصى من بر العدوة . فأما أهل البادية فمالوا فى البوادى الى ما اعتادوه ، وداخلوا أهلها ، وشاركوهم فيها ، فاستنبطوا المياه ، وغرسوا الأشجار ، وأحدثوا الأرحاء الطاحنة بالماء ، وغير ذلك . وعلموهم أشياء لم يكونوا ليعلموها ولا رأوها ، وصلحت أمورهم ، وكثرت مستغلاتهم ، وعمتهم الخيرات . وأما أهل الصنائع فانهم فاقوا أهل البلاد ، وقطعوا معاشهم ، وأخملوا أعمالهم ، وصيروهم أتباعا لهم ، ومتصرفين بين أيديهم . وكانوا اذا كلفوا بعمل من الأعمال ، أكملوه فى أقصر وقت ، وأفرغوا فيه من أنواع الحذق والتجويد والمهارة ما يجذبون به اعجاب الناس بهم . وكانت لهم اليد الطولى فى بناء عمائر بنى مرين بفاس ومراكش ومكناس وسلا والرباط وشالة وغيرها من المدن المغربية الكبرى ، ومازالت آثارهم قائمة فى المساجد والقصور والمدارس والحصون والحدائق والبساتين ، وكافة أنواع الأبنية التى تزخر بها هذه المدن .

ولقد تبقى اليوم فى مدينة سلا ، الواقعة على المحيط الأطلسى ، باب بدار الصناعة التى أنشأها بين عامى ٦٥٠ — ٦٦٠ هـ (١٢٦٠ — ١٢٧٠) مدجن من اشبيلية هاجر فى هذا العصر الى سلا ، واسمه محمد بن على بن عبد الله بن محمد بن الحاج الاشبيلى [١] الذى أنشأ أيضا الدولاب (الساقية) القائم فى مدينة فاس جديد ، وذلك فى النصف

(١) يغلب على الظن أنه ينتسب الى الحاج يعيش المالقى ، ويقول ابن الخطيب فى الاحاطة حين يتعرض لذكر محمد الحاج الاشبيلى ان هذا المهندس يجيد الحيل الهندسية ، وكذلك الآلة الحربية الجافية . وقد أقام بفاس الدولاب الكبير .

الثانى من القرن الثالث عشر ، فى عهد السلطان أبى يوسف يعقوب المنصور بن عبد الحق المرينى . وأكبر البابين هو باب المرسى أو باب الميناء الصغير وبه عقد كبير على شكل حدوة الفرس منكسر تبلغ سعته تسعة أمتار ، ويحيط به افريز زخرفى ، كما يدور حوله نقش كوفى . أما بنيقتاه فتحتشد فيهما زخرفة من التوريقات . ويتوج عقد المدخل افريز من عقود صغيرة .

التأثيرات الأندلسية فى تونس

بعد أن استولى خايمى ملك أرغون على بلنسية انتقل كثير من أسرة ابن مردنيش وأهل شرق الأندلس الى تونس ، وأقاموا فى كنف السلطان أبى زكريا الحفصى . ويذكر ابن خلدون : « أنهم أبقوا فيها وبأمصارها من الحضارة آثارا ، ومعظمها بتونس ، امتزجت بحضارة مصر ، وما ينقله المسافرون من عوائدها » .

وقال ابن سعيد المغربى فى هذا المعنى : « ومدنة تونس بافريقية قد انتقلت اليها السعادة التى كانت فى مراكش بسلطان افريقية أبى زكريا يحيى بن أبى محمد بن أبى حفص ، فصار فيها من المبانى والبساتين والكروم ما شابهت به بلاد الأندلس ، وعرفاء صناعه من الأندلس ، وتماثيله التى يبنى عليها ، فانما أكثرها من أوضاع الأندلسيين » .

وكان ابن سعيد يدرك تمام الادراك مدى الأثر الأندلسى فى بلاط تونس ، لأنه خدم الأمير أبا عبد الله المستنصر ، خليفة أبى زكريا يحيى ، وهو أكبر بناة هذه الأسرة . وكان بلاطه يزخر بالأندلسيين الذين هاجروا الى جواره . وكان أبو زكريا هذا أقوى أمير فى زمنه على افريقية ، وكان يفرض سلطانا مؤقتا على اشبيلية وبلنسية ومرسية وشريش وطريف .

وقد أقيم فى عهد سلاطين بنى حفص كثير من القصور والمتنزهات : منها قصر رأس الطابية الذى أسس فى عهد السلطان المستنصر الحفصى ، ٦٤٧ — ٦٧٥ هـ (١٢٤٩ — ١٢٧٧ م) . وكانت بساتينه تتبع نظام بهو السباع بغرناطة . والى هذا السلطان تنسب جنة أبى فهر التى تبعد كيلو مترا واحدا عن جنوب تونس .

وتحتفظ تونس بأسواق العطور والمنسوجات التى ترجع الى هذا العصر . وأهم آثار بنى حفص التى يتجلى فيها التأثير الأندلسي بعض الزخارف التى تزين باب لالا ريحانة ، بجامع القيروان ، ومسجد باب الدرب بالمناستير الذى أقامه المستنصر الحفصى سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) .

التأثيرات الاندلسية فى الجزائر

وفد كثير من فنانى ومهندسى الأندلس الى تلمسان ، فى عهد بنى زيان الذين حكموا المغرب الأوسط أو الجزائر ، فى النصف الأول من القرن الثالث عشر ، حتى منتصف القرن الرابع عشر وكانت تربط ميناء تلمسان بميناء المرية روابط وثيقة . ولقد طلب أبو حمو الأول سنة ٧٠٧ — ٧١٨ هـ (١٣٠٨ — ١٣١٨ م) وابنه أبو تاشفين سنة ٧١٨ — ٧٣٧ هـ (١٣١٨ — ١٣٣٧ م) من السلطان أبى الوليد اسماعيل ملك غرناطة سنة ٧١٣ — ٧٢٥ هـ (١٣١٤ — ١٣٢٥ م) أن يبعث اليه عددا من صناع وفنانى الأندلس لبناء القصور بحاضرته تلمسان ، اذ أن هذه المدينة كانت تحتفظ حتى ذلك الوقت بخشونة الحياة البدوية . وشرع فى بناء هذه القصور فى عهد أبى حمو ، وتم بناؤها فى عهد خلفه أبى تاشفين . ولقد أرسل اليهما أبو الوليد اسماعيل ، أعظم مهندسى مملكته . وأمهرت تلمسان وقتئذ بالقصور والدور والحدائق والجنات التى لم يبن مثلها بعد ذلك ، ومن هذه

الأبنية : دار الملك ، ودار السرور ، ودار أبى فهر . وساهم أبوتاشفين — وكان أميرا فنانا عالما بفن الرسم ، محبا للبناء والتعمير — أكثر من أى سلطان آخر فى تجميل عاصمته ، وذلك ببنائه القصور . كما شجع رجال قصره على بناء القصور ، وانشاء الجنات ، وغرس البساتين . وفاق بذلك أباه فيما قام به فى هذا السبيل . وللأسف لم يتبق شىء مما أقامه ، اذ أن السلطان المرينى أبا العباس خربها ودمرها سنة ٧٨٦ هـ (١٣٤٨ م) .

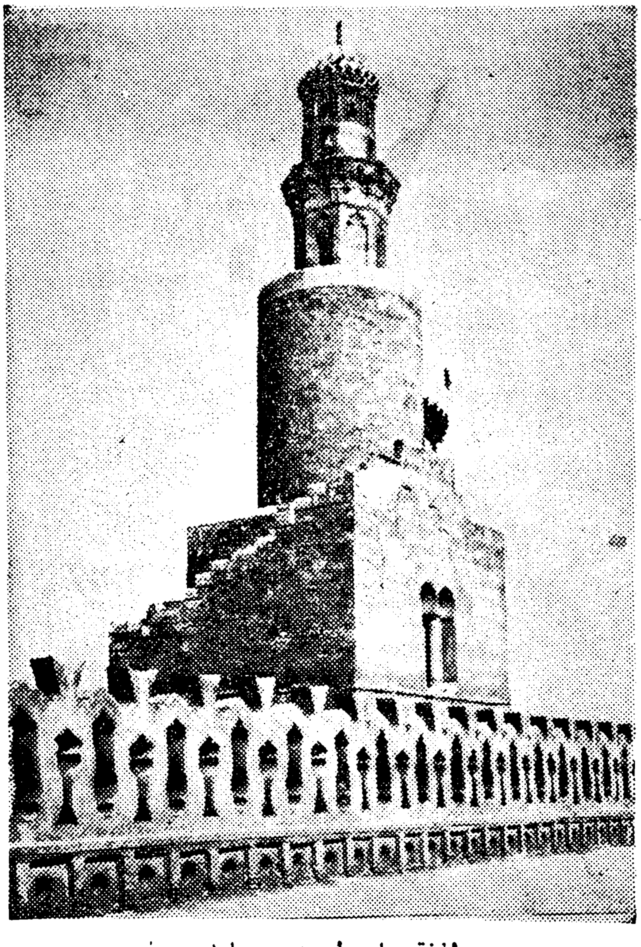
وتصور المساجد التى أقامها بنو زيان الى أى حد تأثر فن العمارة الجزائرية بالعمارة الأندلسية . ويعد مسجد سيدى بل حسن ، الذى أقامه السلطان أبو سعيد عثمان سنة ١٢٩٦ ، صورة مماثلة لمسجد الحمراء . ولقد نقل الى تلمسان كثير من العناصر الزخرفية من الأندلس ، منها الزليج الذى كان يزين مسجد المشوار بمدينة تلمسان .

وتصور واجهة مسجد العباد مدى تأثير العمارة الغرناطية فى عمارة الجزائر ، فى عهد السلطان أبى الحسن المرينى ، اذ أن زخارف التوريقات والزخارف الهندسية ، التى تكسو الجدران جميعا موزعة فى تقاسيم غاية فى الروعة والجمال . كذلك يمكننا مقارنة مئذنة المنصورة بمئذنة جامع اشبيلية : لتشابه تقاسيمهما الزخرفية ، وتفاصيلهما المعمارية ، وتشبيكاتهما القائمة على تقاطع العقود بنظائرها فى الخيرالدا .

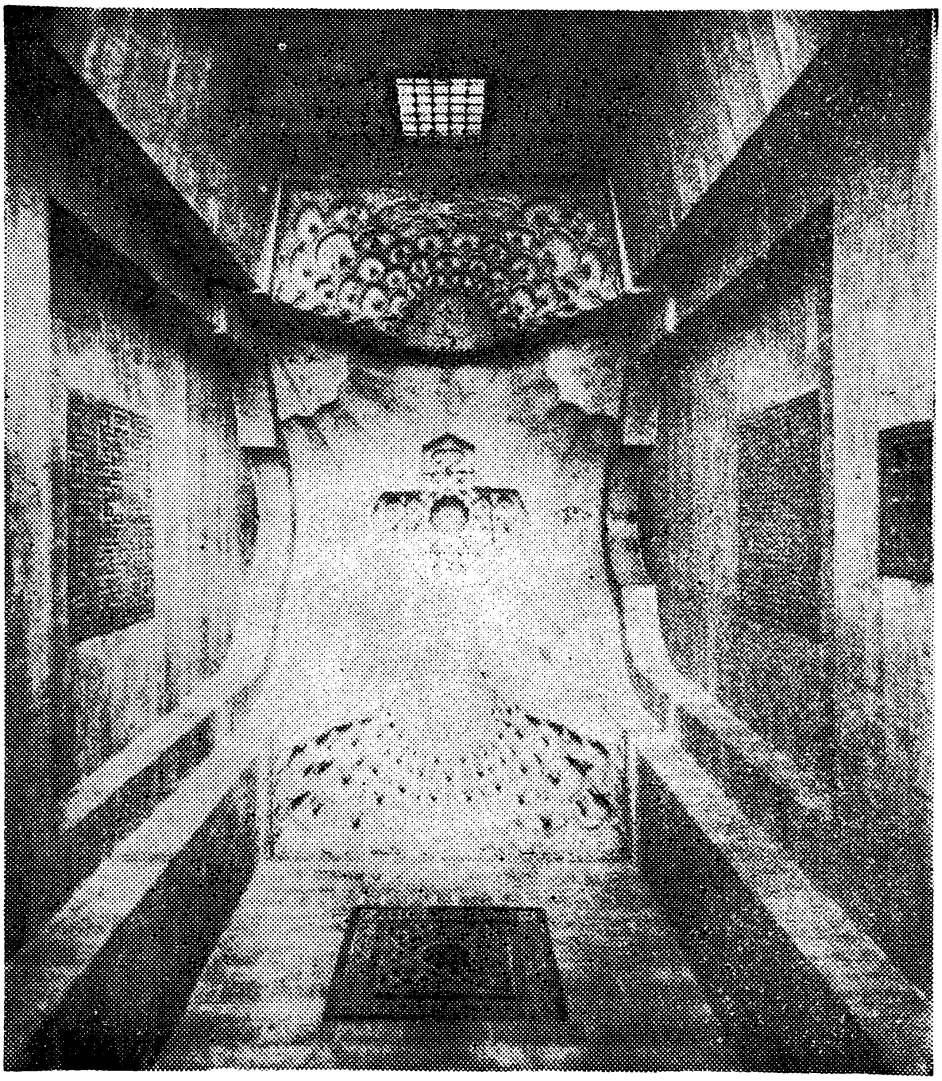
التأثيرات الأندلسية فى العمارة المصرية

يعد عصر المماليك العصر الذى تسربت فيه التأثيرات الفنية الأندلسية الى مصر . ذلك لأنه العصر الذى توثقت فيه عرى الصداقة بين مصر واسبانيا المسيحية والاسلامية معا . فما كادت تسقط بغداد فى أيدى التتار سنة ١٢٥٨ حتى تألفت فى القاهرة جبهة قوية لدفع خطر التتار المدمر . واستطاع الملك المظفر سيفالدين قطز أن يهزمهم هزيمة نكراء فى واقعة عين جالوت فى ٢٥ من رمضان سنة ٦٥٨ هـ (٣ سبتمبر سنة١٢٦٠) . وبذلك تمكنت مصر من صد هذا السيل الجارف الذى كان يهددها ويهدد دول أوربا . وقدر لمصر أن تنقذ أوربا من غزو محقق كاد يقضى قضاء مبرما على معالم حضارتها ، وارتفع بذلك شأن مصر ، وأخذ ملوك اسبانيا المسيحية يخطبون ود سلاطينها بالسفارات المتتابعة .

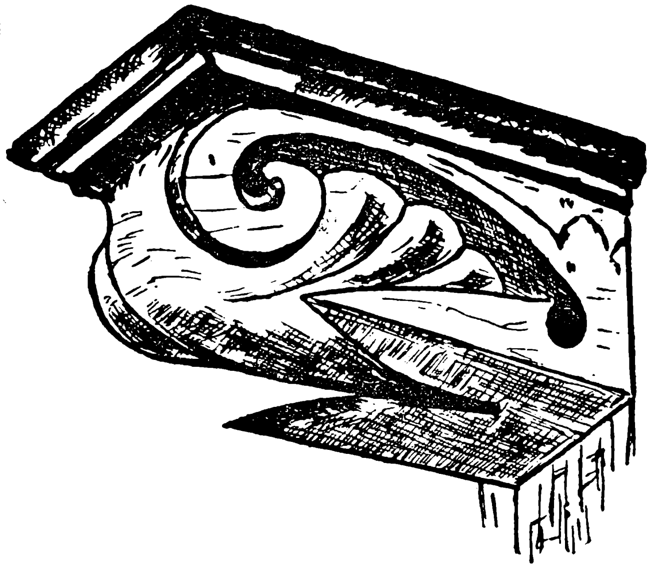
ولقد أتاحت لنا الوثائق العربية بمحفوظات مملكة أرغون أن تتتبع تاريخ هذه الصلات الودية تتبعا تاريخيا ، منذ أن وقعت بين الملك الأشرف خليل بن السلطان المنصور قلاوون ، و « خايمى » الثانى ملك أرغون ، معاهدة الصداقة والسلم فى ١٩ من صفر سنة ٦٩٢ هـ (٢٨ يناير سنة ١٢٩٢ م) ،



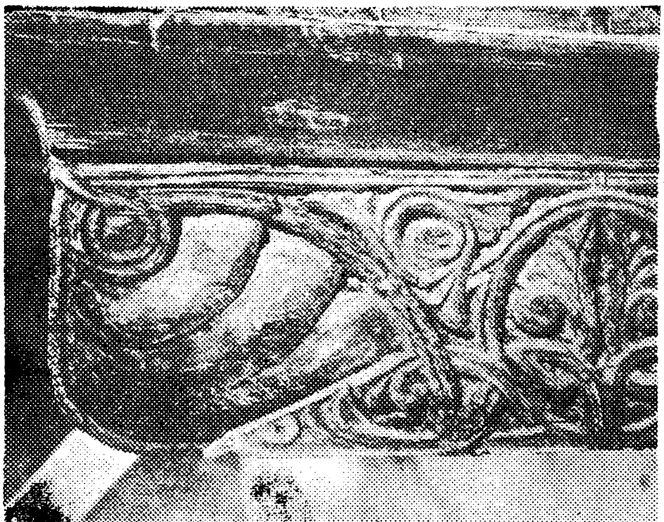
مئذنة جامع احمد بن طولون



قبوة مقرنصة بجامع الجاى اليوسفى بالقاهرة



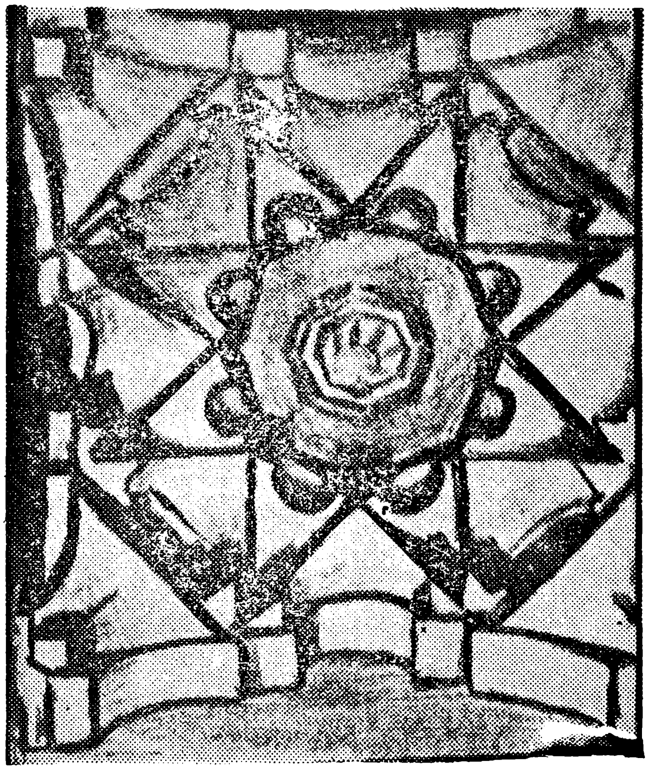
ركينة من الخشب بجامع ابن طولون



ركينة بكنيس سانتا ماريا لابلانكا بطليطلة

واشترك فى هذه المعاهدة ملك قشتالة وليون وملك البرتغال . ولقد جددت هذه المعاهدة فى عهد الملك الأشرف برسباى فى ٣٠ مايو سنة ١٤٣٠ بينه وبين الفونسو الخامس ملك أرغون . وكانت العلاقة طيبة للغاية بين سلاطين بنى الأحمر بغرناطة ، وسلاطين المماليك فى مصر . ويمكننا أن نذكر على سبيل المثال السفارات المتبادلة بين ملك غرناطة محمد الخامس ، وملك مصر الأشرف شعبان فى النصف الأخير من القرن الثامن الهجرى . كما أرسل الغالب بالله محمد بن محمد بن نصر سنة ١٤٤٠ عدة سفراء الى السلطان الظاهر جقمق ، (١٤٣٨ — ١٤٥٣) طالبا منه معونة يتقوى بها مسلمو الأندلس فى الدفاع عن أنفسهم ضد جيرانهم المسيحيين فى أسبانيا .

وكان من أثر هذه العلاقات الطيبة أن زار مصر عدد كبير من أهل غرناطة سواء للتعليم أو التدريس ، وقد أقام فيها من طابت له الاقامة . وكانت حركة الاسترداد الاسبانى قد أوشكت أن



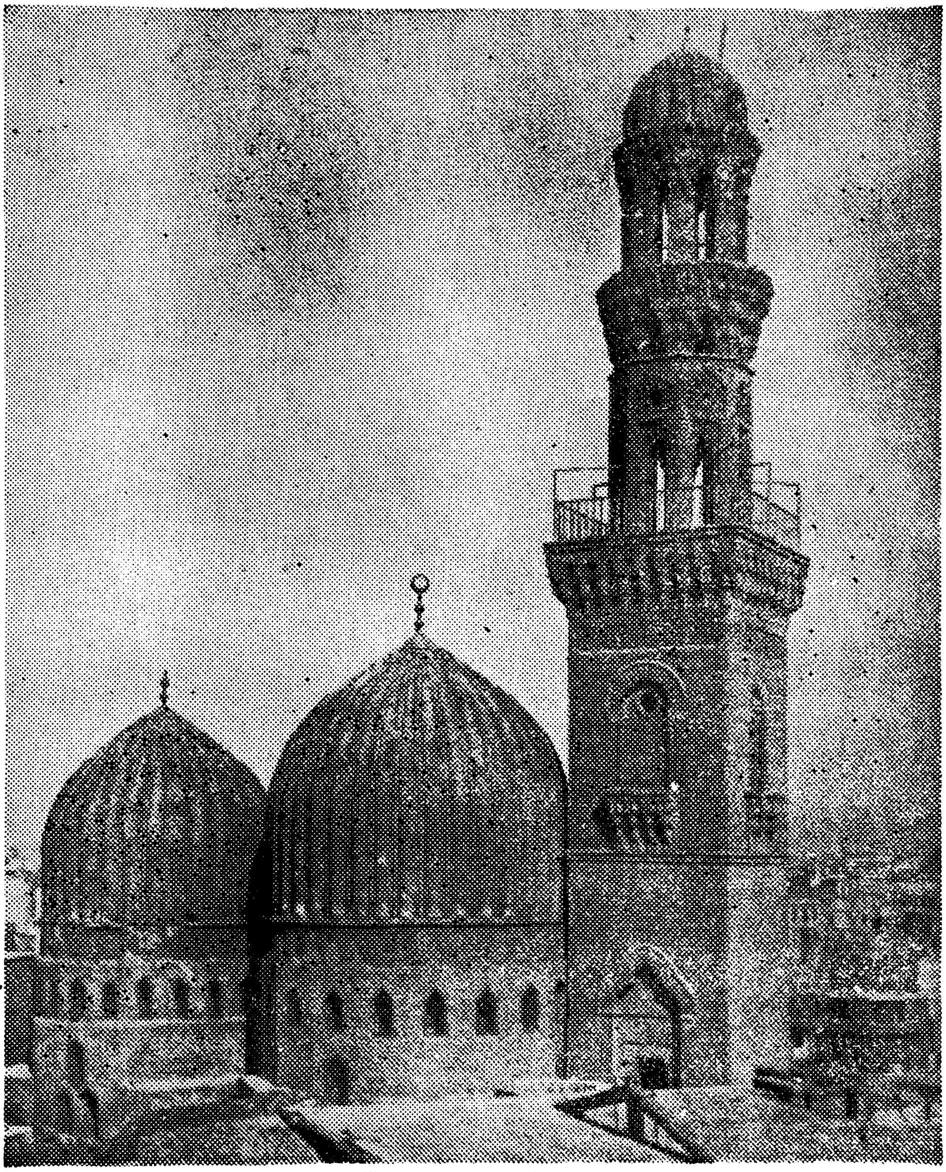
قبوة من المقرنصات بدير لاس أويلجاس ببرغش

تجهز على دولة الاسلام بالأندلس ، التى انكمشت رقعتها بعد موقعة سلادو ، فهاجر عدد كبير من أهل الأندلس الى مصر عند سقوط مدنهم ، ووفد كثير من هؤلاء المهاجرين الى بلاط سلاطين المماليك يحثونهم على استرداد الأندلس ، وانقاذ مملكة غرناطة .

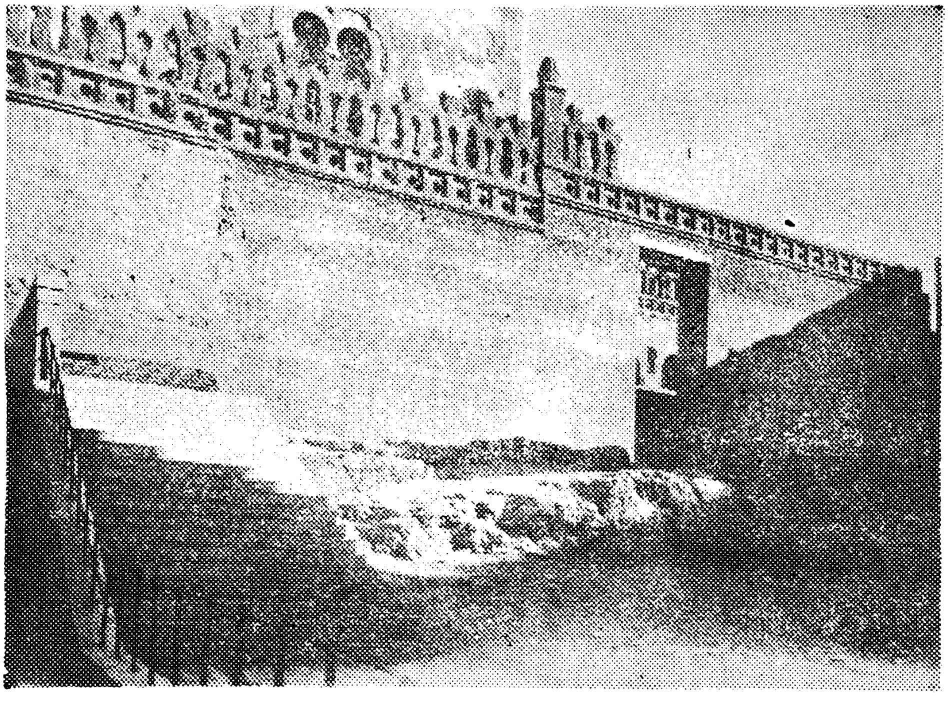
وليس من شك فى أن من بين هؤلاء المهاجرين بعض الصناع وأرباب الحرف والعرفاء . ويدل على ذلك بعض قطع الزليج الأندلسى التى عثر عليها فى حفائر الفسطاط ، مما يؤيد ما ذكره سفير السلطان الغرناطى الغالب بالله محمد ، الى السلطان جقمق ، فى رسالته أنه هو وأصحابه قدموا بعض الهدايا الى السلطان المملوكى . ويقول هذا السفير : « وقد كنا قد قدمنا له شيئا مما اصطحبناه من متاع الأندلس : كالفخار الملقى ، والانجبار الغرناطى ، وشىء من ثياب الخز المنسوجة بها ، وغير ذلك » .

وكان لهذه العلاقات أثرها الكبير فى نفاذ التأثيرات الأندلسية فى العمارة المصرية فى عصر المماليك . ونشهد ذلك فى عقود الطابق الأعلى من مئذنة المنصور قلاوون ، وفى تفاصيل الزخرفة الجصية بمئذنة الناصر محمد بالنحاسين ، وعقود مسجد سنجر الجاولى .

وهناك بعض عناصر معمارية أخرى تكشف عن تأثير أندلسى مباشر . فان أوجه الجزء المربع من مئذنة جامع ابن طولون ، التى أعاد السلطان حسام الدين لاجين بناءها من الحجر ، بها أربع مجموعات من فتحات صماء ، تتكون كل مجموعة من عقدين متجاوزين توءمين ، يستندان فى وسطهما على عمود صغير . ويخضع أسلوب هذه العقود للنوع المعروف فى الأندلس . وقد قارن العالم الأثرى « فيلاسكث بوسكو » بين هذه النوافذ ونوافذ



مئذنة سلار وسنجر الجاولى
بالقاهرة



السور الخارجى لجامع أحمد بن
طولون بالقاهرة ويرى فى أعلى
الصورة عقدان توءمان بالمئذنة

اسبانية بحتة موجودة فى بعض الكنائس المستعربة ككنيستى : سان ميجل دى اسكالادا ، وسانتياجو دى بنيالبا . وقد قارنا كذلك بين نوافذ مئذنة ابن طولون وبعض نوافذ مئذنة قرطبة ومسجد المسلمين بطليطلة .

وتصل بين المسجد والمئذنة قنطرة من البناء ، يحملها عقدان متجاوزان يمثلان العقود الأندلسية . كما أن عقد باب المدخل الى برج المئذنة على شكل حدوة الفرس . وتتفق جميع هذه العقود فى نسبها ، ومواقع مراكزها ، مع العقود الأندلسية ذات الطابع الخلافى . وبأسفل القنطرة التى تربط الجامع بالمئذنة كوابيل من طراز كوابيل جامع قرطبة نفسها فى عهد عبد الرحمن الناصر . وكل هذه العناصر المعمارية والزخرفية لايمكن بأى حال من الأحوال أن تظهر فى القاهرة فى القرن التاسع الذى أنشىء فيه جامع أحمد بن طولون ... اذ انها لم تظهر فى الأندلس نفسها — وهى المصدر الذى وفدت منه الى جامع ابن طولون — الا فى أواخر القرن العاشر ، مما يقطع بأن مئذنة ابن طولون بناء متأخر من عصر المماليك .

وفى القبوة التى تعلو أسطوانة المدخل بجامع ألجاى اليوسفى ، وجامع المؤيد ، شيخ مقرنصات داخل جوفة صليبية الشكل ، ترجع الى تقاليد أندلسية . ونرى أصلها فى قبوات الموحدين بجامع اشبيلية ودير لاس أويلجاس ببرغش .

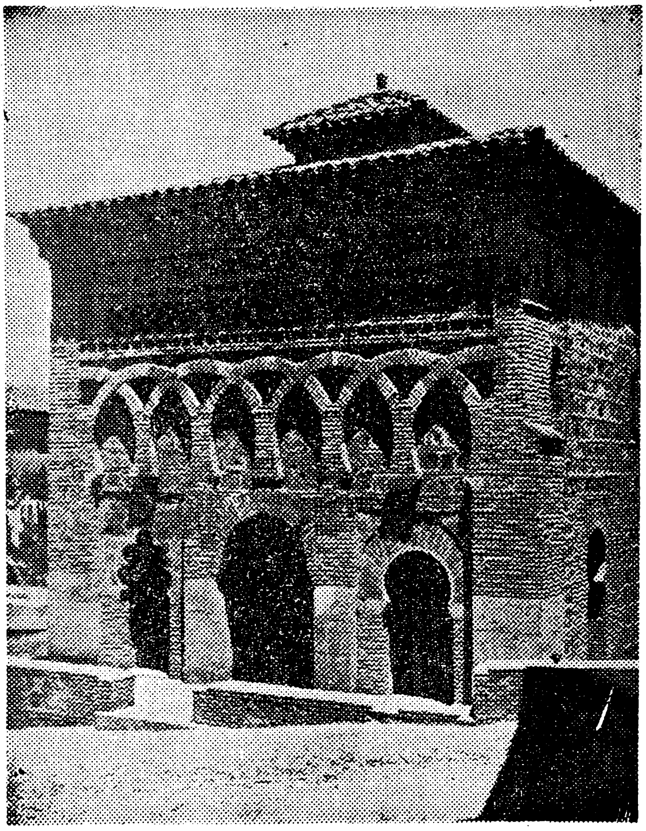
أثر العمارة الأندلسية فى العمارة المسيحية

كان ملوك المسيحية بأوربا يرسلون رسلهم الى خلفاء الأندلس ، رغبة فى كسب ودهم ، وخطب مرضاتهم . وقد ذكر المقرى أن ملك القسطنطينية توفلس بعث الى الأمير عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٢٥ هـ بهدية يطلب منه مواصلته ، ويرغبه فى ملك سلفه بالمشرق من أجل ما ضيق به المأمون والمعتصم. فكافأه عبد الرحمن على الهدية ، وأرسل اليه سفيره يحيى الغزال . ووفد الى قرطبة فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، رسل « صاحب القسطنطينية » ، ثم جاءه رسول من ملك الصقالبة دوقوه ، ورسول آخر من ملك الألمان ، ورسول ثالث من ملك الفرنجة وراء جبال البرانس . وفى سنة ٣٤٠ هـ جاءه رسول أردون يطلب السلم فعقد له .

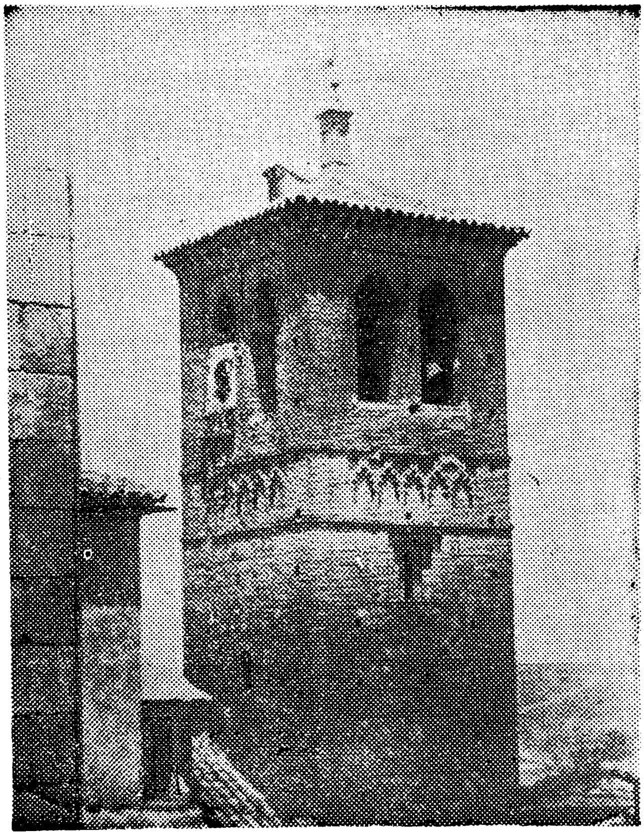
وفى عهد الخليفة الحكم المستنصر وفد الى قرطبة أردون بن أذنونش ، ملك الجلالقة ، ووصلت رسل غرسية بن شانجة ملك البشكس يسألونه الصلح ، ثم وفدت على الحكم أم لذريق بن بلاشك القومس . وأرسل بدرو القاسى ملك غرناطة سفارة الى السلطان محمد الخامس يطلب منه فيها أن يبعث اليه بفنانين مسلمين لاقامة قصره باشبيلية ، فأرسل اليه السلطان المذكور طائفة من أمهر البنائين والصناع بغرناطة .

ولا شك أن هذه العلاقات الطيبة — بين ملوك أوربا وأمراء الأندلس — كانت سببا فى تغلغل تأثيرات العمارة الأندلسية فى العمائر المستعربة بشمالى أسبانيا ، والعمارة الرومانية باسبانيا وفرنسا .

ولقد بلغ تأثير الفن الخلافى بقرطبة أقصاه فى كنائس أشتورياس ، حيث كان تأثير الرهبان منذ القرن الثامن الميلادى قويا للغاية . وتتمثل هذه التأثيرات فى استخدام عقد حذوة الفرس والطرر المربعة المحيطة به أو النوافذ المزدوجة . كذلك نرى هذه التأثيرات الأندلسية فى كنائس جليقية مثل : كنيسة سانتياجو دى بنيالبا ، وسان مارتينيودى باتو وشهدت عمارة ليون فيضا من التأثيرات الأندلسية فى كنائسها المستعربة أمثال :



واجهة مسجد الباب المردوم
ويرى فى أعلاها صف من العقود المتقاطعة



برج كنيسة سانتا ليوكاديا بطليطلة
(من القرن الخامس عشر)



برج كنيسة سان رومان بطليطلة (مدجن من القرن ١٥)



برج كنيسة سان ميجل الالتو بطليطلة (مدجن من القرن ١٥)

سان ميان دى لاكوجويا (٩٨٤) ، وسان ثبريان دى ماثوتى التى بناها القس القرطبى خوان سنة ٩٢١ ، وفى كنيسة سان باوديل دى برلانجا قبة صغيرة تتألف من أربعة عقود متقاطعة فى زوجين ، فوق عقدين آخرين يتقاطعان فى وسطهما ، بحيث تتألف منهما قبوة شبيهة بقبوات جامع الباب المردوم بطليطلة .

ونظام القباب الاسلامية أثر تأثيرا عميقا فى القباب المسيحية ذات الأسلوب الرومانى ، مثل : قبة المزان بقشتالة ، وقبوة مصلى توريس دل ريو بناثارة ، وبرج دير موساك ، وبوابة كاتدرائية سان بر ان دى كومنج ، وأولورون وأوسبيتال سان بليز بفرنسا .

فلقد أقيمت القبوة التى تغطى الغرفة العليا من برج دير موساك (١١١٥ — ١١٢٠) وخوذة هذه القبوة تتألف من أجزاء متصلة ، تتوسطها فتحة يتجه اليها ١٢ قوسا تنبت من اثنى عشر عمودا ملتصقة بالجدران . أما قبة مستشفى سان بليز القائم فى منطقة جبال البرانس ، بممر سومبور فى طريق الحج الى شنت ياقب ، فتشبه — الى حد كبير — احدى قباب جامع الباب المردوم بطليطلة

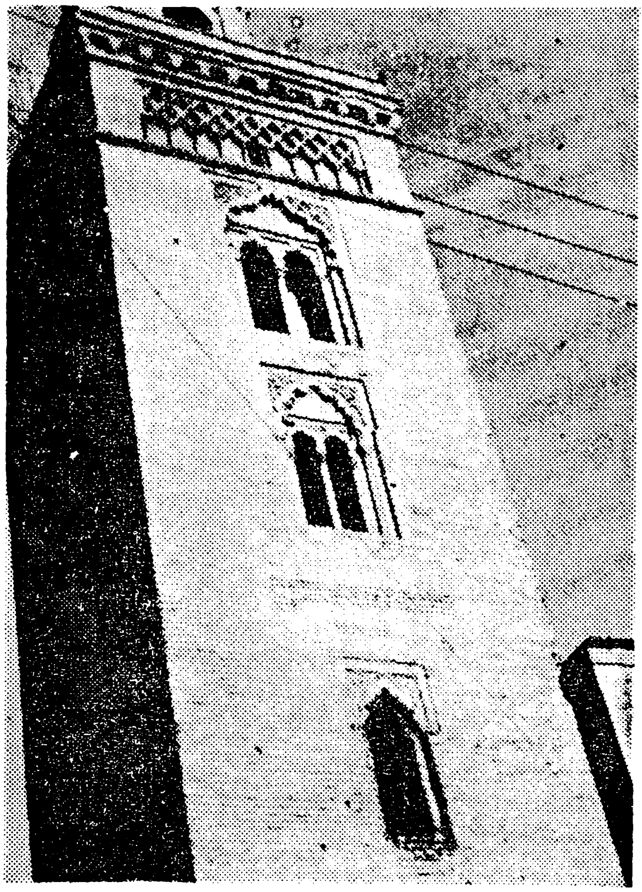
ويتجلى التأثير الأندلسى فى كثير من العناصر المعمارية بكنيسة مستشفى سان بليز ، وذلك فى استعمال التشابكات المخرمة فى النوافذ بدلا من الشمسيات الزجاجية الملونة ، واستخدام العقد المتعدد الفصوص فوق حنية الكنيسة . والقبة الوسطى بهذه الكنيسة تقوم على قاعدة مربعة تتحول الى مثمن عن طريق جوفات مقوسة فى الأركان . وتنطلق من جوانب المثمن عقود تتقاطع فيما بينها مؤلفة شكلا نجميا وسطه أجوف ، شأنه فى ذلك شأن قبتى جامع قرطبة المجاورتين للمحراب.

وتشبه هذه القبوة قبوة أخرى فى كنيسة سان كروا بأولورون تقوم على الضلوع المتقاطعة .

ولقد كانت هناك مناطق فرنسية أخرى على علاقة وثيقة باسبانيا فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر مثل : جاسكونيا ، ولانجدوك ، ومقاطعة أكيتانيا ، وانجو ونورماندى . اذ شوهدت بعمارة هذه المناطق محاولات كثيرة للقبوات ذات الضلوع تسبق التصليبات القوطية بعهد طويل ، ومنها استلهم المهندسون الفرنسيون الحل المعمارى الفريد الذى تكشف عنه القبوات القوطية المصلبة ، بنورماندى وسانتونج وبواتو . ولم تأخذ التصليبات القوطية مظهرها النهائى الا فى اليوم الذى وحد فيه مبدأ الضلوع القرطبية مع القبوة المتقاطعة ، وذلك بدعم الأجزاء البارزة من هذه القبوة الأخيرة بادخال نظام العقود المتقاطعة . ثم استخدم هذا الابتكار فى تغطية مسطحات واسعة بالكنائس ، عوضا عن تغطية أماكن ضيقة محصورة ، شأن القباب الأندلسية . واستغل هذا الابتداع ، الذى اهتدى اليه مهندسو نورماندى وانجلترا فى كنيسة درهام سنة ١١٠٠ ، فى التطور به بعد ذلك بفضل مهندسى ايل دى فرانس لخلق مظهر جمالى لا مثيل له .

وبجانب التأثيرات الأندلسية ، فى القباب والقبوات ، كانت هناك تأثيرات أخرى فى العمارة والزخرفة . ففى كنيسة نوتردام دى بوردى كليرمو — التى تعتبر أقدم كنائس مقاطعة أوفرنى بفرنسا — استخدمت الكوابيل التى ظهرت أول ما ظهرت فى جامع قرطبة ، منذ عهد عبد الرحمن الأوسط ، ثم تطورت بعد ذلك فى عهد الأمير محمد ، والخليفة عبد الرحمن الناصر ، وابنه الحكم المستنصر .

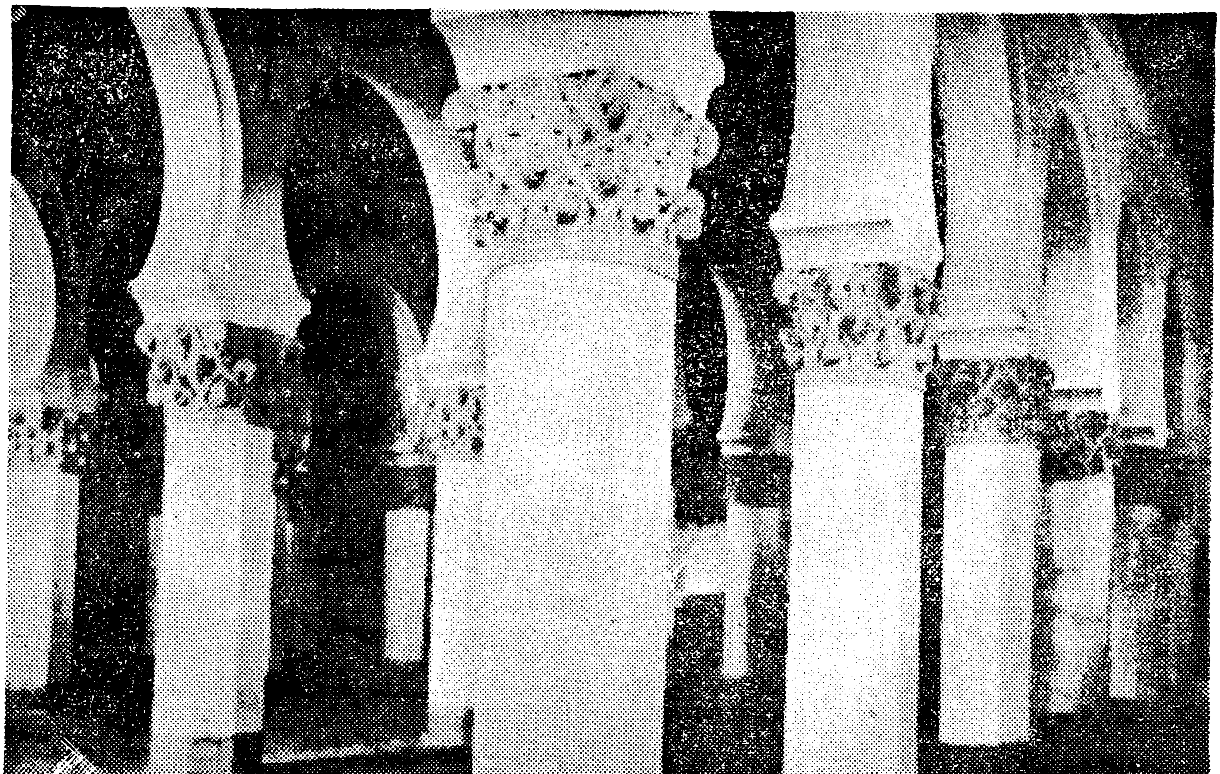
ومن الغريب أن كوابيل كليرمو تماثل نظائرها بقرطبة على حين تختلف عن كوابيل الكنائس



برج كنيسة سان ماركوس بأشبيلية



برج كنيسة سانتا كاتالينا بأشبيلية



منظر داخلى بكنيس سانتا ماريا لابلانكا بطليطلة

المستعربة باسبانيا ، مما يدل على أن الفنان الفرنسى أخذ من جامع قرطبة مباشرة . ويدل على ذلك مايزين الافريز بين الكوابيل من قبيبات مفصصة ، أشبه شىء بزهرات تتألف من ثمانى ورقات ، تماثل نظائرها بقبة المحراب وجامع قرطبة .

ونشهد هذه الكوابيل أيضا فى بيريجيه ببرج فرون الذى يرجع الى القرن الحادى عشر . كذلك انتشر العقد ذو الفصوص الثلاثة فى فرنسا أكثر من انتشاره باسبانيا المسيحية ، فكان مركز انتشاره مدينة بوى . ونراه ممثلا فى واجهة كاتدرائية نوتردام دى بوى ، التى أظهرت ولعا كبيرا بهذا النوع من العقود ، بل اننا نرى ما هو أكثر تعقيدا : اذ ظهر بها العقد المتعدد الفصوص ، وعقد حدوة الفرس الذى تتناوب فيه الألوان ، مما يكشف عن تأثير أندلسى مباشر من قرطبة . ونرى العقود المفصصة كذلك فى دير كلونى ببورجنى بفرنسا ، وفى برج كنيسة لاشاريتيه سير لوار .

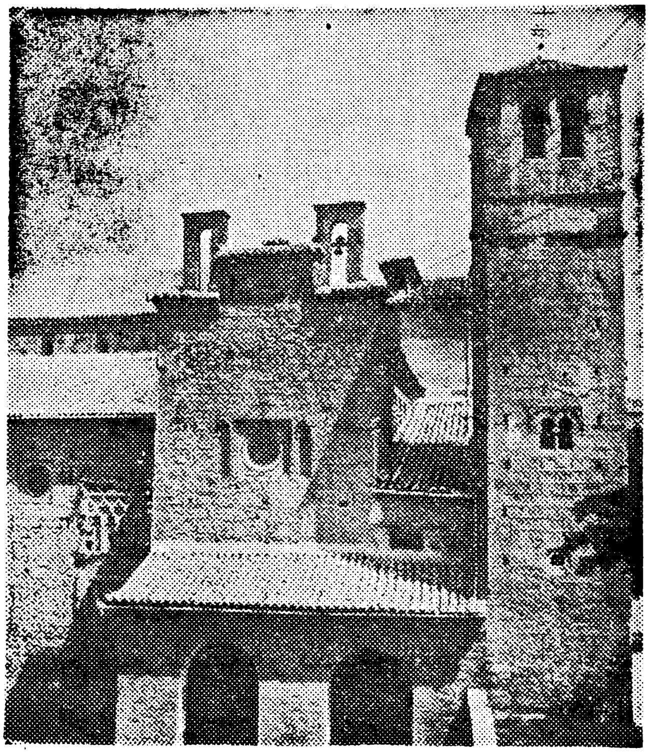
وقد بحث الأستاذ الدكتور أحمد فكرى أصل العقود المفصصة ، وذكر لها أمثلة كثيرة بفرنسا . وقام كذلك بدراسة العقود التى يتناوب فيها اللونان الأبيض والأسود بكاتدرائية نوتردام دى بوى ، وفى مقصورة سان ميشيل داجويل ، وفى واجهة كنيسة موناستييه وريوتار وبولينياك ، وفى كنيسة سان جوليان وفى كنائس ڤيلاى وكاتدرائية ڤالنس .

من هذا يبدو مدى ما أحدثه الفن الأندلسى الاسلامى من تأثير فى الفن الفرنسى . وكان سبب وصول هذه التأثيرات الى قلب فرنسا ، هو أن الاتصالات بين فرنسا واسبانيا كانت قد توقفت منذ محاولة شارلمان غزو اسبانيا فى عهد عبد الرحمن الداخل .

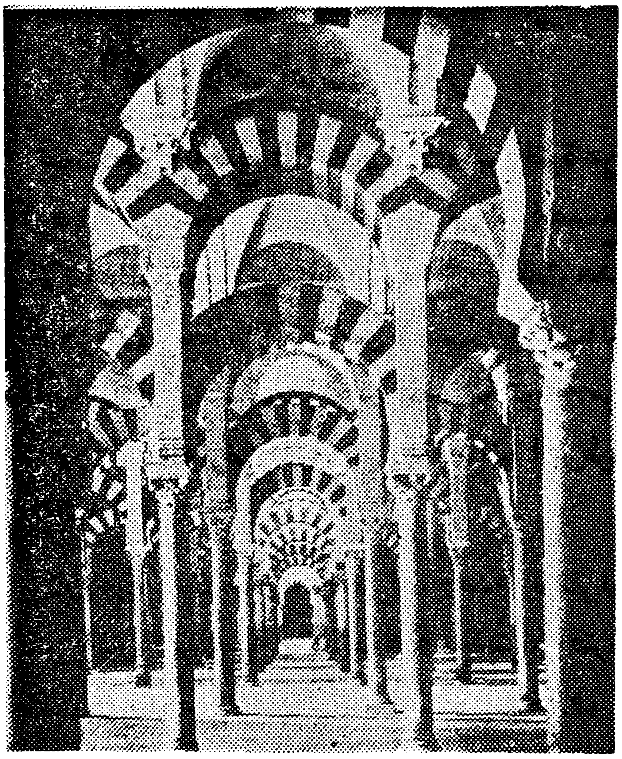
وكانت اسبانيا ، منذ القرن الحادى عشر ، فى خاطر أساقفة كلونى دائما ، اذ كانوا يعتبرونها المركز الأمامى للمسيحية حيال العالم الاسلامى ، والحاجز المهدد الذى يجب الدفاع عنه. وكان أساقفة كلونى هم الذين نظموا الحج الى شنت ياقب (Santiago de Compostela) وكانوا هم اللذين أقاموا على طول الطرق الفرنسية المؤدية الى اسبانيا الأديرة الكلونية ، لتكون نزلا للحجاج . وما لبث أن أصبح هؤلاء الرهبان الكلونيون أبطال المسيحية ، اذ أنهم شاركوا الاسبان فى حملاتهم الصليبية الموجهة الى قلب الأندلس . وكان الرهبان الفرنسيون يترددون كثيرا على الأديرة الكلونية فى اسبانيا ، مثل سان خوان دى لابنيا ، وبرغش . ولا شك أن مهندسا كلونيا استطاع أن يرى فى هذه المدن بعض المساجد التى هدمها النصارى فيما بعد .

وكان من أثر الحج الى « شنت ياقب » أن أقام الرهبان الفرنسيون الذين زاروا اسبانيا كنائسهم ، بحيث أودعوا فى عناصرها المعمارية مايذكر بأرض اسبانيا . ومنهم جوتسكال ، أسقف بوى ، الذى حج الى اسبانيا فى منتصف القرن العاشر ، وبنى كنيسة سان ميشيل ببوى على أثر عودته . كما زار الأسقف بيير الثانى ، المعروف بميركير ، كنيسة شنت ياقب وكنيسة سان ايسيدرو بليون . وهكذا كان الاتصال بين فرنسا واسبانيا وثيقا للغاية ، مما يفسر ما تركه الاسلام فى عمائر الفرنسيين من تأثيرات عميقة تفصح عن فضل الحضارة الاسلامية على الحضارات الأوربية ، وهو فضل كانوا يجحدونه حتى عهد قريب .

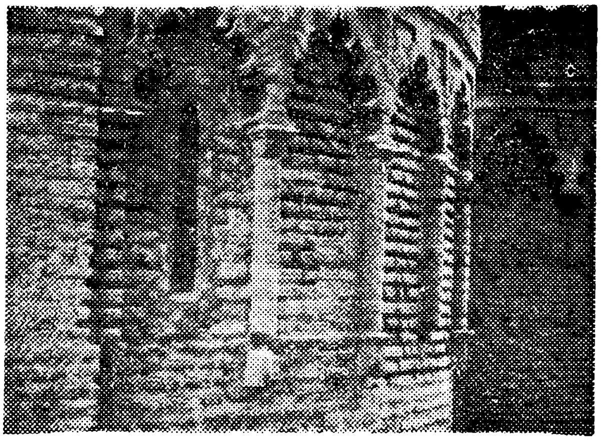
دكتور عبد العزيز سالم



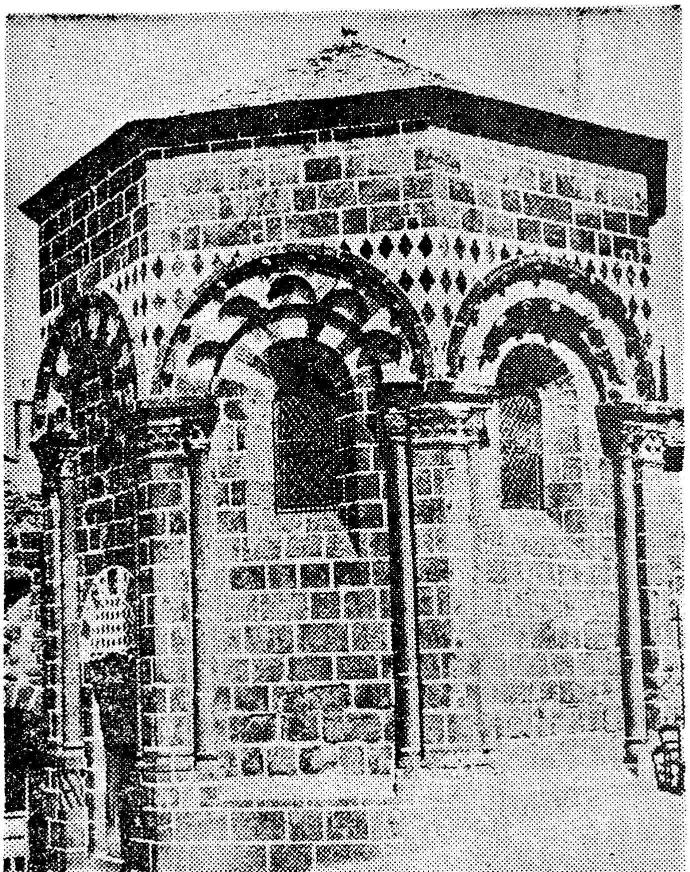
برج كنيسة سانتياجو دل ارابال (أسلوب مدجن من القرن ١٣)



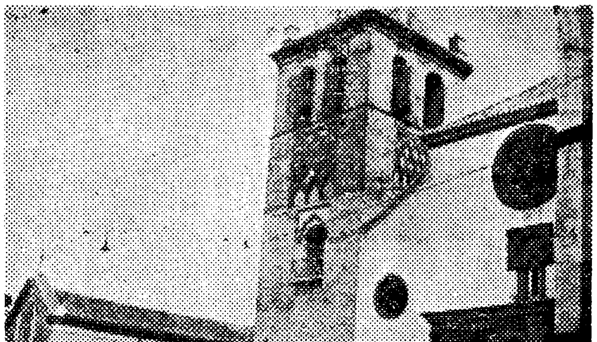
منظر داخلى لجامع قرطبة



راس كنيسة سانتا كاتالينا بأشبيلية
ويرى به أثر الفن الاسلامى فى العقود



مقصورة سان كلير ديجيل ببوى



برج كنيسة أمنيوم سانكوتورم بأشبيلية

الفنون والصناعات بالأندلس

تبعت حركة الفتح الاسلامى للأندلس فترة من الركود الفنى والكساد الصناعى ، اذ توقف الصناع عن الانتاج نتيجة طبيعية للغزو . كذلك أحدث هذا الفتح هزة فى المجال الاقتصادى بسبب الغنائم الهائلة التى غنمها المسلمون فى المدن المفتوحة من تحف وروائع ، وترتب عليها تجريد اسبانيا القوطية من تراثها الفنى .

وكان عهد الولاة عهد اضطراب وعدم استقرار من الوجهتين السياسية والاقتصادية ، باعتباره فترة الانتقال من الحكم القوطى الى الحكم الخلافى . وما ان استقرت دعائم الاسلام فى اسبانيا ، بتأسيس الدولة الأموية ، حتى ازدهر الاقتصاد الأندلسى من جديد ، ونمت الفنون مع نمو المجتمع وترعرعت . ولما كان الفاتحون متأخرين فى ميدان الصناعة فانهم توسلوا بالعناصر المحلية ، فى هذا الميدان ، لبناء قصورهم ومساجدهم ، وصناعة ما تحتاج اليه البلاد .

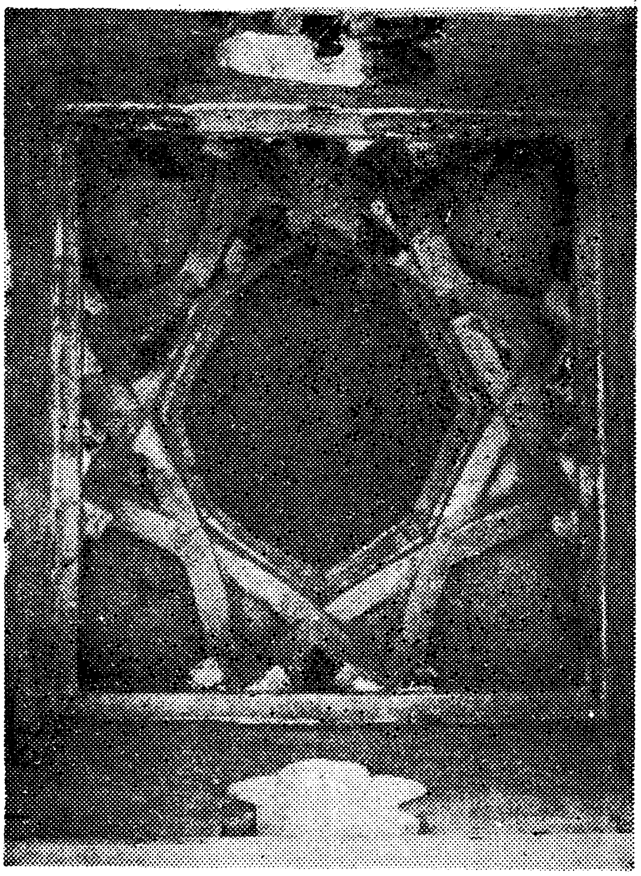
والواقع أن العرب كانوا أبعد الناس عن الصناعات . والسبب فى ذلك — كما فسره ابن خلدون — أنهم أعرق فى البداوة ، وأبعد عن العمران الحضرى ، وما يدعو اليه من الصناعات وغيرها . ويرى ابن خلدون أن رسوخ الصناعات فى الأمصار ، انما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها . ويتخذ من الأندلس مثلا فيقول : « كالحال فى الأندلس لهذا العهد ، فانا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة ، وأحوالها مستحكمة راسخة فى جميع ماتدعو اليه عوائد أمصارها ، كالمبانى والطبخ وأصناف الغناء ، واللهو من الآلات والأوتار والرقص .. وتنضيد الفرش فى القصور ، وحسن الترتيب والأوضاع فى البناء ، وصوغ الآنية من المعادن والخزف ... وسائر الصنائع التى يدعو اليها الترف وعوائده ... وما ذاك الا لما قدمناه من رسوخ الحضارة فيهم برسوخ الدولة الأموية ، وما قبلها من دولة القوط ، وما بعدها من دولة الطوائف الى هلم جرا . فبلغت الحضارة فيها مبلغا لم تبلغه فى قطر آخر » .

وهكذا احتضن العرب حضارة الشعب الاسبانى ، وشملوا رجال الفن من أهل الذمة برعايتهم . وظل الصناع وأصحاب الحرف يسيرون فى الطريق الذى كانوا يسيرون فيه من قبل ، مع تغيير طفيف هو تكييف منتجاتهم وفقا لما يقتضيه الوضع الجديد . وما لبث أن وجد هؤلاء الصناع وأصحاب الحرف أنفسهم مضطرين الى مشاركة المسلمين فى حياتهم ، وأقبلوا على الثقافة العربية ، فتحققت بذلك النقلة فى عهد الخلافة القرطبية فى القرن العاشر الميلادى . وصيغ فى ذلك العصر فن أندلسى اسلامى تدرج فى التطور — شأنه فى ذلك شأن فن العمارة والبناء — فى عهد ملوك الطوائف وعصر دولتى المرابطين والموحدين ، ووصل الى أوج بهائه فى عصر دولة بنى نصر .

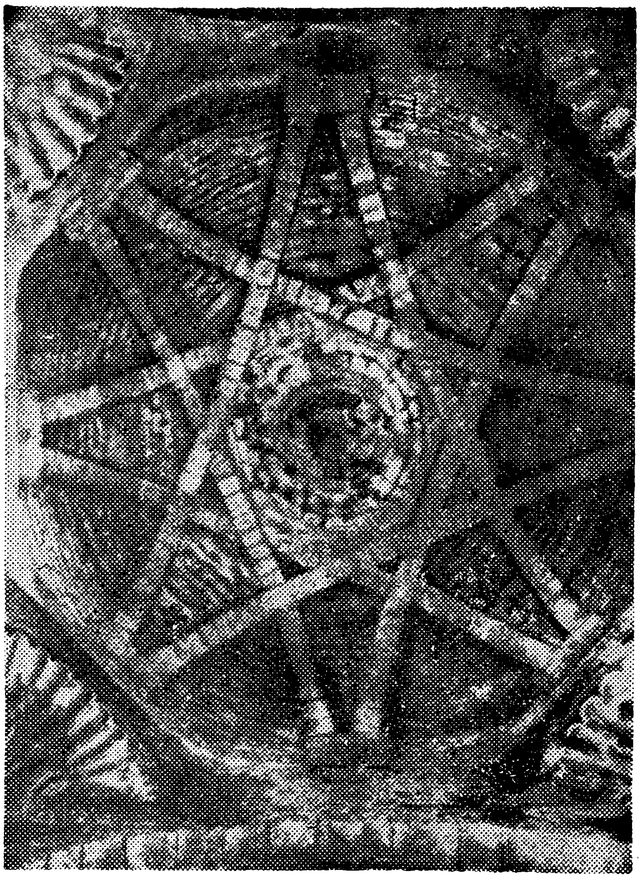
واذا تحدثنا عن الفنون الزخرفية والصناعية فى الأندلس ، فاننا نعنى ما كان يصنعه الأندلسيون من تحف خشبية ومعدنية وعاجية وخزفية ، ومنسوجات وجلود وزجاج وغير ذلك . وسنقوم بدراسة بعضها لنقف على ازدهار الصناعات فى اسبانيا الاسلامية ، وكيف ذاعت شهرتها فى كثير من بلاد أوربا والمشرق الاسلامى .

فن النحت على الخشب

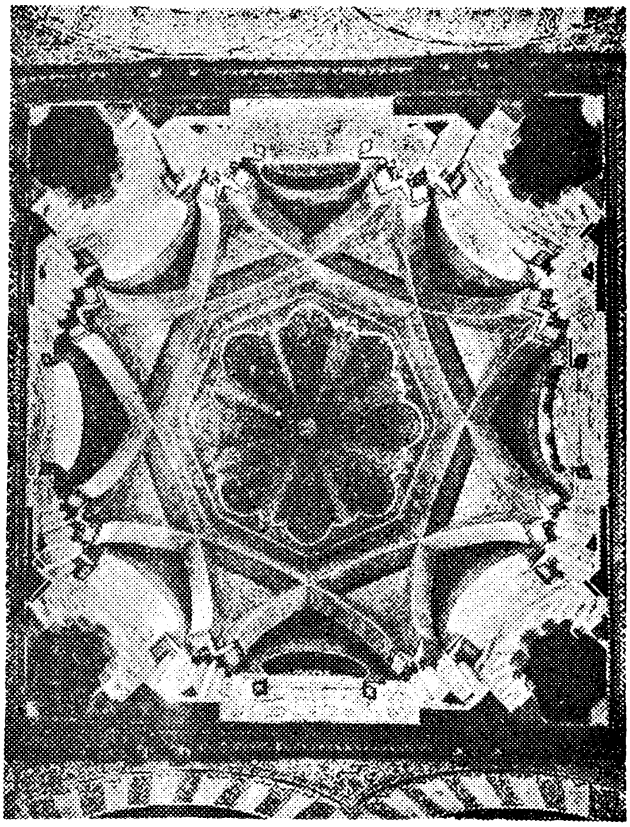
زودنا مؤرخو الأندلس بوصف رائع للتحف الأندلسية المصنوعة من الخشب ، مثل ذلك : منبر



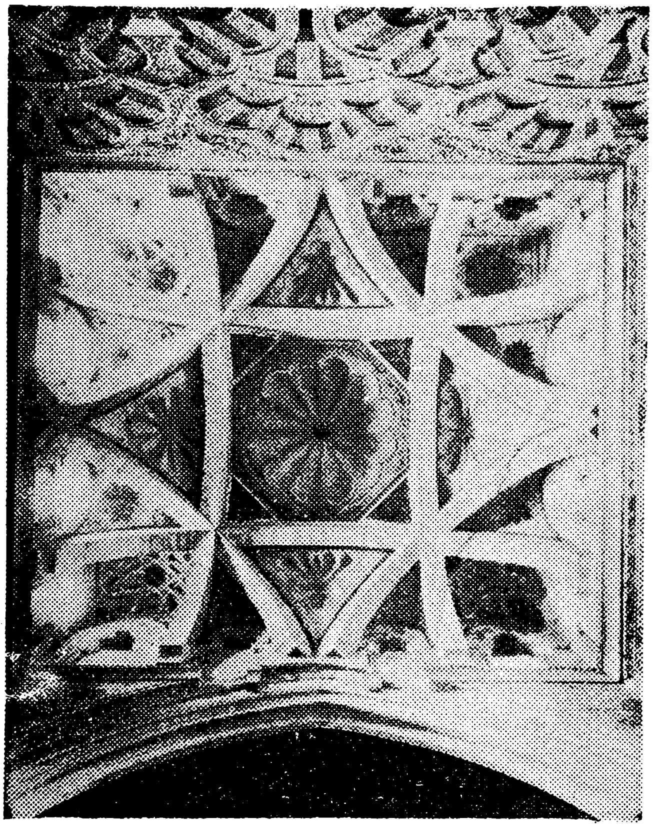
احدى قباب جامع الباب المردوم بطليطلة



قبة كنيسة سان كروا بأولورون



قبة المحراب بجامع قرطبة



قبة الضوء بجامع قرطبة ويرى فيها تقاطع الضلوع

المسجد الجامع بقرطبة ومقصورته ، ومنبر مسجد الزهراء ، ومنبر جامع اشبيلية ومقصورته . ويوضح لنا هذا الوصف الدقيق مدى ما وصل اليه هذا الفن من تقدم فى الأندلس فى العصر الاسلامى . وقد ذكر ابن غالب فى وصف منبر جامع قرطبة أنه « من الصندل الأحمر والأصفر والأبنوس والعود الرطب والمرجان ، وأوصاله وحشواته من الفضة المثبتة المنيلة ، وارتفاعه تسع درجات وذراعاه من الأبنوس » . ووصفه الادريسى بأنه المنبر الذى ليس بمعمور الأرض مثل صنعته . وذكر أبو حامد الغرناطى أنه أحكم عمله ونقشه فى سبع سنوات ، وكان يعمل فيه ثمانية صناع . ويضيف ابن بشكوال أنه كان مركبا من ستة وثلاثين ألف وصلة سمرت بمسامير الذهب والفضة ، وفى بعضها نفيس الأحجار .

أما مقصورة الجامع فقد نصبت حول المحراب ، وكانت منقوشة الظاهر والباطن ، تتوجها شرفات . وكانت مزودة بثلاثة أبواب بديعة الصنعة عجيبة النقش ، وكان بابها الرئيسى من الذهب ، وعضادتاه من الأبنوس .

أما منبر جامع اشبيلية ومقصورته فقد ذكرهما ابن صاحب الصلاة فى مدونته ، وفيهما يقول : « صنع المنبر من أغرب ما قدر عليه الفعلة من غرابة الصنعة ، واتخذ من أكرم الخشب مفصلا منقوشا مرقشا ، محكما بأنواع الصنعة والحكمة فى ذلك ، من غريب العمل وعجيب الشكل والمثل ، مرصعا بالصندل ، مجزعا بالعاج والأبنوس .. يتلألأ كالجمر بالاشعال وبصفائح من الذهب والفضة ، وأشكال فى عمله من الذهب الابريز يتألق نورا ، ويحسبها الناظر لها فى الليل البهيم بدورا . ثم أردفت له بالعمل المقصورة من أحسن الخشب ، مختصرة من قضبه ، وثيقة لحجبه » .

ولم يتبق للأسف من هذه التحف الخشبية آثار تذكر . ويمكننا أن نتخيل ما كان عليه منبر المسجد الجامع بقرطبة ، اذا شاهدنا منبر جامع الكتبية بمراكش الذى صنع فى قرطبة فى عهد الموحدين .

ومع ذلك فقد تبقى من جامع قرطبة بعض سماوات[1] وجوائز[2] سقفه كما وصفها الادريسى بقوله : « وسقفه كله سماوات خشب مسمرة فى جوائز سقفه . وجميع خشب هذا المسجد الجامع من عيدان الصنوبر الطرطوشى ، ارتفاع حد الجائزة شبر وافر فى عرض شبر الا ثلاث أصابع ، فى طول كل جائزة منها سبع وثلاثون شبرا ، وبين الجائزة والجائزة غلظ جائزة . والسماوات التى ذكرناها هى كلها من ضروب الصنائع المنشأة من الضروب المسدسة والمؤربى ، وهى صنع الفص وصنع الدوائر والمداهن : لايشبه بعضها بعضها ، بل كل سماء منها مكنت بما فيه من صنائع ... قد أحكم ترتيبها ، وأبدع تلوينها بأنواع الحمرة الزنجفرية والبياض الاسفيداجى والزرقة اللازوردية والزرقون الباروقى والخضرة الزنجارية والتكحيل النقسى ، تروق العيون ، وتستميل النفوس باتقان ترسيمها ومختلفات ألوانها وتقسيمها » .

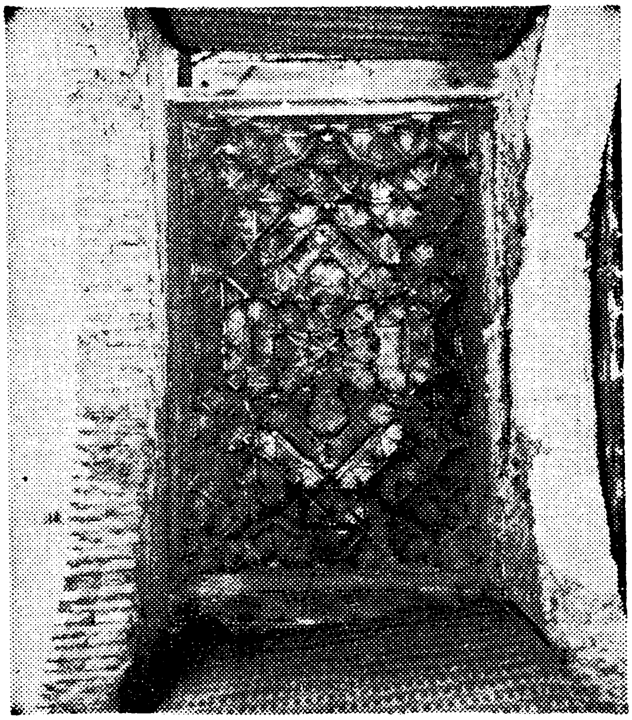
وهذا الوصف الرائع ينطبق على بقايا القطع الخشبية التى نحتت عليها زخارف هندسية من دوائر ومضلعات وأقواس مفصصة متداخلة فيما بينها ، ولون بعض هذه الزخارف بألوان خضراء وزرقاء وغيرها من الألوان التى ذكرها الادريسى . وقد أعاد السنيور ڤيلاسكث بوسكو تركيب بعض هذه اللوحات والكتل الخشبية فى مواضعها من بلاط المحراب ، وما يحيطه من أروقة جانبية ، والبعض الآخر علق على جدران مجنبات المسجد ، وفى متحف الجامع .

---

(١) لوحات خشبية مسطحة .
(٢) كتل خشبية ، قطاعها مربع ، تثبت فوقها اللوحات المسطحة.



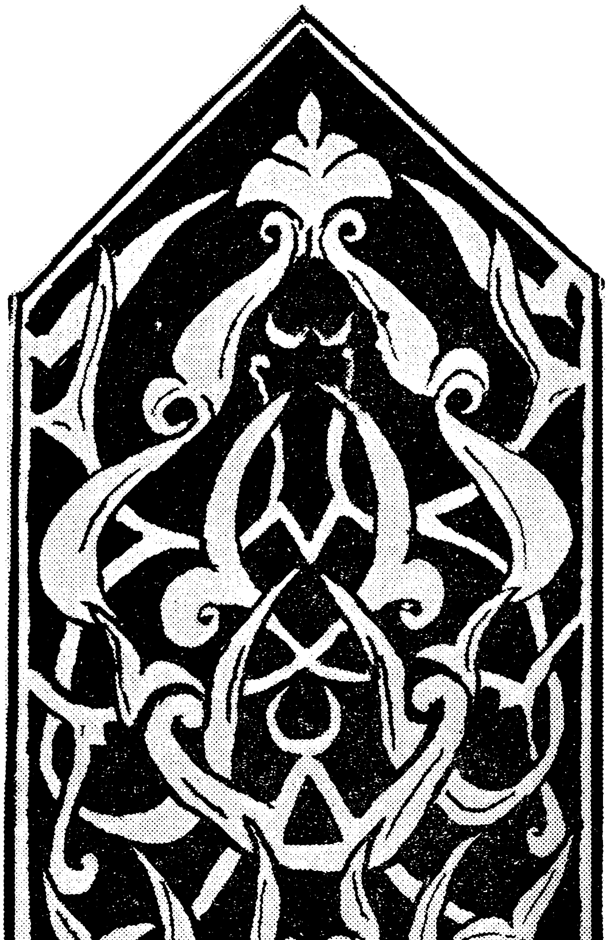
سقف خشبى مدجن بكنيسة سانتا كلارا
من القرن الخامس عشر بطليطلة



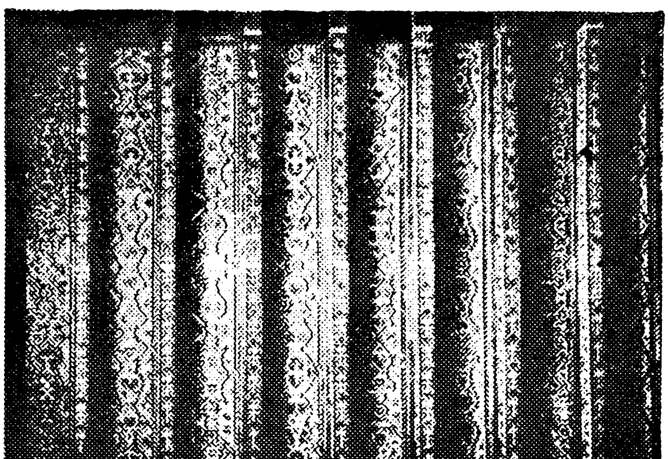
قبوة اسطوان المدخل الشرقى بجامع القصبة بأشبيلية



حشوة من الكتابة الكوفية بباب جامع أشبيلية
يقرأ فيها عبارة « الملك لله »



زخرفة من التوريق فى حشوة باب الغفران بجامع أشبيلية



سقف جامع قرطبة

وأروع ما تخلف من التحف الخشبية فى الأندلس هو أسقف قاعات قصر الحمـراء ، ودور غرناطة وأبنيتها العامة . وكلها أسقف على شكل هـرم ناقص ، مزينة بالزخارف الهندسية الرائعة الملونة ، تمثل أشكالا نجمية بعضها محفـور فى الخشب تتشعع منها الخطوط وتتقاطع ، فتتكرر النجوم فى شكل يجعل من هـذه الأسقف متـاحف غنية بالزخارف التى تروق العين ببديع تكوينها وروعة تخطيطها ويحيط بهذه الأسقف من أدناها أزر خشبية عليها توريقات ملونة أو مزينة بمقرنصات دقيـقة .

واستخدم عرفاء بنى نصر الخشب كذلك فى أغراض زخرفية : مثل الأعتاب ، والظلل المـائلة فوق الأبواب ، وفى مصاريع الأبواب ، وفى النوافذ وفى التشبيكات .

وأروع التحف الخشبية الغرناطية تتمثـل فى الظلل التى تعلو الأبواب ، وتتكىء على كوابيل خشـبية تندمج فى الجدران . وكانت هذه الظلل تكسى عادة بزخرفة من التوريقات والكتـابات النسخية أو الكوفية . أما مصاريع الأبواب فكانت تتألف من حشوات هندسية متداخلة ، بعضهـا مرصع بالعاج . وحفظ لنا من هذه الأبواب باب قاعة قمارش ، وهو مرصع بحشوات من العـاج تحتشد فيها التوريقات .

فن صناعة علب العاج

يتمثل فن النحت الأندلسى أروع تمثيل فى العلب المصنوعة من العـاج ، التى كانت تصنع خصيصا لجوارى الخلفاء وزوجاتهم ، لحفظ قنينات العطر ووضع المسك والعنبر أو لصيانة حليهن . وتحتفظ أغلب هذه العلب بأسماء من صنعت له ، واسـم الصـانع ، والمدينة التي صنعت فيهـا ، وتاريخ صنعها ... مما يزيد فى قيمتها ، ويجعلها بحق من أصـدق الوثائق التى تعيننا على دراسة الفن الأندلسى .

وتتخذ هذه العلب العاجية شكلين مختلفين : علب اسطوانية ذات غطاء مقبب ، وصـناديق مستطيلة ذات أغطيـة على شـكل هـرم ناقص أو مسطحة . ويقسمها خوسى فرانديس ، من حيث الزخرفة ، الى ثلاثة أنواع : الأول النوع الذى يشـتمل على زخرفة من التوريقات التى تختلط أحيانا برسوم حيوانات . والثـانى النـوع الذى تنحصر زخارفه فى جمات مستديرة أو مفصصة ، تمثل رسوما آدمية أو حيوانية ، وأحيانا تصور مناظر للصيد أو الطـرب . والثالث النـوع الذى تمثله زخارف دقيقة لأشـخاص أو حيوانات بين توريقات .

وأغلب الظن أن هذه الزخارف تقوم على تقاليد فارسية ، اذ تظهر فيها صور لحيوانات متقابلة مرة ومتدابرة مرة أخرى ، أو تبدو فيها أعناقهامتضافرة أو تفصل بين كل زوج منها شجرة الحياة ، أو بعض حيوانات تفترس أخرى ، أو صور عنقاوات مجنحة . أما الصـور الآدمية ، فتشمـل عادة مجالس أنس أو طرب فى بلاطات الأمراء والخلفاء ، ويبدو فيها شخص يجلس أو يقف بين شـخصين آخـرين ، أو صور لصيادين أو بيازين ... وغير ذلك من الموضوعات الشائعة فى الفن الفارسى .

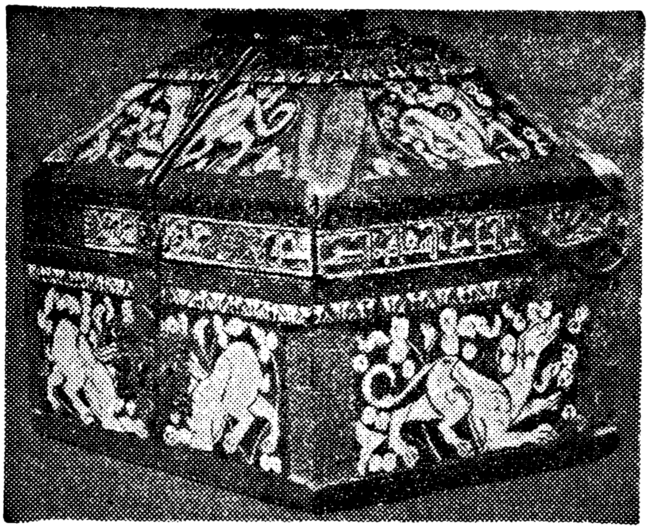
ومن هذه التحف العاجية استطعنا أن نلم بمركزين رئيسيين لصناعة العلب الأميرية أو الخلافية منها : أحدهما قرطبة ، والآخر طليطلة . ويغلب على الظن أن مصنع قرطبة كان قائما بمدينة الزهراء ، اذ نرى اسم مدينة الزهراء منقوشا فى بعض هذه العلب . ولعله دار الصناعة التى أسسها عبد الرحمن الناصر فى هذه المدينة الخلافية ، وفقا لما ذكره ابن خلدون .

وقد ازدهر فن صناعة علب العاج فى عهد الحكم المستنصر ، وأروع تحف هذا النوع : علبة من العاج صنعت فى مدينة الزهراء بأمر الحكم المستنصر ، لزوجته السيدة صبح ، على يدى درى الصغير الفتى الصقلى سنة ٣٥٣ هـ ، وصندوقان آخران صنعا فى نفس هذا المصنع سنة ٣٥٥ هـ ، أمر بصنعهما الحكم للسيدة صبح أيضا .

ولما توفى الخليفة الحكم ، توقف النشاط الفنى لصناعة العاج ... الى ان كانت أيام عبد الملك بن المنصور ، حاجب الخليفة هشام المؤيد ، فأحيا هذه الصناعة . ولدينا من انتاج هذا المصنع صندوق من العاج غطاؤه على شكل هرم ناقص . وقد صنع هذا الصندوق للحاجب عبد الملك بن المنصور بن أبى عامر سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٥ م) على يدى الفتى نمير بن محمد العامرى ، واشترك فى عمله صانعان هما عبيدة وخير . وزخارف هذا الصندوق تتألف من جامات مفصصة تتضمن مناظر لحياة البلاط الأموى فى الأندلس ، وأخرى تمثل مناظر صيد ومبارزات .

ولما سقطت الخلافة الأموية بقرطبة ، هاجم البربر قصور المدينة ، ودمروها ، ثم خربوا مدينة الزهراء ، وأحرقوا قصورها ومبانيها ، وجعلوها أثرا بعد عين ... وهكذا خربت دور صناعة تحف العاج بين الأبنية التى خربها البربر ، وتوقفت هذه الصناعة بقرطبة .

ويغلب على الظن أن صناع قرطبة هاجروا الى بلاط ملك طليطلة : المأمون بن ذى النون ، أقوى ملوك الطوائف ، حيث تلقوا من تشجيعه ما حبب اليهم الاقامة فى ظله وتحت رعايته بمدينة قونكة ، احدى مدن مملكة طليطلة ، ونستنتج من علب وصناديق قونكة ، المصنوعة فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، أنها كانت علبا ثرية بزخارفها



صندوق من الخشب مطعم بالعاج من صناعة الاندلس

وطريقة صنعها ، ولكنها لم تكن كذلك فى مادتها المصنوعة منها ... فلم يكن من الميسور الحصول على القطع العاجية الضخمة التى كان يجلبها خلفاء بنى أمية . وأصبح استخدام العاج مقصورا على لوحة رقيقة تنفذ فيها الزخارف حيث يمكننا أن نرى ما تحتها من أرضية خشبية .

وأقدم هذه التحف العاجية الطليطلية : صندوق من العاج محفوظ فى متحف برغش ، عليه رسوم تمثل مناظر صيد وحيوانات تتصارع موزعة فى ثلاثة صفوف أفقية وأعلى العلبة نقش كوفى نصه :

« ... باقية لصاحبه أطال الله بقاءه ، مما عمل بمدينة قونكة ، سنة سبع عشرة وأربعمائة ، عمل محمد بن زيان عبده أعزه الله » .

وفى متحف الآثار بمدريد ، صندوق مشابه للصندوق المذكور ، ويحمل جانباه الكبيران فراغا مستطيلا فى الوسط تحتشد فيه توريقات . ويحيط بهذا المستطيل شريط يشتمل على حيوانات وطيور متقابلة ، زوجين زوجين ، تفصل بين كل زوجين أقواس مفصصة . وفى الجانبين الآخرين مناظر للصيد والطعان . وتمتد الكتابة فى شريط يتوج الصندوقين ونصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم : بركة من الله ونعمة شاملة وعافية باقية ، وغبطة طائلة وآلاء متتابعة ، وعز واقبال وانعام واتصال ، وبلوغ آمال لصاحبه أطال الله بقـاه ... مما عمـل بمدينة قونكة بأمر الحاجب حســام الدين أبى محمد اسماعيل بن المأمون ذى المجدين ابن الظافر ذى الرئاستين ابن محمد بن ذى النون ، أعزه الله ، فى سنة احـدى وأربعين وأربعمائة . عمل عبد الرحمن بن زيان » . وتكرار اسم ابن زيان يدل على أن هذا المصنع ينتمى الى أسرة واحدة من الصناع .

ونستنتج مما سبق أن فن صناعة العلب العاجية بقرطبـة وقونكة كان فنا خلافيـا خاصا بالأمراء والخلفاء . وقد اختفت هذه المصانع فى القرن الثانى عشر ، وغلبت صناعة العلب والصناديق الشعبية . وفى هذه التحف يغلب استخدام الخشب المغطى بصفيحة رقيقة من العاج ، أو المرصع بقطع منه . ولا نقرأ فى هذه التحف أسماء الخلفاء أو الصناع ، وانما نلاحظ أن صنعتها كانت تجارية بحتة .

وأهم أمثلة هذا النوع : صندوق سان‌ايسيدرو بليون ، المحفوظ اليـوم بمتحف الآثار الأهلى بمدريد ، وصندوقا كاتدرائية طرطوشة ، وثلاث علب خشبية رصعت بنقوش عاجية تمثل مناظر صيد وصور حيوانات متقابلة . والصندوق الأول عليه نقش نسخى يتضمن اسم الصانع وهو محمد بن السراج ، واسم الشخص الذى صنع له وهو أبو الحسن . ويعتقد فرانديس أنها تحفة أندلسية من القرن الثانى عشر . أما الصـندوقان المحفوظان بكاتدرائية طرطوشة فهما متماثلان فى الصناعة ، ولكن الزخارف تتألف من رسوم داخل دوائر ، ويتشابهان مع التحف العاجية المصنوعة بقرطبة فى حصر الزخارف الحيـوانية والآدمية داخل هـذه الدوائر ، وفى موضوعات الزخرفة . ولم يستخدم العاج فى ترصيع زخرفة هذين الصندوقين ، وانما استعمل العظم الملون .

ومما يثير الاعجاب فى هذه الصناديق العاجية مجموعة التصاوير التى بلغت ذروة الكمال الفنى فى الاتقان والدقة ... هذا الى جمال توريقاتها ، واتساق تكوينها . ونلمس فى الرسوم الحيوانية والآدمية رشاقة فى الحركات ، كما نلمح رقة فى رسـوم الغزلان والطواويس . وهذه الصناديق الشعبية — رغم فقر المادة التى صنعت منها — فيها تعبير عن الحركات تتمثل فى الاهتزازات التى تدعم هذا التعبير .

فن صناعة التحف المعدنية

يتميز الفن الاسلامى بصفة تجريدية كانت سببا فى بروز الاتجاه الهندسى فى زخارفه ، كما ساده بوجه عام ميل الى الابتعاد عن تصوير الكائنات الحية ، فعمد الفنان المسلم الى تحوير التماثيل ، بعكس الفنان اليونانى أو الرومانى الذى كان يبحث عن المثل فيما حوله من الطبيعة . ومع ذلك فان كتب التاريخ تزخر بوصف رائع لما كانت تحويه قصور الخلفاء والملوك من تماثيل وصور حية ، كما تشهد بعض الآثار القائمة : كنافورة بهو السباع بقصر الحمراء ، وتصاوير قاعة القضاء ، وقصر البرطل من قصور الحمراء ، وبعض النقوش المحفورة فى أحواض الرخام ، وعلب العاج بالأندلس ، وبعض التحف المصنوعة من المعادن ... تشهد كل هـذه التحف بصدق وصف المؤرخين وعدم مبالغتهم فيه ، وتشهد فى الوقت نفسه بأن الفن الأندلسى لم يقف جامدا أمام التوجيهات الدينية السلبية التى تأثر بها الفن الاسلامى عامة . ونعلل ذلك بأن المعنى الشكلى تفوق عند الأندلسيين وغيرهم من الشعوب

التى كانت تتصف بأن خيالها أقل تجريدا من خيال الشعوب العربية .

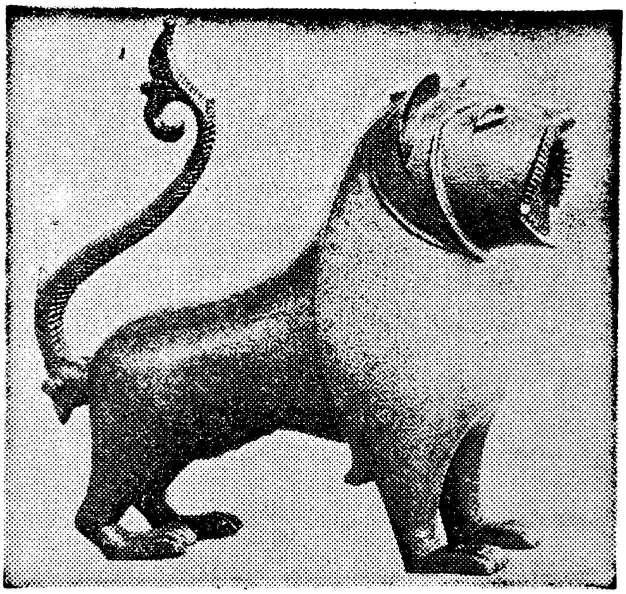
التماثيل

وتشير كتب التاريخ الأندلسى الى التماثيل المعدنية التى كانت تزين قصور الزهراء . ويذكر المقرى أن عبد الرحمن الناصر نصب الحوض الصغير الأخضر المنقوش بتماثيل الانسان ، الذى جلبه أحمد اليونانى وربيع الأسقف من القسطنطينية ، فى مجلسه الشرقى المعروف بالمؤنس ، وجعل عليه « اثنى عشر تمثالا من الذهب الأحمر ، مرصعة بالدر النفيس الغالى ، مما عمل بدار الصناعة بقرطبة : صورة أسد بجانبه غزال ، الى جانبه تمساح ، وفيما يقابله ثعبان وعقاب وفيل ، وفى المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر ... كل ذلك من ذهب مرصع بالجوهر النفيس ، ويخرج الماء من أفواهها » .

ويذكر ابن بسام أن قصر الناعورة ، الذى بناه القادر بالله بن ذى النون بطليطلة ، كان به بحيرتان « قد نصبت على أركانهما صور أسود مصوغة من



وعل مدينة الزهراء



اسد بمدينة مونثون

الذهب الابريز أحكم صياغة ، تتخيل لمتأملها كالحة الوجوه ، فاغرة الشدوق ، ينساب من أفواهها نحو البحيرتين الماء هونا كرشيش القطر أو سحالة اللجين » . وفى ذلك المنظر أنشد أبو محمد بن السيد :

والماء كاللازورد قد نظمت
فيه اللآلىء فواغر الأسد

وهكذا بالغ مؤرخو العرب فى وصف روائع التماثيل المعدنية التى تزين تلك القصور وصفا لا يمكن أن يصدقه العقل والمنطق . غير أنه وصل الينا من هذه التماثيل اثنان أثبتا ، بصورة قاطعة ، صدق هذا الوصف : أحدهما تمثال لوعل أو غزال من البرنز فقد قرنيه ، عثر عليه فى الحفائر الأثرية التى أجريت بمدينة الزهراء ، وحفظ عدة سنوات بدير سان جيرونيمو المجاور لأطلال مدينة الزهراء ، ثم حمل الى متحف قرطبة الأهلى للآثار .

ولعل هذا الغزال هو الذى أشار اليه المقرى عند ذكره للتماثيل الذهبية الحمراء التى كانت تزين قصر المؤنس ، وكان منصوبا مع التماثيل الأخرى — التى كانت تمج الماء من أفواهها — حول

الحوض المذكور فى ساحة من ساحات هذا القصر . ويبلغ ارتفاع هذا الغزال نحو أربعين سنتيمترا ، ويزدان جسمه بزخارف محزوزة من دوائر أو حلقات متصلة ، بداخل كل منها ورقة من أوراق الشجر . وكان الماء يجرى الى فمه من طريق قناة أو أنبوبة تمتد من وسط قاعدته ، ثم يصعد فى أرجله ورقبته .

والتمثال الآخر اكتشف فى قرطبة ، وهو لوعل يزدان بزخرفة من دوائر بين سيقان متوجة بصورة أكثر تفننا وتنوعا من وعل الزهراء . الا أن شكل وعل قرطبة غير متناسق لصغر أرجله وضياع أذنيه وقرونه . وكان الماء يتخلله من أنبوبة فى وسط بطنه .

وعثر فى مدينة مونثون دى كامبوس ، من اقليم بلنسية ، على فوارة تمثل أسدا من البرنز ، محفوظة اليوم فى متحف اللوفر بباريس . وذيل هذا الأسد على شكل ساق نباتية تنتهى بورقتين : احداهما ملتفة الى أدنى ، والأخرى متجهة الى أعلى . وجسم الأسد مغطى كله بالتوريقات . ولا يفترق هذا التمثال كثيرا عن تمثال العقاب المحفوظ بالكامبو سانتو فى مدينة بيزا ، وتمثال الحصان المزعوم المحفوظ فى متحف برجليو بفلورنسا ، والوعل ذى القرون المحفوظ فى متحف بافارو بميونيخ ، والطاووس المحفوظ فى متحف اللوفر .

وجميع هذه التماثيل تذكرنا بالناحية التجريدية التى اتجه اليها الفن الاسلامى ، والتى دفعت الفنان المسلم الى تحوير صور وتماثيل الكائنات الحية وتجريدها من معانى الحياة . وتعزى هذه التحف الأخيرة الى الفن الفاطمى بمصر أو الفن الصقلى دون دليل قاطع أو اثبات صريح ، كما أنه ليس هناك من الدلائل ما يكفى لاثبات أنها أندلسية . ولكننا نرجح انتسابها الى الأندلس عند مقارنتها بالوعلين القرطبيين والأسد الذى عثر عليه فى أسبانيا .

الثريات البرنزية

ذكر مؤرخو العرب فى الأندلس أن جامع قرطبة كان يشتمل على مائتين وثمانين ثريا من اللاطون (الصفر) ، عدد كئوسها يبلغ سبعة آلاف وأربعمائة وخمسا وعشرين كأسا ، وقبل عشرة آلاف وثمانمائة وخمس كئوس . منها أربع ثريات كبار معلقة فى البلاط الأوسط ، أكبرها الثريا الضخمة المعلقة فى قبة المحراب ، وكانت تحمل ألفا وعشرين كأسا . ولم يتبق لسوء الحظ أى ثريا من ثريات جامع قرطبة .

وكان جامع البيرة يحتوى على عدد كبير من الثريات احترقت عندما أحرق البربر هذا الجامع سنة ١٠/١٠ م . ولحسن الحظ عثر على ست ثريات منها فى الحفائر التى أجريت بأرض المسجد ، أكبرها ثريا على شكل طبق مستدير محزم فى شكل هندسى ، ويتألف محيطها من فراغات مستديرة كانت توضع فيها الكئوس التى تضاء بالزيت . وكان هذا المحيط مزودا بحلقات صغيرة تعلق منها السلاسل .

وفى متحف الآثار بمدريد ثريا رائعة من البرنز تنتمى الى جامع الحمراء ، وهى من أجمل التحف المعدنية الأندلسية . وفى محيطها الأدنى نقش كتابى نطالع فيه اسم السلطان محمد الثالث بن نصر الذى أسس هذا الجامع سنة ٧٠٥ هـ (١٣٠٥ م) ومحيطها العلوى أصغر كثيرا من محيطها الأدنى . وحول هذين المحيطين كسوة من البرنز محزمة بتوريقات رائعة ، وزخرفة من الكتابة النسخية التى نطالع فيها عبارة «لا غالب الا الله» . وتتكرر

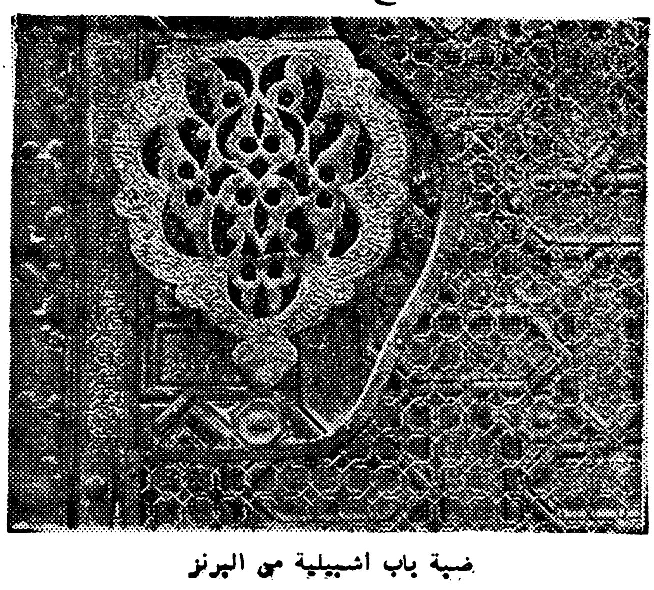
هذه العبارة فى التفاحات الأربع المتراكبة فى السفود الذى تعلق منه الثريا .

التحف المصنوعة من البرنز

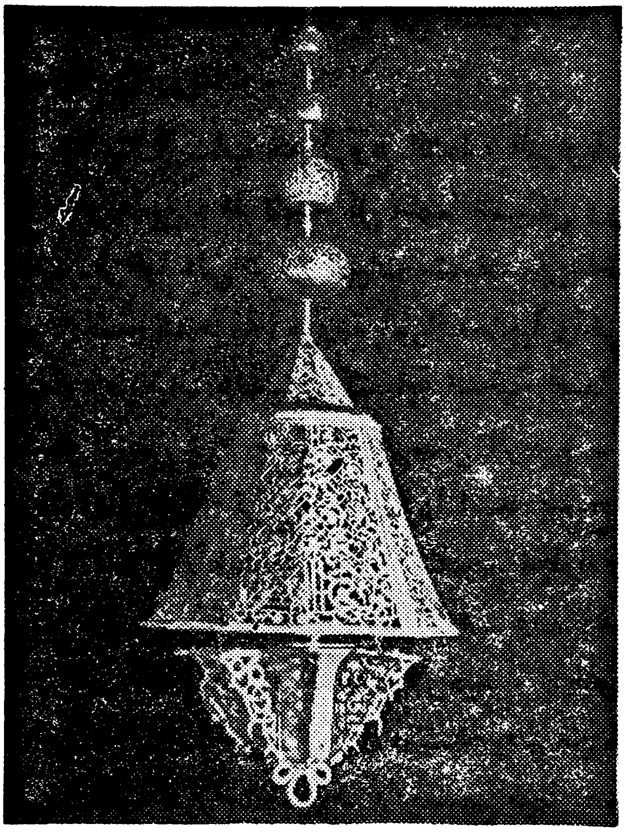
عثر فى مونثون دى كامبوس على مهراس كبير (هاون) محفوظ بمتحف فيلا نويبا . وهذا المهراس مزود بحلقتين وتنوءات مثلثة على شــكل مناقير طيور تدور ببدنه ، وتزينــه زخارف محفورة من التوريقات والأسود والطواويس ، ونقش كتابى يتضمن كلمة « لصاحبه » . ويمكن ارجاعه الى عصر الخلافة .

وعثر فى غرناطة على مبخرة أسطوانية الشكل تقوم عــلى ثلاث أرجل ، وغطــاؤها يكاد يكون مخروطى الشــكل ، ومحزم على نحو يتجلى معه ما يشــبه الورقات المزدوجة فى دوائر . ويعلو المبخرة طائر منقاره معقوف .

واحتفظ فى كنيســة سان سلفادور باشبيلية بضبتى باب من البرنز المذهب ، موضوعتين اليوم على أحد أبواب الكنيسة ، ولعلهما كانتا معلقتين فى باب المسجد الذى كان قائما فى موضع الكنيسة . وتتألف كل من الضبتين من حلقة سداسية الشكل ، سعتها ١٤ سم ، معلقة فى رأس أسد مركب فوق قرص مثمن الأضلاع جوانبه مقعرة . وتكســو



ضبة باب اشبيلية من البرنز



ثريا من البرنز

الجميع توريقات فى غاية الروعة والجمال . وتشبه هاتان الضبتان حلقتين من اللاطون ذكرهما المقرى عندما تحدث عن أبواب قصر قرطبة ، اذ يقول : « وعلى هذا الباب باب حديد وفيه حلق لاطون قد أثبتت فى قواعدها ، وقد صورت صورة انسان فتح فمه » .

وفى متحف بلنسية سطل من النحاس على شكل هرم ناقص ، به زخارف قوامهــا أرنبان بريان فى دوائر بين كتابات تتضمن عبارات المدح المعروفة .

وتكسو مصراعى باب جامع اشبيلية صفائح من البرنز ، مزينة بخطوط متقاطعة تؤلف أشكالا مسدسة : تتناوب فى وضع أفقى ورأسى ، وتقوم بينها أشكال نجمية ، فى وسطها أشــكال مثمنة . وتحتشد فى المسدسات الرأسية توريقات رائعة ، وتملأ المسدســات الأفقية كتابة كوفيــة مختلطة بالتوريقات ، نقرأ فيها عبــارة « الملك لله ـ البقاء

لله » ويحيط بالمصراعين افريز من الكتابة الكوفية المختلطة بالتوريقات .

وضبتا البـاب من أروع التحف البرنزية فى عهد الموحدين ، اذ تتخذ كل منهما شـكل ورقة نباتية أطرافها على شكل حنيات متصلة ، وبداخلها أوراق صغيرة محزمة ، مزودة بأطراف مدببة وأخرى ملتفة . ويحيط بالضبتين كتـابة نسخية نصها فى الضبة اليمنى : « بسم الله الرحمن الرحيم . فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال ، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة » . وفى الضبة اليسرى : « بسم الله الرحمن الرحيم . ادخلوها بسلام آمنين . ونزعنا ما فى صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين . لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين » . وترجع هاتان الضبتان الى عصر أبى يعقوب يوسف .

وفى متحف الآثار بمدريد سطلان من البرنز من عصر بنى نصر : أحدهما مخروطى الشكل عليه زخرفة من كتـابة نسخية وتوريقـات بسيطة . والزخرفة الكتابية نصـها : « وبلوغ الأمل » ، ويعلوها افريز كتابى تتكرر فيه عبارة « الغبطـة المثقلة » . والآخر أسطوانى الشكل عليه زخارف نباتية وكتابة كوفية .

السيوف

ذكر ابن سعيد المغربى أن من آلات الحرب فى الأندلس « التراس والرماح والسروج والألجـم والدروع والمغـافر » . وأضـاف قائلا : « ان السيوف البرذليات [١] مشهورة بالجودة . والفولاذ الذى باشبيلية اليه النهاية » . ولسـوء الحظ لم تصل الينا أى آثار للسيوف الأندلسية قبل عصر بنى نصر . وتشير المدونة العامة لتاريخ اسبانيا — التى كتبها الملك ألفونسو الحادى عشر — الى أن سلاطين غرناطة كانوا يهـدون السيوف الغرناطية الى ملوك المسيحية ، ومنها سيف مقبضه مكسو بصـفائح الذهب ، ومرصـع بالزمرد والياقوت والعقيق .

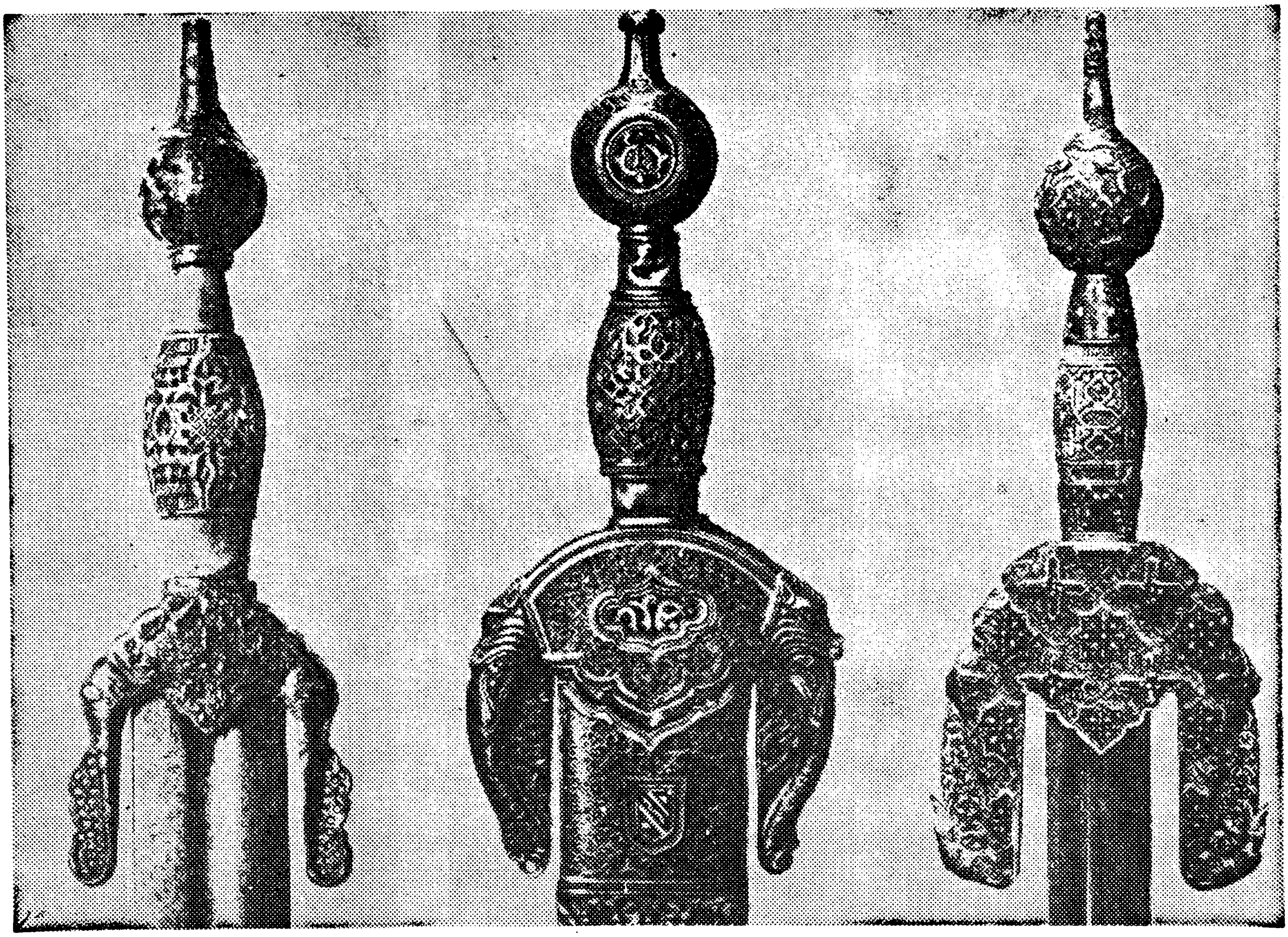
وقد أهدى أبو الحجاج يوسف سنة ١٤٠٩ م سيوفا من الفضة الخالصة الى دون خوان الثانى والأمير دون انريكى .

وينسب الى السلطان أبى عبد الله عدة سيوف محفوظة فى متحف الجيش ، ولعلها سيوف السلطان التى انتزعها منه الملكان الكاثوليكيان ، عنـدما أسراه فى احدى المواقع الحربية . ومنها سيف هو أروع السيوف الاسلامية على الاطلاق ، ويعد تحفة فريدة فى صـناعة الحلى الغرناطية ، ومقبضه من العـاج ، تكسـوه زخرفة دقيقة ، ويزدان غمده بنجوم وصلبان بينهـا توريقات وكتـابات . وفى متحف الجيش عدة سـيوف مقابضها من العاج وأغمادها من الفضـة أو النحاس مغطـاة جميعا بتوريقات رائعـة وكتـابات . وفى متحف الآثار بغرناطة منجنيق صغير من الخشب عثر عليه بمنطقة البشرات ، مرصع بالبرنز ، حفرت فيه زخرفة من التوريقات محزمة ومطعمة بالعاج .

التحف الفضية

وصلت الينا تحفة واحدة من عصر الخلافة ، وهى صندوق كاتدرائية خيرونة . ولعل القطلانيين سلبوها من قرطبة بين ما سلبوه بعد خرابها سنة ١٠١٠ م . وهذا الصندوق عليه نقش كتابى يدل على أنه صنع بأمر الحكم المستنصر ، لابنه وخليفته هشام ، وأن ذلك تم على يدى جؤذر سنة ٩٧٠ م . ونص هذه الكتابة هو : « بسم الله . بركة من الله

(١) نسبة الى مدينة برديل ، وهى «بوردو» الحالية بفرنسا .



ثلاثة سيوف اسلامية من صناعة غرناطة

ويمن وسعادة وسرور دائم لعبد الله الحكم أمير المؤمنين المستنصر بالله ... مما أمر بعمله لأبي الوليد هشام ولي عهد المسلمين . تم عمله على يد جؤذر فتاه » .

والصندوق مصنوع من الخشب ، ومغطى بصفائح من الفضة المزدانة بزخارف مطروقة ومذهبة . وقاعدته المستطيلة طولها ٣٩ سم ، وعرضها ٢٣ سم . ويزين الصندوق توريقات رائعة فى تكوينها . ويحتفظ الصندوق بمفصلتين دائرتين وقفل ومقبض رائع الزخرفة .

صناعة المنسوجات

ذاعت شهرة الأندلس فى صناعة المنسوجات . واختصت مدينة المرية بصناعة الديباج والحرير والحلل النفيسة والسقلاطون والعتابى . واشتهرت مالقة بصناعة الموشى المذهب ، كما اشتهرت غرناطة بصناعة الملبد المختم ذى الألوان العجيبة ، ومرسية بالوشى والبسط التنتلية .

ولا شك أن صناعة المنسوجات الأندلسية لم تكن الا تطورا للطرق الصناعية المعروفة فى المشرق منذ قديم الزمان . ولابد أن نبحث دائما عن أصولها وطريقة صناعتها ، وأسلوب زخارفها ، فى الفن الساسانى والفن البيزنطى والفن القبطى . ولقد استعان الفاتحون المسلمون منذ أن وطئت أقدامهم أرض الأندلس بالصناع المشرقيين ، واستحضر بنو أمية من الشام أسرات كاملة من صناع النسيج ، وأقاموا فى الأندلس دار الطراز .

والطراز ، كما يقول ابن خلدون : « علامات

يرسمها السلاطين والملوك فى طراز أثوابهم المعدة للباسهم ، من الحرير أو الديباج أو الابريسم ... تعتبر كتابة خطها فى نسج الثوب الحاما وسدى بخيوط الذهب ، أو ما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب ، على ما يحكمه الصناع فى تقدير ذلك ، ووضعه فى صناعة نسجهم ... فتصير الثياب الملوكية معلمة بذلك الطراز ، قصد التنويه بلابسها من السلطان » .

وكان عبد الرحمن الأوسط أول من أنشأ دار الطراز بالأندلس [1] ، وتبعه ملوك الطوائف . فلما كانت دولة الموحدين ، استغنوا عن لبس الحرير والذهب ، فأبطلوا دار الطراز . ولكنها أعيدت فى عهد بنى نصر .

ولقد أقام عبد الرحمن الناصر على دار الطراز بقرطبة فتاه خلف ، وجعله مشرفا على صناعة المنسوجات الخلافية . وكان بالأندلس دور أخرى ، موزعة فى المرية ومالقة ومرسية وغيرها ، لصناعة المنسوجات . وكانت هذه المنسوجات موضع اعجاب الأوربيين لجودتها ورقتها .

ويتجلى فى منسوجات الأندلس ، فى عصر بنى أمية ، تأثيران أساسيان : التأثير القبطى ، والتأثير الساسانى . ولكن لم يتبق من انتاج دار الطراز القرطبية سوى قطعة واحدة ، هى طراز هشام المؤيد . وقد عثر عليها فى سان استبان دى غرماج ، وهى محفوظة اليوم فى الأكاديمية التاريخية بمدريد ، ولعلها كانت من بين ما انتهبه البربر عند تخريب قرطبة سنة ١٠١٠ م ، وحملت الى هناك .

وهذه القطعة لا تعدو أن تكون غشاء أصفر اللون ، سداه رقيق للغاية ، مزود بشريط أبيض به بعض الاصفرار ، وفيه رسم دقيق يشف عن تقاليد قبطية ، يتألف من جامات مثمنة الشكل ، متصلة فيما بينها بأشكال نجمية ، وبداخلها صور آدمية وحيوانية فى ألوان بيضاء وزرقاء وخضراء . ويحف بهذا الشريط الزخرفى من أعلى ومن أسفل سطر من الكتابة الكوفية ، تتجه رءوس السيقان فى حروفها الى الداخل ، ونص هذه الكتابة ما يلى : « بسم الله الرحمن الرحيم ... البركة من الله واليمن والدوام للخليفة الامام عبد الله هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين » .

وكانت هناك أنسجة تجلب من المشرق : من العراق وخراسان . وقد ذكر المقرى ، نقلا عن ابن الفرضى ، أن من بين الهدايا التى قدمها الوزير أحمد بن شهيد الى الخليفة عبد الرحمن الناصر « ثلاثون شقة وخلج خاصة للباسه بيضاء وملونة ، وخمس ظهائر شعبية خاصة له ، وعشرة فراء من عالى الفنك : منها سبعة بيض خراسانية وثلاثة ملونة ، وستة مطارف عراقية خاصة له ، وثمان وأربعون ملحفة زهرية لكسوته ومائة ملحفة زهرية لرقاده » وزاد عليها ابن خلدون ستة من السرادقات العراقية وثمانيا وأربعين من الملاحف البغدادية لزينة الخيل من الحرير والذهب .

ولقد وصلت الينا قطعة من النسيج المعروف بنسيج الفيلة ، محفوظة بكنيسة سان ايسيدرو بليون ، وعليها كتابة كوفية نستدل منها على أنها عملت فى بغداد . ولقد قلدت المنسوجات البغدادية فى الأندلس تقليدا رائعا ، وذلك فى المرية التى كانت تصنع بها — على حد قول الادريسى — الخمر العتابى ، والأصبهانى ، والجرجانى .

والعتابى نوع من الخمر ينسب الى بغداد ، وهى أقمشة تغطى بها النساء رءوسهن . وقد عرف الايطاليون هذه الصناعة من طريق الأندلسيين ، كما عرفها الفرنسيون . وعرفت هذه الثياب فى

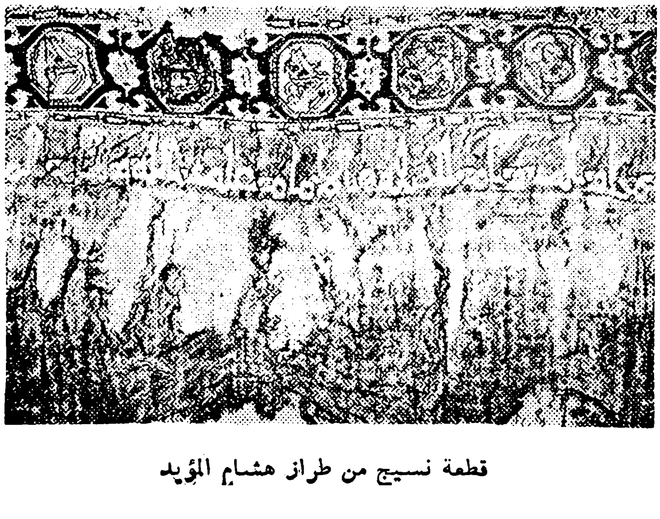
---

(١) فى ذلك يقول ابن الخطيب فى كتابه « أعمال الاعلام » : « وفى أيامه اتخذ الطراز الذى كان حديث الرفاق ، وطرفة أهل الآفاق » .

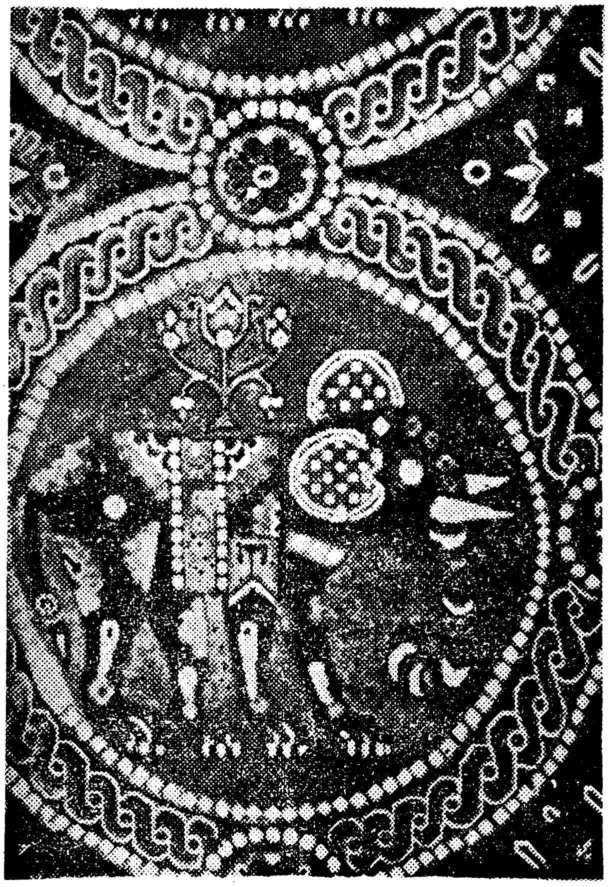
أوربا باسم تابى (Tabis)، وهو تحريف واضح من كلمة عتابى ، وكان يقصد بها الاقمشة المموجة . والأصبهانى نوع من الأقمشة اشتهرت به مدينة أصبهان . أما الجرجانى فقد ذاعت شهرته فى جرجان .

وكانت الزخارف تنسج غالبا فى دوائر كبيرة ملتحمة فيما بينها ، وتحف بها الكتابة أفقيا أو حول الدوائر ،ولاتظهر الصور الآدمية الانادرا . وأجمل مثال لذلك قطعة من القماش ، ترجع الى القرن الحادى عشر ، كان ملفوفا فيها جسد القديس برناردو كالفو . ومنها قطع محفوظة فى متحف فيش باسبانيا ومتحف الفنون الزخرفية بباريس . وزخارف هذه القطعة تمثل صورة جلجامش يرفع بكلتا يديه أسدين فى لون أزرق مخضر وورد ، فوق أرضية فاتحة اللون . ويتوج القطعة سطر من الكتابة الكوفية نطالع فيها كلمة «اليمن» مكررة .

وأكثر أنواع الحيوانات شيوعا فى المنسوجات المنسوبة للأندلس ، صور الحيوانات الخرافية ، والعنقاوات ترسم مزدوجة دائما : متقابلة أحيانا ، ومتدابرة أحيانا أخرى أو ترسم بينها ساق نباتية . وكلها من الموضوعات الشائعة فى الفن الساسانى . ومن أجمل أمثلة هذا النوع : قطعة من الحرير الموشى بالذهب ، محفوظة بالكاتدرائية الجديدة بشلمنقة . وتمثل زخارفها جامات بداخلها صور



قطعة نسيج من طراز هشام المؤيد



قطعة نسيج من الحرير المحلى ببعض الدوائر المضفورة

طائرين جسماهما متدابران ، ورأساهما متقابلان . ويحف بكل جامة شريط به عبارة متكررة ، مكتوبة بالخط الكوفى ، نصها : « الملك لله » .

وكانت هذه القطعة تغطى بعض المستندات التى ترجع الى عصر « فرناندو » الثانى ملك ليون (١١٥٨ —١١٨٨ م) . ويرى فيها ميجون بعض التأثيرات الصينية . كذلك يرى هذه التأثيرات فى القطعة المعروفة بالزرافات ، والمحفوظة فى متحف برشلونة . وفيها نرى رسم طائر كاسر يحمل حيوانا يشبه الأسد .

وهناك نوع من المنسوجات يعرف بمنسوجات الفيلة ، حفظت منه بعض القطع فى كنيسة سان ايسيدرو بليون ، وتظهر فيها دوائر بداخلها صور فيلين متقابلين بينهما شجرة الحياة . وفوق ظهر كل فيل منهما أسد يفترسه ، وفوق ظهر الأسد صقران

جسماهما متقابلان ، ورأساهما متدابران . وتدور حول كل دائرة كتابة كوفية نصها : « البركة من الله واليمن .. لصاحبه أبى بكر مما عمل فى بغداد » مكتوبة طردا وعكسا .

وهناك قطع أخرى من هذا النوع من النسيج وجدت فى اسبانيا ، كالقطعة الحريرية المحفوظة فى متحف كونست جفرب (الفنون التطبيقية) ببرلين ، وتزدان بصورة فيل واحد داخل جامة تحف بها زخرفة مضفورة ، ويعلو الفيل شجرة .

وكثيرا ما نشاهد صور حيوانات خرافية كاملة كالعنقاوات . وتمثلها قطعة من الحرير محفوظة بمتحف فيش باسبانيا ولعلها أجمل قطعة أندلسية ، وفيها نشاهد التكوين الزخرفى على أرضية قرمزية اللون ، ويتوزع التكوين فى صفوف أفقية يتناوب فيها موضوعان زخرفيان : أحدهما قوامه نسران طويلا العنق متقابلان ، بينهما شجرة الحياة . والآخر يزدان بصورة حيوان خرافى يمثل طائرين متقابلين جسما ورأسهما رأس أسد . ولقد تتبع بوتييه أصل هذا الحيوان الخرافى بالدراسة ، فوجد أنه ظهر قبل الميلاد فى سوريا وبابل . وأغلب الظن أن هذه المنسوجات من صناعة المرية التى كانت — خلال عهد طويل — أحد المراكز الأوربية العظمى فى صناعة المنسوجات .

وقد تحولت صناعة المنسوجات ذات الصور الحيوانية ، فى عصر الموحدين ، الى منسوجات ذات زخارف هندسية من تشابكات ومربعات ووريدات وكتابات نسخية ، ومع ذلك فقد أتقنت صناعتها الى حد كبير . وقد ذكر ابن خلدون أن دار الطراز أبطلت فى عهد الموحدين ، ومع ذلك فقد وصلت الينا أمثلة كثيرة من صناعة المنسوجات فى هذا العصر ، عثر عليها فى مقابر المسيحيين : مثل أكفان دون رودريجو خيمنث دى رادا ، والأمير دون فيليب وزوجته ، وأنسجة كاتدرائية لاردة .

وكان أعيان قشتالة وأرغون يتخذون ثيابهم من الأقمشة الأندلسية الاسلامية . وأروع أمثلة المنسوجات الموحدية الأعلام الاسلامية التى غنمها المسيحيون فى واقعة العقاب (لاس ناڤاس دى تولوز سنة ١٢١٢) التى انهزم فيها الخليفة محمد الناصر . وأهم هذه الأعلام واحد محفوظ فى دير لاس أويلجاس بمدينة برغش . ويغلب على الظن أنه صنع بالمغرب . وهذا العلم منسوج من الديباج المحلى بخيوط الذهب ، وألوانه حمراء وزرقاء وبيضاء وخضراء وصفراء . وتتألف زخارفه من جامة مركزية ، بداخلها زخرفة هندسية من تشابكات تحيط بها طرز مربعة ، ويحيط بالعلم شريطان من الكتابة النسخية . وفى أدنى العلم شريط من دوائر متصلة . وقد قيل ان هذا العلم سجادة خيمة الناصر ، وهى تشبه الأعلام الاسلامية المعروفة .

ومن هذه الأعلام : علم محفوظ بكاتدرائية طليطلة ، كان من بين ماغنمه المسيحيون من جيش بنى مرين فى موقعة سلادو (٧٤١ هـ) . وهو مصنوع من الديباج المحلى بخيوط الذهب ، ويزدان بكتابات كوفية وزخارف تتألف من دوائر متصلة ، بداخل كل دائرة : اما عبارة « لا اله الا الله » ، واما عبارة « محمد رسول الله » على التوالى . ويمتلىء الفراغ بين الدوائر بزخرفة من التوريقات . وبهذا العلم فى أدناه كتابة نصها : « صنع هذا العلام المنصور للمقام الكريم السلطانى مقام سيدنا ومولانا الملك السلطان الخليفة الامام أمير المسلمين ، وخليفة رب العالمين ، أبو سعيد عثمان العابد الزاهد المجاهد ، أمير المسلمين ، وناصر الدين أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق فى

قصبة فاس ، حرسها الله تعالى ، فى شهر محرم مفتتح عام اثنى عشر وسبعمائة » .

ولقد ازدهرت صناعة المنسوجات فى مملكة غرناطة النصرية ازدهارا لم تبلغه من قبل ، خاصة المنسوجات الحريرية . وكانت المرية ومرسية ومالقة تشتهر بصناعة الوشى ، وهو نسيج من الحرير من مختلف الألوان تدخل فى صناعته خيوط الذهب . وكانت تنسج فى مالقة الحلل الموشاة المرتفعة الأثمان ، والخاصة بالخلفاء وحاشيتهم .

وكانت ثياب الخز والمنسوجات الحريرية الرائعة تنسج فى أندرش ونارجة ، وتبعث الى مراكش ومصر ، والى الأمراء المسيحيين بشبه الجزيرة . ولقد شهدت المدونات المسيحية بكثرة انتاج مالقة للديباج والوشى ، عندما أشارت الى زيارة عدة سفن قشتالية لمالقة سنة ١٤٠٤ م ، وعودتها محملة بالضيافة من منسوجات الحرير الموشى .

وكان تقدير اسبانيا المسيحية — فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر — للمنسوجات الاسلامية بالأندلس عظيما . وكانوا لاعجابهم بها ، يلفون بها موتاهم ، ويحفظون بداخلها مخلفاتهم الدينية ذات القيم الكبرى . وكثيرا ماكان حكامهم يتشبهون فى الزى بالمسلمين ، مثل روى ديات دى روخاس ، قائد أنتقيرة ، الذى كان متعودا على ارتداء الثياب الاسلامية .

وقد ذكر المؤرخ الأسبانى « أنطونيو دى لالاينج » أن فرناندو الكاثوليكى وفيليب الجميل كانا يرتديان سنة ١٥٠٢ الملابس الاسلامية . وذكر هذا المؤرخ كذلك — عند زيارته لمدينة غرناطة — أن هذه المدينة تشتهر بصناعة الحرير الذى يباع فى قيساريتها .

واستمرت مصانع المنسوجات الحريرية الاسلامية باسبانيا المسيحية تنتج المنسوجات الحريرية الغرناطية ، كالملاحف والمآرز والخمر المختلفة الألوان التى كانت تتغطى بها النساء المسلمات .

ومنذ القرن الثالث عشر اختفت من المنسوجات رسوم الحيوانات التى كانت تنسج داخل دوائر ، واستبدلت بها تكوينات من المعنيات وتشابكات الخطوط المنحنية والقائمة ، وأشكال متعددة الضلوع ونجمية . وكانت هذه العناصر الزخرفية تنظم عادة فى مناطق متوازية ، وأخذت أشرطة الكتابة النسخية تكثر فيها .

وهكذا اتخذت المنسوجات الأندلسية ، فى عصر بنى نصر ، أسلوبا فنيا خاصا عرفت به . ولعلها تأثرت بالزخارف الجصية التى كانت تكسو جدران قصر الحمراء ، والتى كانت تتوزع فى مناطق أفقية تملؤها تشابكات هندسية ودوائر فى ألوان متناسقة فى توزيعها ، رائعة فى حيويتها وبريقها ، وهى ألوان الأصفر الذهبى ، والأحمر ، والأزرق ، والأسود والأخضر . وهى الألوان التى كانت تلون بها الزخارف الجصية .

وتحتفظ كنيسة سان سباستيان دى أنتقيرة بحلة دينية ، تعرف بحلة سانتا أوفميا ، قيل انها صنعت من علم غنمه المسيحيون من الجيش الغرناطى فى موقعة شابارال سنة ١٤٢٤ . وزخرفتها تتألف من مناطق ذهبية على أرضية حمراء وخضراء وزرقاء وفى احدى المناطق نقرأ هذه العبارة : « عز لمولانا السلطان » . ومن أروع هذه الأمثلة الغرناطية قطعة من الحرير — لعلها طراز سلطانى — محفوظة فى متحف الفنون الزخرفية بباريس ، وأهم ما تتميز به منطقتان : احداهما زخرفية ، والأخرى كتابية ، تفصل بينهما منطقة ضيقة من الزخرفة الهندسية

المتشابكة . وقوام المنطقة الزخرفية توريقات نباتية وتشابكات هندسية . أما المنطقة الكتابية فيتكرر فيها هذا البيت الشعرى :

أنا للعـز أهـل وللعـز أنا

ومن رآنى رأى سرورا وهنا

وفى متحف بلنسية دى دون خوان بمدريد قطعة من النسيج الغرناطى ، تزدان بزخرفة هندسية من المعنيات ، ويحيط بهـا أقواس زخرفية تجاورها أقواس أخرى تضم كتابة كوفية تتكرر فيها كلمة « اليمن » طردا وعكسا .

دكتور عبد العزيز سالم

الحياة العلمية والأدبية بالأندلس

اعتمدت الأندلس بادىء ذى بدىء على التراث الاسلامى بالمشرق ، وكان هـذا الاعتماد اما من طريق استقدام العلماء المشارقة الى الأندلس ، واما من طريق رحلة الأندلسيين الى المشرق للتزود بالعلم والتحصيل فى مختلف أنـواع العلوم والآداب . وكان أهل الأندلس أحرص الناس عـلى التزود بالعـلم . ويذكر المقـرى فى كتـابه « نفـح الطيب » أن الجاهل الذى لم يوفقه الله للعلم فى الأندلس ، كان يجهد نفسه ليتميز بصنعة ، ويربأ بنفسه أن يرى عالة على الناس ... اذ أنهم كانـوا يعدون ذلك فى غاية القبح . والعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة على السواء ، يشار اليه ويحال عليه ، وينبه قدره وذكره عند الناس .

ولم تكن بالأندلس مدارس تعين عـلى طلب العلم ، كما كان الحال فى المشرق ، بل كان الطلبة يقرأون ويدرسون فى المساجد ، مقابل أجر معلوم . ولم تظهر المدارس فى الأندلس الا فى عصر دولة بنى الأحمر . وكان اقبال الناس على شراء الكتب واقتنائها أمرا معروفا فى الأندلس . وما نعرفه عن ولع الحكم المستنصر بجمع الكتب أكبر دليل على ذلك ، وقيل انه جمع ما لا يوصف كثرة ونفاسة ، حتى ان مكتبته بلغت نحوا من ٤٠٠ ألف مجلد ، وأنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر فى نقلها . وكان يستجلب المصنفات من الأقاليم والنواحى ، باذلا فيها ما أمكن بذله من الأموال حتى ضاقت عنهـا خزائنه . ويذكر ابن بشكوال أنه قلما وجد كتاب من خزائنه الا وله فيه قراءة أو نظر فى أى فن .

وكان حظ أهل الأندلس من العلوم والآداب كبيرا للغاية ، فتقدمت تقدما ملموسا منذ العهـد الأموى ، واشتغل منهم كثيرون فى الطب والكيمياء والهندسة والعلوم الرياضية والفلك ، ونبغوا فى الفلسفة والتصوف والنحو والشعر . وكان أمراء بنى أمية وخلفاؤهم يكرمون العلماء ، ويحيطونهم برعايتهم ... فازدهرت العلوم والآداب فى هـذا العصر ، وبلـغ هـذا الازدهار أوجـه فى عصر الموحدين .

العلوم العقلية

أول من اشتهر فى الطب فى الأندلس : أحمـد بن اياس القرطبى فى عهد الأمير محمد . ونبغ بعده كثيرون فى عهد بنى أمية ، منهم يحيى ابن اسحق الذى كان طبيبا للأمير عبـد الله بن محمد . وقد استوزره الخليفة عبـد الرحمن الناصر . وله فى الطب مؤلفات كثيرة . وازدهر الطب فى عهد هذا الخليفة ، واشـتهر به كثير من العلمـاء : منهم أبو عبد الله محمد بن عبدون العذرى القرطبى ، الذى رحل الى مصر سنة ٣٣٧ هـ (٩٤٨ م) ، ودبر مارستان مصر . والوزير أبو المطرف عبد الرحمن ابن شهيد ، مصنف الأدوية المفردة . ويقول عنـه

المقرى انه كان « آية الله تعالى فى الطب وغيره ، حتى انه عانى جميع ما فى كتابه من الأدوية المفردة ، وعرف ترتيب قواها ودرجاتها . وكان لايرى التداوى بالأدوية ما أمكن ، بل بالأغذية أو ما يقرب منها . واذا اضطر الى الأدوية ، فلا يرى التداوى بالمركبة ما وجد سبيلا الى المفردة . واذا اضطر الى المركب ، لم يكثر التركيب ، بل يقتصر على أقل ما يمكنه . وله عرائب مشهورة فى الابراء من الأمراض الصعبة ، والعلل المخوفة ، بأيسر علاج وأقربه » .

ولعله ابن وافد المشهور الذى ترجم له القاضى أبو القاسم صاعد ، وذكر أنه « ألف كتابا جليلا لا نظير له ، جمع فيه ما تضمنه كتاب ديسقوريدس وكتاب جالينوس المؤلفين فى الأدوية المفردة ، ورتبه أحسن ترتيب » .

واشتهر فى عهد الحكم المستنصر الطبيب العالم أبوالقاسم الزهراوى (من مدينة الزهراء) ، الذى اتخذه الحكم طبيبا خاصا له . ونبغ فى عصره هشام المؤيد الطبيب أبو داود سليمان بن حسان ، المعروف بابن جلجل ، وقد شرح أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس ، وأوضح ما غمض منها فى كتابه « تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس » وكتب ابن الهيثم فى الخواص والسموم والعقاقير عدة مؤلفات (٩٦٥ــ١٠٣٩) .

أما عصر الموحدين فهو العصر الذهبى لعلم الطب ، اذ نبغ فيه كثير من الأطباء فى الأندلس ، نخص بالذكر منهم : ابن البيطار ، وهو عبد الله بن أحمد المالقى ، الملقب بضياء الدين . وقد رحل الى مصر فى أيام الملك الكامل ، وعين طبيبا فى خدمته ، ثم طبيبا للملك الصالح نجم الدين أيوب . وعنى بدراسة النبات والأعشاب فى مصر والشام ، وله عدة مصنفات فى الحشائش لم يسبق اليها ، منها كتاب « الجامع فى الأدوية المفردة » ، وكتاب « المغنى فى الأدوية المفردة » ، وكتاب « الأفعال الغريبة والخواص العجيبة » . وقد استفاد فى كتبه من تصانيف الأدوية المفردة ، ككتاب الغافقى وأبى الحسن الزهراوى . وتوفى بدمشق سنة ٦٤٦ هـ ، اذ تجرع عقارا قاتلا فمات من ساعته .

واشتهر بنو زهر ، من أشراف اشبيلية ، بصناعة الطب التى توارثوها ابنا عن أب ، وكان جدهم الأكبر ، عبد الجبار بن أبى سلمة القرشى الزهرى ، قد دخل الأندلس مع موسى بن نصير ، وكان على ميسرة معسكره ، ونزل باجة ثم بطليوس ، ثم استقر أعقابه فى اشبيلية . واشتهر منهم الوزير أبومروان عبدالملك بن محمد بن مروان بن زهر ، الذى مال الى التفنن فى أنواع التعليم ، من الطب وغيره ، ورحل الى المشرق . ونشأ ابنه أبو العلاء زهر بن عبد الملك بشرق الأندلس ، ومال الى علم الأبدان ، ولم يزل مقيما بشرق الأندلس الى أن استولى يوسف بن تاشفين على الأندلس .

وكان أبو العلاء زهر عالما فى الطب ، عارفا بالعلاجات ، مطلعا على دقائقها . واستدعاه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اليه فى مراكش لعلاجه . ولابنه عبد الملك بن أبى العلاء كتاب « التيسير » وكتاب « الأغذية » . كذلك ألف لخليفة الموحدين عبد المؤمن كتاب « الترياق السبعينى » . وكان حفيده ، أبو بكر محمد بن أبى مروان عبد الملك ابن زهر ، طبيب اشبيلية الأوحد ، واستوزره خليفة الموحدين أبو يوسف يعقوب المنصور . وتوفى فى سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨ م) ، وأمر أن يكتب على قبره :

تأمل بفضلك يا واقفا
ولاحظ مكانا دفعنا اليه

تراب الضريح على صفحتى
كأنى لم أمش يوما عليه

أداوى الأنام حذار المنون
فها أنا قد صرت رهنا لديه

وذاع فى الطب ، فى عهد الموحدين ، أمر أبى محمد عبد الملك المشذونى ، وأبى العباس بن الرومية الاشبيلى الذى ألف كتابا فى الأدوية المفردة .

وقد استفاد الاوربيون من كتب الطب الاندلسية وترجموا أغلب هذه الكتب الى اللاتينية واليونانية ، مثل كتاب (Viaticum Peregrinantis) الذى ألفه الطبيب ابن الجزار المتوفى سنة ١٠٠٩ ، والذى ترجمه كنستنتينو الأفريقى ، وكتاب (Liber Servitoris) لأبى القاسم الزهراوى ، المعروف باسم (Alsaharavius) وقد ترجمه جيراردو دى كريمونا الى اللاتينية . وترجم جيدو دى كاولياك سنة ١٤٧٩ كتاب الزهراوى عن الجراحة الى اللاتينية تحت عنوان (Chirurgia parva) .

وعرف أبو مروان بن زهر فى الأوساط العلمية الأوربية باسم (Avenzoar) ، وترجم كتابه التيسير الى اللاتينية عام ١٤٩٦ ، وظلت هذه الترجمة سارية المفعول فى الطب الايطالى حتى القرن السابع عشر ، وكذلك ترجم كتاب الكليات لابن رشد الى اللاتينية تحت عنوان (Colliget)

وساهمت مدرسة الترجمة بطليطلة ، فى القرن الثانى عشر ، بنصيب وافر فى ترجمة كتب الطب الأندلسية التى تجاوزت شهرتها آفاق أوربا ، ودرست علوم الطب فى باريس على أساس التواليف الاسلامية .

أما علم الكيمياء ، الذى ينظر فى المادة التى تتم بها صياغة الذهب والفضة[1] فينسب الى جابر بن حيان ... حتى أنه يعرف أحيانا بعلم جابر ، وله فيه سبعون رسالة . وقد اشتغل أهل الأندلس بالكيمياء ، واشتهر منهم أبو القاسم مسلمة بن أحمد المجريطى (من مدريد) المتوفى سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٧ م) شيخ الأندلس فى علم الكيمياء فى عهد بنى أمية . وقد ألف كتابا فى علم الكيمياء سماه « رتبة الحكيم » ، وجعله قرينا لكتابه الآخر فى السحر والطلسمات الذى سماه « غاية الحكيم » . ومن كبار تلاميذه أبو بكر بن بشرون .

ونبغ فى علم الكيمياء ، فى عهد الأمير محمد ، العالم أبو القاسم عباس بن فرناس (٨٥٨ — ٨٨٦) ، أول من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة .

واشتهر عباس بن فرناس المذكور بصناعة العدد والآلات ، فصنع الآلة المعروفة بالمنقالة ، ليعرف الأوقات على غير رسم ومثال ، واحتال فى تطيير جثمانه ، وكسا نفسه بالريش ، ومد له جناحين ، وطار فى الجو مسافة بعيدة ... ولكنه لم يحسن الاحتيال فى وقوعه ، فأصيب فى مؤخره . ولم يدر أن الطائر انما يقع على زمكه . وقد صنع فى بيته قبة تشبه السماء ، وزودها بالآلات الخفية التى

---

(١) علم الكيمياء ـ كما فسره ابن خلدون ـ « علم ينظر فى المادة التى يتم بها كون الذهب والفضة بالصناعة ، ويشرح العمل الذى يوصل الى ذلك ، فيتصفحون المكونات كلها ، بعد معرفة أمزجتها وقواها ، لعلهم يعثرون على المادة المستعدة لذلك ... حتى من الفضلات الحيوانية ، كالعظام والريش والبيض والعذرات ، فضلا عن المعادن . ثم يشرح الأعمال التى تخرج بها تلك المادة من القوة الى الفعل : مثل حل الأجسام الى أجزائها الطبيعية بالتصعيد والتقطير ، ومن الذائب منها بالكلس ، وأمهاء الصلب بالصهر والصلابة وأمثال ذلك . وفى زعمهم أنه يخرج بهذه الصناعات كلها جسم طبيعى يسمونه الاكسير ، وانه يلقى منه على الجسم المعدنى ، المستعد لقبول صورة الذهب او الفضة ، بالاستعداد القريب من الفعل — مثل الرصاص والقصدير والنحاس ـ بعد أن يحمى بالنار ، فيعود ذهبا ابريزا » .

تحدث البروق والرعود ، وجعل فى أعلاها نجوما وغيوما تبدو للناظر حقيقة .

وأول من اشتهر فى الأندلس بعلم الحساب والنجوم : أبو عبيدة مسلم بن أحمد المعروف بصاحب القبلة ، لأنه كان يشرق فى صلاته ، وكان عالما بحركات الكواكب وأحكامها . وكان يحيى ابن يحيى ، المعروف بابن السمينة القرطبى ، بصيرا بالحساب والنجوم . وبرع أبو القاسم أصبغ بن السمح فى علم النجوم والهندسة ، وله عدة تواليف منها : « كتاب المدخل الى الهندسة فى تفسير اقليدس » ، وكتاب كبير فى الهندسة ، وكتابان فى الاسطرلاب . ونبغ أبوالحسن الزهراوى فى العدد والهندسة ، وله كتاب فى الهندسة عنوانه «المقابلات عن طريق البرهان » واشتهر أبو الحكم عمرو بن عبد الرحمن الكرمانى القرطبى ، فى بلاط ابن هود بسرقسطة ، فى علم العدد والهندسة . ورحل الى المشرق ، واشتغل بحران ، وهو أول من أدخل رسائل اخوان الصفا الى الأندلس ، وتوفى سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٥ م) .

ومن علماء الأندلس فى الهندسة والنجوم أبومسلم بن خلدون ، من أشراف اشبيلية ، وتلاميذه ابن برغوث ، وكان عالما فى الرياضيات ، وأبو الحسن مختار الرعينى ، وعبد الله بن أحمد السرقسطى ، وكان متعمقا فى علم الهندسة والعدد والنجوم ، ومحمد بن الليث ، وكان بارعا فى العدد والهندسة وحركات الكواكب ، وابن الوقشى الطليطلى ، وكان عارفا بالهندسة والمنطق . ومن أشهر علماء الفلك : ابراهيم بن يحيى النقاش ، المعروف بابن الزرقيال ، الذى ابتدع كثيرا من الآلات الخاصة بالنجوم . وكان من مآثر بنى هود ملوك سرقسطة عنايتهم بالعلم ، وكان المقتدر بن هود عالما فى الرياضة والهندسة والنجوم ، وله فيها تآليف .

ويعد عصر الموحدين العصر الذى تقدمت فيه علوم الهندسة والآلات العجيبة . ومن أمثلة ذلك : التابوت الذى صنعه بعض المهندسين لحفظ مصحف عثمان ، اذ كان له باب ينفتح من تلقاء نفسه ، فيخرج الكرسى الحامل للمصحف ، فاذا خرج بأكمله أغلق الباب من تلقاء نفسه . وكذلك المقصورة التى تنصب فى أثناء الصلاة ، وتختفى فى باطن الأرض بعد الصلاة .

كذلك برع أهل الأندلس فى صناعة الآلات الفلكية كالاسطرلابات . واشتهر فى عهد بنى الأحمر : يحيى بن هذيل ، وكان بارعا فى الهندسة والرياضيات .

وقد ترجمت الى اللاتينية بعض المؤلفات الأندلسية فى الهندسة والنجوم ، مثل كتاب مسلمة المجريطى عن الكواكب لبطليموس ، ترجمه رودولفو دى بروخاس فى النصف الأول من القرن الثانى عشر . وانتفع ألفونسو العاشر بمؤلفات ابن زرقيال فى الفلك والنجوم .

أما الفلسفة فلم يكن للأندلسيين فى العصر الأموى حظ كبير فيها ، فقد كان جل اهتمامهم منصرفا الى العلوم الدينية واللغوية . وكانت الفلسفة موضع نفور واضطهاد . ويذكر المقرى ، فى كتابه نفح الطيب ، أن كل العلوم كان لها عند الأندلسيين حظ كبير واعتناء ، الا الفلسفة والتنجيم « فان لهما حظا عظيما عند خواصهم ، ولا يتظاهر بهما خوف العامة ... فانه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أويشتغل بالتنجيم ، أطلق عليه اسم زنديق ، وقيدت عليه أنفاسه . فان زل فى شبهة ، رجموه بالحجارة ، وأحرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان ، أو يقتله

السلطان تقربا لقلوب العامة . وكثيرا ما يأمر ملوكهم باحراق كتب هذا الشأن اذا وجدت » .

وذكر ابن سعيد « أن الفلسفة علم ممقوت بالأندلس لا يستطيع صاحبه اظهاره ، فلذلك تخفى تصانيفه » . ولقد أحرق الخليفة عبد الرحمن الناصر كتب ابن مسرة ، فيلسوف قرطبة الأول . وأحرق المنصور ابن أبى عامر — أول قيامه بالحجابة — كتب الفلسفة ليتقرب الى الفقهاء . ومع ذلك فقد كان فى الأندلس فلاسفة فى العصر الأموى ، منهم محمد بن عبد الله بن مسرة الباطنى القرطبى ٢٦٩-٣١٩ هـ (٨٨١ — ٩٣١ م) [١] .

وذكر ابن حزم القرطبى أنه رأى من كتب الفلسفة رسائل مجموعة وعيونا مؤلفة لسعيد بن فتحون السرقسطى المعروف بالحمار ، دالة على تمكنه من هذه الصناعة ، ورسائل لأبى عبد الله بن الحسن المذحجى .

وازدهرت الفلسفة فى عصر الموحدين — وعلى الأخص فى عهد أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن — ازدهارا منقطع النظير ، وبرز فيها فيلسوفان من أشهر مفكرى الأندلس ، وأعظم فلاسفة الاسلام هما : ابن طفيل ، وابن رشد . وكان أبو يعقوب يوسف ، محبا للفلسفة ، مقبلا عليها ، فجمع كثيرا من مؤلفاتها . فاجتمع له — على حد قول عبد الواحد المراكشى — ما يقرب من كتب الحكم المستنصر بالله ، وكان يحيط نفسه بعظام الفلاسفة والمفكرين : أمثال أبى بكر محمد بن طفيل ، وأبى الوليد بن رشد . الا أن انحراف ابنه ، أبى يوسف يعقوب المنصور ، عن علم الفلسفة ، وسجنه لابن رشد ، وقتل أبى العلاء المأمون لابن حبيب الفيلسوف ... أدى الى خمول حركة الفلسفة ، فتوارى كثيرون ممن كانوا يشتغلون بها .

وكان أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل العنسى الوادى آشى ، من أعظم فلاسفة المسلمين . وكان متحققا بجميع أنواع الفلسفة ، قرأ على جماعة من العلماء والفلاسفة ، منهم أبو بكر محمد ابن يحيى الصائغ — المعروف بابن باجة — الذى أشار فى فلسفته الى فكرة اتصال العقل بالانسان [١] وهى الفكرة التى كانت أساسا لوحدة الوجود الصوفية عند ابن طفيل .

ولابن طفيل هذا عدة تصانيف فى أنواع الفلسفة : من الطبيعيات والالهيات ، وغير ذلك . فمن رسائله فى الطبيعيات رسالة سماها « رسالة حى بن يقظان » ، قصد منها بيان الصلة بين العقل والدين . والأساس الفلسفى لهذه الرسالة هو الطريق الذى سار عليه فلاسفة المسلمين على مذهب الأفلاطونية الحديثة . وكان ابن طفيل قد صرف عنايته ، فى نهاية عمره ، الى الالهيات . وكان حريصا على الجمع بين الحكمة والشريعة ، وله تصانيف فى هذا الفرع من الفلسفة .

وكان أبو يعقوب يوسف متعلقا به ، محبا له . وكان ابن طفيل يقدم اليه العلماء والفلاسفة من جميع الأقطار ، ويعرفه بهم . ومن هؤلاء الفلاسفة الذين قدمهم اليه : أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبى . ويعد ابن رشد من أجل فلاسفة الاسلام ، وأعظم ملخصى فلسفة

(١) قال عنه الفتح بن خاقان فى المطمح : « كانت له اشارات غامضة ، وعبارة عن منازل الملحدين غير داحضة ، ووجدت له مقالات ردية واستنباطات مردية ، نسب بها اليه رهق ، وظهر له فيها مزحل عن الرشد ومزهق .. فتتبعت مصنفاته بالحرق ، واتسع فى استباحتها الخرق ، وغدت مهجورة ، على التالين محجورة » .

(١) فى هذه الفكرة كتابان ، هما : « تدبير الموحد » ، و « كتاب النفس » .

« أرسطوطاليس » وشارحيها[1] . وكان أبو يوسف يعقوب المنصور يقربه اليه ، ثم نقم عليه . ونالت ابن رشد على يديه محنة شديدة .

وذكر عبد الواحد المراكشي سبب هذه المحنة بقوله : « وكان لها سببان جلي وخفي . فأما سببها الخفي — وهو أكبر أسبابها — فان الحكيم أبا الوليد ، رحمه الله ، أخذ في شرح كتاب الحيوان لأرسطوطاليس ، صاحب كتاب المنطق ، فهذبه وبسط أغراضه ، وزاد فيه ما رآه لائقا به . فقال فى هذا الكتاب — عند ذكره الزرافة ، وكيف تتولد ، وبأى أرض تنشأ — : « وقد رأيتها عند ملك البربر » ، جاريا فى ذلك على طريقة العلماء فى الاخبار عن ملوك الأمم وأسماء الأقاليم ، غير ملتفت الى ما يتعاطاه خدمة الملوك ومتحيلو الكتاب ، من الاطراء والتقريظ ، وما جانس هذه الطرق ... فكان هذا مما أحنقهم عليه ، غير أنهم لم يظهروا ذلك . وفى الجملة فانها كانت من أبى الوليد غفلة . واستمر الأمر على ذلك الى أن استحكم ما فى النفوس ...

« ثم ان قوما ممن يناوئونه من أهل قرطبة ، ويدعون معه الكفاءة فى البيت وشرف السلف ، سعوا به عند أبى يوسف ، ووجدوا الى ذلك طريقا بأن أخذوا بعض تلك التلاخيص التى كان يكتبها ، فوجدوا فيها بخطه — حاكيا عن بعض قدماء الفلاسفة بعد كلام تقدم — « فقد ظهر أن الزهرة أحد الآلهة ... » ، فأوقفوا أبا يوسف على هذه الكلمة . فاستدعاه — بعد أن جمع له الرؤساء والأعيان من كل طبقة ، وهم بمدينة قرطبة — فلما حضر أبو الوليد ، رحمه الله ، قال له بعد أن نبذ اليه الأوراق : « أخطك هذا ؟ » فأنكر فقال أمير المؤمنين : « لعن الله كاتب هذا الخط » . وأمر الحاضرين بلعنه » .

وأبعده الخليفة من حضرته وسجنه ، وأحرق جميع كتبه فى الفلسفة . غير أنه ما لبث أن عفا عنه ، واستدعاه الى مراكش بجواره ، وأحسن اليه . ولكن الموت لم يمهل ابن رشد فتوفى عام ٥٩٤ هـ (١١٩٧ م) .

وقد تناولت فلسفة ابن رشد عدة مسائل : تتدرج من أصل الكائنات الى اتصال الكون بالخالق ، وعلاقة الانسان به ، ثم المادة وخلق العالم . وقد أثرت فلسفة ابن رشد فى الفلسفة الأوربية فى العصور الوسطى ، وترجمت كتبه الى اللاتينية ، وتغلغلت أفكاره فى أوربا . وعنها أخذ كثيرون من الفلاسفة الايطاليين فى أواخر العصر الوسيط .

الشعر الأندلسى

كان أهل الأندلس يفتتنون بالمنثور والمنظوم ، لم تضق لهم فى ذلك ساحة . وكانوا أشعر الناس وأرقهم ، اذ تأثروا بطبيعة بلادهم : بما فيها من رياض نضرة ، وأنهار جارية . وشعر ابن خفاجة البلنسى خير مثل للرقة . وأعانهم على هذا التفوق فى الشعر أنسابهم العربية ، وهممهم الأبية . وكان القرن الرابع الهجرى هو العصر الذهبى للشعر ، اذ برز كثير من الشعراء : منهم أحمد بن محمد بن دراج القسطلى الذى يقارن ببشار بن برد والمتنبى . ومن قوله فى وصف أسطول ابن أبى عامر :

تحمل منه البحر بحرا من القنا
يروع بها أمواجه ويهول
بكل ممالات الشراع كأنها
وقد حملت أسد الحقائق غيل

(١) لخص ابن رشد جميع كتب أرسطو وهى « سمع الكيان » وكتاب «السماء والعالم» و «رسالة الكون والفساد» و «كتاب الآثار العلوية » و« كتاب الحس والمحسوس » .. لخصها جميعا فى جزء واحد من مائة وخمسين ورقة تحت عنوان « كتاب الجوامع » ثم استفاض فى شرحها فى كتاب مبسوط يقع فى أربعة أجزاء .

اذا سابقت شأو الرياح تخيلت
خيولا مدى فرسانهن خيول

سحائب تزجيها الرياح ، فان وفت
أطافت بأجياد النعام فيول

أراقم تحوى ناقع السم ما لها
بما حملت دون العداة مقيل

ومنهم : جعفر بن عثمان الحاجب ، وأحمد بن عبد الملك بن مروان ، وأغلب بن شعيب ، وأحمد بن فرج ، وابن عبد ربه — صاحب العقد الفريد — وأبو اسحق الألبيرى ، وابن أبى زمنين ، وابن فرج الجيانى ، وأبو عبد الله محمد بن شخيص . واشتهر منهم أبو عمر يوسف بن هرون الكندى ، المعروف بالرمادى القرطبى ، المتوفى فى عام ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) .

وكان الرمادى رقيقا فى شعره . وكان كثير من شيوخ الأدب فى عصره يقولون : فتح الشعر بكندة ، وختم بكندة . ويعنون امرأ القيس والمتنبى والرمادى . وقال عنه الفتح فى المطمح : « انه شاعر مفلق ، انفرج له من الصناعة المغلق ، وومض له بريقها المؤتلق ، وسال بها طبعه كالماء المندفق ... فأجمع على تفضيله المختلف والمتفق : فتارة يحزن ، وأخرى يسهل ، وفى كلتيهما بالبديع يعل وينهل . فاشتهر عند الخاصة والعامة بانطباعه فى الفريقين ، وابداعه فى الطريقين » . وأورد من محاسن شعره قوله :

شطت نواهم بشمس فى هوادجهم
لولا تلألؤها فى ليلهن عشوا

شكت محاسنها عينى ، وقد عذرت ،
لأنها بضمير القلب تنخمش

وكان قد أنشد شعرا أوغر عليه صدر الخليفة ، فسجنه . فاستعطفه الرمادى فى سجنه بقوله :

على كمدى تهمى السحاب وتذرف
ومن جزعى تبكى الحمام وتهتف

كأن السحاب الواكفات غواسلى
وتلك على فقدى نوائح هتف

ولما سقطت الخلافة الأموية ، وقامت دول الطوائف ، تنافس الملوك فى اجتذاب الشعراء اليهم . فتألق فن الشعر ، وتبارى الشعراء فى نظم القصائد . وكان لكل ملك من ملوك الطوائف شعراؤه . فمن شعراء المعتمد بن عباد ملك اشبيلية : ابن عمار ، وابن اللبانة ، وابن زيدون . ومن شعراء المعتصم بن صمادح : ابن الحداد ، وأبو الوليد النحلى ، وأبو الفضل بن شرف . وكان بعض ملوك الطوائف ينظم الشعر أمثال : المعتمد بن عباد ، والمعتصم بن صمادح ، وأبى مروان عبد الملك بن رزين ، ومحمد بن طاهر .

فمن قول المعتمد بن عباد وهو فى منفاه :

غريب بأرض المغربين أسير
سيبكى عليه منبر وسرير

وتندبه البيض الصوارم والقنا
وينهل دمع بينهن غزير

ومن أرق شعراء الطوائف : الشاعر الوزير أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون . وقد سجل بأشعاره كثيرا من أحداث حياته : فى سراحه واعتقاله ، ومقامه وانتقاله . وكان يحب ولادة بنت المستكفى ، فأنشد فيها أشعارا رائعة . منها القصيدة المشهورة التى كتبها اليها ، بعد أن يئس من لقائها يستديم عهدها ، ويؤكد ودها ، ويعتذر من فراقها بالخطب الذى ألم به ، ويعلمها أنه ما سلا عنها بخمر ، ولا خبا ما بين ضلوعه لها من ملتهب جمر . وتبدأ هذه القصيدة بقوله :

أضحى التنائى بديلا من تدانينا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا

بنتم وبنا : فما ابتلت جوانحنا
شوقا اليكم ، ولاجفت مآقينا

يكاد ، حين تناجيكم ضمائرنا ،
يقضى علينا الأسى .. لولا تأسينا

حالت لفقدكم أيامنا فغدت
سودا ، وكانت بكم بيضا ليالينا

اذ جانب العيش طلق من تآلفنا
ومورد اللهو صاف من تصافينا

واذ هصرنا غصون الأنس دانية
قطوفها فجنينا منه ما شئنا

ثم يبلغها أنه ما يزال باقيا على الوفاء مهما يطل به الفراق ، فيقول :

لم نعتقد بعدكم الا الوفاء لكم
رأيا ، ولم نتقلد غيره دينا

لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا
ان طال ما غير النأى المحبينا

ويسألها أن تبقى على العهد مثله ، فيقول :

دومى على العهد ما دمنا محافظة
فالحر من دان انصافا كما دنا

وقال فى قصيدة أخرى يخاطب بها ولادة ، ويطلب منها الوفاء بالعهد ، ويذكر لها أرقه وسهده :

ما جال بعدك لحظى فى سنا القمر
الا ذكرتك ذكر العين بالأثر

ولا استطلت ذماء النفس من أسف
الا على ليلة سرت مع القصر

ومن قول ابن اللبانة الشاعر فى وداع آل عباد ، بعد أن أسرهم المرابطون ، ونفوهم بأغمات فى المغرب :

تبكى السماء بمزن رائح غاد
على البهاليل من أبناء عباد

على الجبال التى هدت قواعدها
وكانت الأرض منهم ذات أوتاد

حان الوداع ، فضجت كل صارخة
وصارخ من مفداة ومن فاد

سارت سفائنهم والنوح يصحبها
كأنها ابل يحدو بها الحادى

واشتهر فى عصر المرابطين شعراء الوصف والتشبيهات أمثال : ابن خفاجة ، وابن الزقاق ، وابن عائشة . وظهر فى عهد الموحدين شعراء عظام أمثال : أبو عبد الله محمد بن غالب الرصافى ، وأبو العباس أحمد بن سعيد الملقب باللص ، وابراهيم ابن سهل الاسرائيلى ، وأبو بكر محمد بن أحمد ابن الصابونى الاشبيلى ، وأبوبكر محمد بن أحمد ابن حجاج الغافقى الاشبيلى ، وأبو العباس أحمد بن حنون ، وأبو الحسن على بن يوسف بن خروف القرطبى وغيرهم .

ومن روائع أشعار ابن سهل قوله :

وألمى ، بقلبى منه جمر مؤجج
تراه على خديه يندى ويبرد

يسائلنى : من أى دين ؟ مداعبا
وشمل اعتقادى فى هواه مبدد

فؤادى حنيفى ، ولكن مقلتى
مجوسية من خده النار تعبد

ويتسم شعر ابن سهل الاسرائيلى بالرقة والسلاسة . سئل بعض المغاربة عن السبب فى رقة

نظمه فقال : « لأنه اجتمع فيه ذلان : ذل العشق ، وذل اليهودية » . وتوفى ابن سهل غريقا سنة ٦٤٩ هـ .

كان هؤلاء الشعراء آخر شعراء مجيدين أنجبتهم الأندلس فى عصر الموحدين . ولم نعد نسمع فى عصر دولة بنى الأحمر الا عن شاعرين نابغين هما : ابن الخطيب ، وتلميذه ابن زمرك الذى سجل أشعاره على جدران قصر الحمراء بغرناطة .

وكانت فى الأندلس شاعرات مجيدات : نبغت منهن فى عصر بنى أمية الشاعرة حسناء التميمية . ومن روائع شعرها قصيدة مدحت فيها الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وشكت اليه من جور عامله بالبيرة « جابر بن لبيد » . ومنها :

الى ذى الندى والمجد سارت ركائبى
على شحط تصلى بنار الهواجر

ليجبر صدعى ، انه خير جابر
ويمنعى من ذى الظلامة « جابر »

فانى وأيتامى بقبضة كفه
كذى ريش أضحى فى مخالب كاسر

ومنهن الشاعرة أم العلاء بنت يوسف الحجارية (من مدينة وادى الحجارة) ، التى ظهرت فى المائة الخامسة ، والشاعرة أم الكرام بنت المعتصم بن صمادح ، والشاعرة الغسانية البجانية (من شاعرات القرن الرابع الهجرى) ، وحفصة بنت حمدون الحجارية ، وزينب المرية ، وغاية المنى الشاعرة ، ومهجة القرطبية ، وأسماء العامرية الاشبيلية ، وبثينة بنت المعتمد بن عباد ، والعبادية جاريته . وكلهن شاعرات من عصر ملوك الطوائف ، وأشهرهن الشاعرة ولادة بنت المستكفى بالله محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر ، وكتبت بالذهب على طراز ثوبها :

أنا والله أصلح للمعالى
وأمشى مشيتى وأتيه تيها

وأمكن عاشقى من لثم خدى
وأعطى قبلتى من يشتهيها

ومع ذلك فقدكانت مشهورة بالعفة والطهارة ؛ وفيها أنشد ابن زيدون أروع قصائده . ومن شعرها أبيات ودعت بها ابن زيدون :

ودع الصبر محب ودعك
ذائع من سره ما استودعك

يقرع السن على أن لم يكن
زاد فى تلك الخطا اذ شيعك

يا أخا البدر سناء وسنا
حفظ الله زمانا أطلعك

ان يطل بعدك ليلى فلكم
بت أشكو قصر الليل معك

وكانت ولادة شاعرة جزلة القول رقيقته ، وكانت تساجل الشعراء ، وتناضل الأدباء ، وعمرت طويلا ، وماتت عذراء سنة ٤٨٠ هـ .

ومن أشهرهن حمدونة بنت زياد الوادى آشية ، وكانت تسمى بخنساء المغرب بالأندلس . ومن أروع أشعارها قولها :

ولما أبى الواشون الا فراقنا
ومالهم عندى وعندك من ثار

وشنوا على أسماعنا كل غارة
وقل حماتى عند ذاك وأنصارى

غزوتهم من مقلتيك وأدمعى
ومن نفسى : بالسيف والسيل والنار

وقولها فى وصف وادى « نهير » ... منقسم الجداول بين الرياض :

وقانا لفحة الرمضـاء واد
سقاه مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحـه فحنا علينـا
حنـو المرضعات على الفطيم
وأرشـفنا على ظمأ زلالا
ألذ من المدامة للنـديم
يصد الشمس أنى واجهتنا
فيحجبها ويأذن للنسـيم
يروع حصاه حالية العـذارى
فتلمس جانب العقـد النظيم

الموشحات

استحدث الأندلسيون نوعا من الشعر العربى يسمى الموشحات ، يستند على أصـل شعبى هو الأغنية الشعبية ، وينظم أسماطا وأغصانا ، ويعرف المقطع الأخير من الموشحة بالخرجة ، وهى أساس الصلة الوثيقة التى تربط بين الموشـحة والأغنية الشعبية . وغالبا ما كانت هذه الحرجة تتضـمن ألفاظا رومانسية ، وهى ألفاظ شائعة فى العامية . وتختلف الموشحة فى تركيبها عن القصيدة ، اذ تتعدد القوافى فى الموشحة ، وتسمى الأبيات التى تختلف قوافيها بالأغصان ، والتى تتفق قوافيها بالأسماط أو الأقفال . أما الخرجة فهى أهم جزء فى الموشحة .

وقد فسر ابن بسام فى « الذخـيرة » أصـل الموشحات وتطوره ، وذكر أن أول من صنع أوزان هذه الموشحات فى الأندلس هو محمد بن محمود القبرى الضرير ، وأنه كان يصنعها على أشـطار الأشعار ، وأنه كان يأخذ اللفظ العامى والعجمى ويسميه المركز ، ويضع عليه الموشحة دون تضمين فيها ولا أغصان .

ثم أخذ ابن عبد ربه عن موشحات مقـدم بن معافى ... الا أن أول من برع فى هـذا النوع من الأشعار عبادة القزاز ، شاعر المعتصم بن صمادح ، وكان عبادة هذا أسـبق وشاحى معاصريه . ومن أمثلة توشيـحاته الموشـحة التى يبـدأ مطلعها كالآتى :

من مورد التسنيم ، من سلك فلج ...

ويمضى الوشاح فى ايراد الأغصان والأقفال ، حتى ينتهى الى الغصن الأخير فيقول :

وغادة لـم تزل تشكو لمن لا ينصف
يا ويح من يتصـل بحبل من لا يسعف
لمـا رأته بطـل وهى غراما تكلف
غنت وما للأمـل الا اليـه المصرف

ويختتم الموشحة بالخرجة الآتية :

ميو سيدى ابراهيم ، يا نوامن دلج
فانت ميب ، دى نخت
ان نون شنون كارنش ، يريم تيب
عرفى أوب ، لغرت

والخرجة كما ترى تتضمن ألفاظا رومانسية ، أى لاتينية حديثة مكتوبة بالعربية .

وازدهرت صناعة الموشحات فى عصر المرابطين . فبرز كثير من الوشاحين أمثال : أبى العباس أعمى تطيلة ، وابن بقى ، وأبى بكر الأبيض ، والحكيم أبى بكر بن باجة صاحب التلاحين . وظهرت بدائع الوشاحين فى عصر الموحدين ، فظهر أبو بكر بن زهر ، وابن سهل الاسرائيلى ، ومحـمد بن أبى الفضل بن شرق ، وابن حنون ، وابن جرمون ، وأبو الحسن بن مالك ، وأبو بكر بن الصابونى .

ومن أجمل موشحات ابن زهر قوله :

أيها الساقى اليك المشتكى
كم دعوناك وان لم تسمع
ونديم همت فى غرته
وسقانى الراح من راحته
كلما استيقظ من سكرته
جذب الزق اليه واتكى
وسقانى أربعا فى أربع

الأزجال

يقول ابن خلدون انه لما شاع فن التوشيح فى الأندلس ، وأخذ به الناس لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه ، نسجت العامة على منواله ، ونظموا فى طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها اعرابا ، واستحدثوا فنا سموه بالزجل والتزموا النظم فيه على مناحيهم ، فاتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة .

وأول من ابتكر الأزجال أبو بكر بن قزمان القرطبى فى عهد المرابطين ، ويعد ابن قزمان امام الزجالين على الاطلاق . واشتهرت أزجاله فى الآفاق ، وانتقلت الى بغداد والشام ومصر . وذكر الحجارى أنه كان فى أول شأنه مشتغلا بالنظم المعرب فرأى نفسه تقضر عن أفراد عصره ، كابن خفاجة وغيره ، فعمد الى طريقة لا يمازجه فيها أحد منهم ، فصار امام أهل الزجل المنظوم بكلام عامة الأندلس . وذكر لسان الدين ابن الخطيب أن هذه الطريقة الزجلية بديعة ... تنفسح لكثير مما ضاق على الشاعر سلوكه ... وبلغ فيها أبو بكر بن قزمان مبلغا عظيما ، فهو آيتها المعجزة ، وحجتها البالغة ، وفارسها المعلم ، والمبتدىء فيها والمتمم .

وخلفه فى هذه الصناعة مدغليس الزجال . وكان أهل الأندلس يقولون : ابن قزمان فى الزجالين بمنزلة المتنبى فى الشعراء ، ومدغليس بمنزلة أبى تمام بالنظر الى الانطباع والصناعة ، فابن قزمان يهتم بالمعنى ، ومدغليس باللفظ . ومن أروع أزجال مدغليس :

ورذاذ دق ينزل
وشعاع الشمس يضرب
فترى الواحد يفضض
وترى الآخر يذهب
والنبات يشرب ويسكر
والغصون ترقص وتطرب
وتريد تجى الينا
ثم تستحى وتهرب

ثم ظهر أبو الحسن على بن جحدر ، وأبو الحسن سهل بن مالك ، ثم جاء بعدهما الوزير أبو عبد الله ابن الخطيب . واشتهر فى عصر بنى الأحمر الزجال أبو عبد الله الألوشى .

ولقد انتشرت أشعار الموشحات والأزجال الأندلسية فى أوربا نفسها . وليس أدل على ذلك من وجود صلة وثيقة بين تركيب الأزجال والموشحات وقصائد بروڤانس ولنجدوك المنسوبة للشعراء المداحين ، المعروفين بالتروبادور ، أمثال ماركابرو ، وجيوم التاسع دوق أكيتانيا ، والأغانى القشتالية التى تطابق الأزجال فى تكوينها ، أمثال أغانى كنثيو نيرو دى بايينا . ووجدت فى اللغة القشتالية مرادفات للاصطلاحات المستخدمة فى الموشحات — مثل كلمة (Estribillo) وتعنى المركز ، وكلمة (Mudanza) وتعنى الأغصان ، وكلمة (Vuelta) وتعنى السمط .

دكتور عبد العزيز سالم

تأثير الثقافة الأندلسية فى أسبانيا وأوربا

أصبحت اسبانيا — بانتصار المسلمين على الملكية القوطية فى وادى لكة — نقطة التقاء حضارتين متضادتين ، قام بينهما صراع مرير طال أمده ، وانتهى بتفوق احداهما على الأخرى ، فى نهاية القرن الخامس عشر ، عندما تغلب الملكان الكاثوليكيان على غرناطة ، وأطفئت بذلك آخر جذوة لحضارة الاسلام فى الأندلس . وعلى هذا الأساس كانت اسبانيا تنقسم — فى العصور الوسطى — الى شطرين متعاديين منفصلين ، جغرافيا وعنصريا .

وليس معنى هذا أنه لم يكن هناك اتصال بينهما سوى قرعات السلاح ، بل كانت هناك اتصالات أخرى ، وتقاليد مشتركة بينهما بطبيعة الحال ... اذ كانت التأثيرات تتسرب من أكثر هذين الشطرين تقدما فى الحضارة الى أشدهما تأخرا — كالماء يندفع من أعلى المناطق الى أشدها انخفاضا — وذلك عن طريق المستعربين والمسالمة فى اسبانيا الاسلامية ، والمدجنين ومتنصرة العرب أو الموريسكيين فى اسبانيا المسيحية .

ومثل ذلك أن قرطبة لما أصبحت ، فى عهد الخلافة ، الحاضرة الكبرى لاسبانيا ، وحلية الدنيا ومفخرة العالم . وبلغت فى هذا العهد تطورا عمرانيا لا مثيل له فى دول العالم المعاصرة ، وأحست بتفوق ثقافتها على سائر الثقافات فى الولايات المسيحية باسبانيا ... فرضت هذه الثقافة على قشتالة فى عهد فرنان جنثالث ، وناڤارة فى عهد سانشو البدين ، وتغلغلت التأثيرات الاسلامية فى كيان اسبانيا تغلغلا عميقا بحيث تجلت مظاهرها فى الحياة العامة والتقاليد واللغة والآداب والفنون والفلسفة .

ولم يكن لسقوط الخلافة بقرطبة ، وتفتيت الوحدة السياسية للاسلام فى الأندلس — بقيام دول ملوك الطوائف — أدنى أثر فى اعاقة مجرى هذا السيل من التأثيرات ، بل انه على العكس من ذلك قد أعان على تقويتها . ولا يخفى علينا أن اسبانيا الاسلامية لم تعد -- حتى بعد انتصار المرابطين على نصارى اسبانيا فى الزلاقة عام ١٠٨٦ م ، والموحدين فى الأرك عام ١١٩٥ — كما كانت فى عهد الخلافة القرطبية صلبة قوية ... اذا أخذت رقعة الأندلس تتقلص شيئا فشيئا ، منذ عهد الطوائف ، أمام الدفع السريع للاسترداد المسيحى .

وكان الظن أن تمحى الآثار العميقة التى تركتها الحضارة الاسلامية فى اسبانيا بزوال سلطان الاسلام السياسى وسقوط مدنه الكبرى . ولكننا نشهد نقيض ذلك ، اذ تألفت فى هذه المدن مراكز ثقافية اسلامية ، قوامها العناصر المدجنة أو المسلمون الذين خضعوا للاسبان بعد سقوط مدنهم فى أيديهم . وكانت طليطلة — أولى المدن الاسلامية الكبرى التى سقطت فى أيدى القشتاليين — أهم مراكز المدجنين . فقد ظل القشتاليون ، منذ انتزاعهم لها من أيدى المسلمين حتى طليعة القرن الثالث عشر الميلادى ، يستخدمون اللغة العربية فى معاملاتهم التجارية ووصاياهم ومنحهم ، أو كانوا يستخدمون أسماء عربية ولاتينية فى آن واحد .

وكانت طليطلة على هذا النحو نقطة الالتقاء بين الحضارة الاسلامية فى الأندلس ، والحضارة المسيحية التى حملها الاسبان معهم من شمال اسبانيا . فمن طليطلة ، فى القرن الثانى عشر ، انتشرت العلوم التى تلقاها الاسبان باللغة العربية الى أنحاء أوربا من طريق الكتب التى قام بترجمتها اسبان وافدون . وظلت طليطلة مركزا للثقافة الاسبانية فى عهد ألفونسو الحكيم ، الذى وضع

العلوم والثقافات العربية — وبخاصة الفلسفة والمنطق والطب والكيمياء والفلك — تحت متناول أيدى علماء العالم الأوربى ، وأحاط نفسه بكبار العلماء من المسلمين واليهود .

وقد اشتغل بعض العلماء فى طليطلة بترجمة الكتب العلمية العربية الى اللاتينية ، أمثال دومنجو جنثالث وخوان اسبالنسى . وكان أحدهما يقوم بترجمة هذه الكتب الى لغة دارجة فينقلها الآخر الى اللاتينية المدرسية . وقام بالترجمة أيضا فى طليطلة أجانب ممن جذبتهم شهرة كنوزها العلمية . وأمضى هؤلاء العلماء سنوات طويلة فى ترجمة النصوص العربية ، ونخص بالذكر منهم جيراردو دى كريمونا الايطالى — وكان أعظم المترجمين اتناجا — وأديلاردو دى باث الانجليزى ، وهرمان الألمانى .

وتابع بعض علماء اليهود ترجمة الكتب العربية الى اللاتينية فى القرن الثالث عشر ، نذكر منهم : يعقوب بن أباماري ، وليفى بن خرسون . وانتقلت هذه الترجمات الى الثقافات الأوربية . وهكذا أصبحت الحضارة الأندلسية حلقة الاتصال بين الشرق الاسلامى والغرب المسيحى .

تأثير الازجال الاندلسية فى الشعر الغنائى الاوربى

يتجلى أهم مظاهر التأثيرات الاسلامية الاسبانية فى الشعر الشعبى الممثل فى الموشحات والأزجال . وقد بينا ، عند حديثنا عن الموشحات ، أن أصل هذا النوع من الشعر يتمثل فى الأغنية الشعبية التى كانت شائعة فى الأندلس ، وأهم عنصر فيها هو « الخرجة » ، وهى بيتان تنتهى بهما الأغنية ، وكان الوشاحون يصوغونها فى لغة دارجة أو فى ألفاظ رومانسية .

وأول من تنبه الى وجود تماثل فى تركيب الأبيات وتعاقب القوافى بين الشعر الشعبى الأندلسى وأغانى التروبادور الأكيتانية والبروفنسية ، فى العصور الوسطى ، هو المستشرق الاسبانى « دون خوليان ريبيرا » . وعلى هذا الأساس أقام نظريته فى أن تركيب الشعر الغنائى ، الذى ابتدعه أعمى قبرة وصوره ابن قزمان ، يزودنا بمفتاح السر الذى يفسر تركيب الصور الشعرية فى مختلف النظم الشعرية الغنائية التى عرفها العالم المتحضر فى العصور الوسطى ، الا أنه لم يستطع اثبات نظريته اثباتا أكيدا ، فكان ذلك مثارا للجدل بين الباحثين : فذهب فريق الى تأييدها ، ودحضها فريق آخر .

ومن هذا الفريق الثانى ، العالم البرتغالى « رودريجيس لابا » ، الذى حاول فى كتابه عن « أصول الشعر الغنائى فى البرتغال » اثبات أن التركيبات العروضية كانت معروفة فى أوربا قبل عهد الزجال القرطبى ابن قزمان . وساق لاثبات ذلك أمثلة لأبيات متحدة القافية تتألف من ثلاثة أجزاء وجدها فى شعر القرن الثانى عشر اللاتينى .

وهناك فريق وقف موقفا معتدلا بين الفريقين . وعلى رأس هذا الفريق عالمان من أجل العلماء فى الدراسات البروفنسية ، هما : « أبيل » الألمانى و « جانروى » الفرنسى . ويرأس فريق المؤيدين لنظرية التأثير الأندلسى فى الشعر البروفنسى المؤرخ الاسبانى الكبير « دون رامون مننداث بيدال » الذى شرح نظريته فى كتابه « الشعر العربى والشعر الأوربى » ، ونقض بها حجج خصومه ، واستشهد بأمثلة للشعر العربى موجودة فى الشعر الجليقى يتضمنها كتاب « الأرثبرست دى هيتا » المعروف بكتاب (Buen amor)

ويعتقد « مننداث بيدال » أن الزجل الأندلسى انتشر فى الغرب الأوربى بالسرعة نفسها التى

انتشر بها فى الشرق العربى . ويستند فى ذلك الى أن أول شاعر غنائى معروف ، كتب بلغة رومانسية ، هو جيوم التاسع دوق أكيتانيا ، متبعا فى شعره التركيب العروضى للزجل الأندلسى .

وهناك ناحية جديرة بالذكر هى أن الوشاحين المسلمين فى الأندلس ، والتروبادور فى آكيتانيا وبروڤنس ، يتفقون فى الموضوعات التى تقوم عليها أغانيهم . فكانت تقوم اما على الحب العذرى واما على الحب الحسى والمدح ... فأزجال ابن قزمان تتماثل فى هذا مع بعض أشعار التروبادور ماركابرو وفى أغنيات التروبادور والزجالين تتكرر ألفاظ متماثلة ، كلفظ الرقيب والنمام والحاسد والعاذل ، وفيها وصف لما يلقاه العاشق من آلام . ويشترك ابن قزمان مع ماركابرو وجوفرى روديل فى التغنى بالمدح ... كل هذا يدل على مدى تأثر الشعر الغنائى البروڤنسى بالأزجال والموشحات الأندلسية . ويؤيد ذلك ما يذهب اليه بعض الباحثين من أن كلمة تروبادور مشتقة من الكلمة العربية «طرب» .

أما كيف انتقلت هذه التأثيرات الاسلامية ، فيعزوه « ليفى بروڤنسال » الى أن «جيوم» التاسع — أقدم شعراء التروبادور الفرنسيين — كان على اتصال وثيق باسبانيا المسيحية : فقد زار اسبانيا ، وساعد ألفونسو المحارب ، ملك أرغون ، فى معركة كتندة عام ١١٢٠ م ، وأنه تزوج ابنة « راميرو » الراهب ملك أرغون ، وقتل فى « شنت ياقب » عام ١١٣٧ م .

ولا يشك « ليفى بروڤنسال » فى أن التروبادور ماركابرو رحل الى قشتالة ، واشترك مع ألفوسو السابع فى احدى حملاته على اسبانيا الاسلامية . ولا شك أن هؤلاء الشعراء الفرنسيين تأثروا بالشعر الشعبى الأندلسى الذى كان شائعا فى اسبانيا المسيحية . وهكذا تغلغل الشعر الشعبى الأندلسى فى الشعر الغنائى البروڤنسى ، فظهر منذ نهاية القرن الحادى عشر الميلادى فى جنوب فرنسا ووسطها ، ثم انتشر فى شمال شبه جزيرة ايبيريا وايطاليا بعد ذلك .

القصة العربية فى الادب الاوربى

تعد اسبانيا الاسلامية الجسر الذى عبر منه كثير من المظاهر الأدبية الأندلسية الى أوربا فى العصور الوسطى . ويتفق مؤرخو الأدب الأوربى عامة على التأثير الحاسم الذى أحدثه الأدب الأندلسى فى تطور القصة الأوربية فى العصر الوسيط .

ولقد تلقى الأدب العربى كثيرا من القصص الشرقية من الهند وفارس ، ونقلها بدوره الى الأدب الأوربى . وكان « بدرو ألفونسو » — فى طليعة القرن الثانى عشر — أول من نشر فى العالم المسيحى عددا كبيرا من المجموعات القصصية التى تقوم موضوعاتها حول الأمثال والحكم والمواعظ ، وجعل عنوانها (Desciplina Clericales) ، أى « أدب العلماء » .

ويدل على ما أثارته هذه القصص من اهتمام فى العصور الوسطى وجود أكثر من ٦٣ محطوطا من هذا الكتاب محفوظة اليوم ، وكلها مكتوبة بلغات أوربية مختلفة ، كالألمانية والفرنسية والعبرية والايطالية والقطلانية والقشتالية . كما أن موضوع هذه القصص عولج فى أكثر من ٦٠ كتابا فى العصر الوسيط ، وعصر النهضة ، لمؤلفين مشهورين : أمثال « بوڤيه » و « دون خوان مانويل » و « بوكاشيو » و « بوزون » و « شوسر » و « جيرالدى » و « ثرڤنطس » . ويتمثل فى تآليف هؤلاء الأدباء كثير من الموضوعات القصصية التى التى أوردها « بدرو ألفونسو » .

وانتشرت بعد ذلك بعهد قصير المجموعة القصصية التى يتضمنها كتاب « كليلة ودمنة » ، الذى ترجمه ابن المقفع عام ٧٥٧ من البهلوية الى العربية . ولقد ترجم هذا الكتاب الى القشتالية عام ١٢٦١ بأمر الملك ألفونسو الحكيم ، ثم ترجم الى العبرية فى القرن الثالث عشر ، ونقله « خوان دى كابوا » بعد ذلك الى اللاتينية . وعرف هذا الكتاب ، من هذه الترجمة اللاتينية ، فى لغات مختلفة كالألمانية والدنمركية والايطالية والاسبانية .

أما الترجمة القشتالية ، فهى أدق من ترجمة « خوان دى كابوا » ، اذ أنها نقلت مباشرة من العربية بدلا من اللاتينية . وأصبح هذا الكتاب أساسا لما كتب بعد ذلك من قصص فى الشرق والغرب ، فى أكثر من أربعين لغة ، اشتملت على حكم وأمثال تقال على ألسنة الطير والحيوان . ويكفى أن نذكر الكتب الآتية لبيان أثر كتاب كليلة ودمنة فى الآداب الأوربية :

كتاب (Odo de Cheriton)
والقصص الأخلاقية التى كتبها «نيكولاس بوزون »
وكتاب (Speculum Sapientiae beati Cyrelli)
وكتاب (Thetobnla sive animalium de regiis praeceptis con.)
للكاتب « دبراقيوس »
وكتاب (Les fables nouvelles)
للكاتب « ريشيه »
وكتاب (Le Delices)
للكاتب « ڤربوكيه »
وكتاب (Les fables)
للكاتب « لافونتين »
وكتاب « الحيوان » للكاتب « رايموندو لوليو »

وهناك كتاب آخر لقى من الشهرة والانتشار ما لقيه كتاب « كليلة ودمنة » ، هو كتاب « السندباد » . وقد ترجم هذا الكتاب الى اللغة القشتالية بأمر الأمير « دون فدريكى » شقيق الملك « ألفونسو » العاشر عام ١٢٥١ ، وجعل عنوانه « خدع النساء وكيدهن » . وقد وصل هذا الكتاب الى أوربا من طريقين : أحدهما الترجمة القشتالية التى ترجمت عنها عدة ترجمات ، والآخر طريق « التاريخ الفارسى » المعروف بكتاب الوزراء العشرة ، ومنه كانت الترجمة اللاتينية (Liber Septem Sapientium) أو كتاب « العلماء السبعة » الذى ترجم بدوره الى الفرنسية والايطالية والقطلانية والانجليزية والألمانية والهولندية والهنجارية .

وعرفت اسبانيا المسيحية كتاب « ألف ليلة وليلة » من طريق الأندلس . فقد وردت بعض قصصه فى « المدونة العامة لتاريخ اسبانيا » التى وضعها « ألفونسوالحكيم » ، منها قصة «تيودورة الحسناء » التى أخذ منها المسرحى الاسبانى «لوبى دى فيجا» فى احدى مسرحياته الكوميدية . وتنعكس فى مسرحية « كلدرون دى لابركا » ، قصة « النائم اليقظ » . ويمكننا أن نشاهد قصة « الحصان المسحور » فى مسرحية (Clamoles y Clarimunda) وقصة «قمرالزمان» فى الرواية الشعبية (Pierres de Provenza y la Linda Magalona) ويذهب « منندث بيلايو » الى أن هاتين القصتين الأخيرتين نقلتا الى الأدب الأوربى شفاها أيام الحروب الصليبية ، وان كان وجود مخطوطات اسبانية تشتمل على قصة « قمر الزمان » تدحض هذه النظرية .

ومما يدل على أن كتاب « ألف ليلة وليلة » كان شائعا فى الأندلس فى العصر الاسلامى ، أن الموريسكيين سجلوا بعض قصصه باللغة الخميادو التى كانوا يكتبون بها ، ومن هذه القصص قصة « قصر الذهب » ، و « مدينة اللاطون » ... كما يمكننا اليوم أن نتعقب بعض قصص من نوع قصص شهر زاد فى اللغة الاسبانية ، ففى قصة « الغيور العجوز » التى كتبها « ثرفنطس » نجد الموضوع نفسه الذى نسجت حوله قصة « القاضى وابنة التاجر » . وفى الأسطورة الشعبية التى أوحت الى « ثوريليا » بذكرياته فى مدينة بلد الوليد ، شبه كبير بقصة تدور حول عدالة السماء .

وليس الأمر وقفا على القصص الاسبانية ، وانما نرى لكتاب « ألف ليلة وليلة » صدى فى القصص الأوربية تسبق الترجمة الفرنسية التى قام بها « جايان » فى بداية القرن الثامن عشر . ففى « رحلة براندان للبحث عن الجنة » نطالع قصة الجزيرة المتحركة التى ظهر أنها حوت ضخم ، وقصة الطيور الضخمة التى تشبه الرخ . وفى قصة شميد الألمانى ، المعروفة باسم (Das Schloss in der Hutt xa-xa) وقائع مماثلة لقصة « علاء الدين والمصباح السحرى » .

وكان للقصص العربية أثر كبير فى ذيوع كثير من القصص فى الأدب الأوربى ، مثل : مجموعة « ألف قصة وقصة » ، و « أساطير عربية » التى نشرها « رينيه باسيه » ، وتشتمل على خمسة وستين موضوعا قصصيا .

وانتشر فى أوربا ، فى العصر الوسيط ، نوع من القصص التاريخية تختلط فيه الحقيقة بالخيال على نحو ما جمعه « هيرودوت » عن مصر . وقد ترجم فى هذا الصدد كثير من القصص العربية عن « الاسكندر ذى القرنين » .

الملحمة وأصلها الأندلسى

قام المستشرق « دون خوليان ريبيرا » ، عام ١٩٤٣ ، بشرح نظريته التى ذهب فيها الى أنه ظهرت فى كتب التاريخ الأندلسى القديمة « آثار ملاحم رومانسية ، لعلها ازدهرت فى الأندلس فى القرنين التاسع والعاشر » . وذكر أنه وجد فى بعض القصائد الأندلسية فى الوصف ، وفى بعض المدونات العربية ، كثيرا من الأساطير والقصص الشعبية ، كتب بعضها باللاتينية ، وبعضها الآخر يؤلف جزءا من التراث القومى الذى كان شائعا بين الاسبان بالرومانسية . فقصة « أرطباس » ، وأسطورة « ازراق بن منتيل » — اللتان ذكرهما ابن القوطية فى كتابه « تاريخ افتتاح الأندلس » — هما قصتان تنطبقان على حقيقة واقعة ، تنشأ منها أسطورة شعرية ، تضمنتها المدونات التاريخية بعد ذلك مع بعض التغيير .

وتتميز هذه الملاحم بأنها تروى حوادث قريبة العهد نسبيا ، فهى لا تزال تحتفظ بحرارة الصراع الذى كثيرا ما ينشأ بين أبطالها ، كما تستخدم شخصيات تاريخية ، وتحتشد فيها أخبار فى الفروسية ، كالمبارزة بين بطلين مثلا . وملحمة « السيد الكنبيطور » تصور مغامرات السيد تصويرا تاريخيا ، على نحو السير التاريخية ، منذ غادر قريته وحارب فى صف المستعين ، ملك سرقسطة ، من ١٠٨١ الى ١٠٨٧ م . ومن المعالم العربية فى هذه الملحمة : كلمة (Mio Cid) المشتقة من الكلمة العربية « سيدى » ، وزجر السيد للطير — وهى عادة عربية — والألفاظ العربية الكثيرة المتكررة .

وملحمة « أبناء لارا السبعة » مثل آخر من أمثلة التداخل بين الحياة المسيحية والاسلامية فى الأندلس . فالبطل فيها عربى أبوه مسيحى ، وأمه

مسلمة ، زعمت القصـــة أنها أخت المنصور بن أبى عامر .

وشاع بين الموريسكيين نوع من القصص يدور حول بعض الشخصيات الغرناطية فى بلاط ملوك بنى الأحمر . مثل قصة « زفرة العربى الأخيرة » ، وقصـة « ابن سراج وشريفة الجميلة » . وفيهـا يتنافس المعسـكران المسيحى والمسـلم فى ابداء الكرم ، واظهار روح الفروسية النبيلة . وقد وضع « بيرث دى هيتا » كتابا عن هذا الموضوع سماه « الحروب الأهلية فى غرناطة » ، وصاغه فى أسلوب قصصى روى فيه أخبارا ووقائع تاريخية تتخللها أشعار روماسية . وقد ترجم هـذا الكتاب الى الفرنسية فى النصف الثانى من القرن السابع عشر ، واتخـذ كثير من الكتـاب الفرنسيين من بعض الشخصيات الغرناطية المذكورة فيه أبطالا لقصص ومسرحيات : مثل قصة شاتوبريان عن « آخر بنى سراج » ، وقصص « وشنطن ارفنج » عن أساطير قصر الحمراء .

أثر الفلسفة الاندلسية فى الفكر الاوربى

ذكرنا من قبل — عند حـديثنا عن الحيـاة العقلية فى الأندلس — كيف ترجمت كتب ابن مسرة وابن طفيل وابن رشـد وابن باجة الى اللاتينية . وذكـرنا أن مراكـز الترجمـة كانت تنحصر فى مدرسـة قطلونية فى القرن العـاشر ، وأشـهر مترجميها الراهب « جربرتو » ، ومدرسة طليطلة ابتـداء من القـرن الثـانى عشر ، ومن أشـهر مترجميهـا « دومنجو جنثالث » ، المعـروف بدمنيكوس جندسالقى و « خوان هسبالنسى » وانضـم الى هذه المدرسـة كثير من المترجمين الأوربيين الذين وصلت الى أسماعهم ما تزخر به طليطلة من فـرائد الكتب العربيـة فى العـلوم والفلسفة ، ومن هؤلاء « خيرازدو دى كريمونا » الايطالى و « اديلاردو دى باث » وغيرهما .

وهكذا بدأ اتصـال الفكر الغـربى الأوربى بالفلسفة العربية منذ القرن الثالث عشر من طريق هذه الترجمات . وفى هذا القرن امتزجت نظريات الفلسفة الاغريقيـة بالفلسفة الاسلامية والعقائد المسيحية . وكان لشروح ابن رشد وتعليقاته أكبر الفضل فى اتصال المدرسيين بالفلسفة الاغريقية . كما عرف المدرسيون كتب ابن باجه وابن طفيل وغـيرهما ممن يغلب عليهم مذهب الأفلاطونيـة الحديثة .

وقد تجلى هـذا الأثر فى كتاب « الفريدوس انجليكوس » (De Motu Cordis) وفيـه تظهر بعض الاتجـاهات النفسية العربية . كذلك عرف « اليخاندرو دى هالس » علم « الميتافيزيقا » عند الغزالى وابن سينا . وكان « جييرمو دى أوڤرينا » يعرف كثيرا عن الفلسفة الاسلامية ، اذ قرأ عن الفارابى وابن رشد ، وجعل من ابن رشد « أنبل وأعظم مثال للفلاسفة » .

وكان « البرتو ماجنو » أول من أدخل العلوم العربية فى فلسفة المدرسيين . ويشير فى موسوعته الفلسفية الى المامه بآراء فلاسفة المسلمين . وكان كثير الاعجاب بهم ، وذكر أن كتب الفلك الاسلامية ليس فيها ما يناقض العقائد الكاثوليكية على عكس ما يذهب اليه من لم يطالعها . وقد بلغ به التأثر بطريقة ابن رشـد أن كتب تعليقات على كتـاب أرسطوطاليس فى السياسة . فليس عجيبا اذن أن يلم تلميـذه « سانتو توماس دى اكينو » (توما الأكوينى) بالفلسفة الاسلامية الماما تاما .

وكان حظ ابن رشد عظيما فى أوربا المسيحية ، لكثرة ما نشر من مؤلفاته باللاتينية ، وفقا لما ذكره

ريناًن . وظلت آراؤه تضىء الفكر الانسانى حتى نهاية القرن السادس عشر . وظهر الى جانبها مذهب جديد ، يعرف بالمذهب الرشدى ، وهو مذهب أخذت به المدرسة الفرنسسكانية ، ودافعت عنه ، وعلى رأسها « روجر بيكون » و « سيجر دى برافانت » فى جامعة باريس . ويقوم المذهب الرشدى على نظريتين أساسيتين : احداهما نظرية المخادعين الثلاثة ، وفيها يهاجم الأديان الثلاثة اليهودية والمسيحية والاسلام . والثانية نظرية الحقيقتين ، وهى نظرية لاهوتية فلسفية ، لعلها اشتقت من آراء محيى الدين بن عربى .

وترتبط آراء محيى الدين بن عربى ، ومذهبه الفلسفى ، ارتباطا وثيقا بآراء علمين من أعلام الفكر الانسانى فى القرن الرابع عشر : أحدهما « دانتى » فى كتابه « الكوميديا الالهية » وكتابه « الحياة الجديدة » . وقد استوحى « دانتى » ، فى كثير من العناصر التى تؤلف قصيدته الخالدة ، قصة الاسراء والمعراج . والآخر «ولوليو» فى كتابه « أسماء الله المائة » ، وكتابه عن الحيوان ، وكتاب « الصاحب والمحبوب » ، وكلها كتب يتجلى فيها أثر التصوف والفلسفة الاسلامية .

تأثير اللغة العربية فى اللغة الاسبانية

كان لا بد أن تتأثر اللغة الاسبانية باللغة العربية فى أثناء العهد الاسلامى الطويل ، الذى تفوقت فيه ، من حيث الاستعمال ، على سائر اللغات الاسبانية . ويتجلى هذا التأثير بأوضح صورة فى آلاف الألفاظ العربية التى يزخر بها قاموس اللغة الاسبانية ، والتى تشهد بما كان بين المسلمين والمسيحيين من صلات وثيقة ، فى جميع نواحى الحياة ، نتيجة طبيعية لمعاشرة المستعربين للمسلمين والمدجنين للمسيحيين .

ولا تقتصر هذه الألفاظ على العلوم التى ذكرناها آنفا — كالطب والفلسفة والرياضة والفلك والكيمياء والموسيقى — وانما تتجاوز ذلك الى الحياة الاجتماعية والسياسية ، والتقاليد العسكرية ، ونظم الزراعة والتجارة والصناعة والعمارة والعمران . وهى أبلغ سجل خلدت فيه الحضارة الأندلسية .

أسماء الأنهار والمواضع :

الوادى الكبير	Guadalquivir
وادى الأبيار	Guadalaviar
وادى الحجارة	Guadalajara
القلعة	Alcala
القليعة	Alcolea
قلعة وادى أيره	Alcala de Guadaira
قلعة أيوب	Calatayud
قلعة رباح	Calatrava
الجزيرة الخضراء	Algeciras
شقر (جزيرة)	Alcira
طريف (جزيرة)	Tarifa
يابسة (جزيرة)	Ibiza
بسطة (مدينة)	Baza
المدور (مدينة)	Almodovar
البسيط (مدينة)	Albacete
الدويرة	Aldovera
حصن القصر	Aznalcazar
حصن الفرج	Aznalfarache
مدينة الزهراء	Medina Azzahra
مدينة سالم	Medinaceli
بلدة	Belda
بلد الوليد	Valladolid
المعدن (مدينة)	Almaden
قلعة الحرة	Calahorra
جبل طارق	Gibraltar
جبل فارو	Gibralfaro
جبل العيون	Gibraléon
الشرف (منطقة)	Aljarafe
الغرب (منطقة)	Algarve
المرية (مدينة)	Almeria
الحامة (مدينة)	Alhama

الحجار (مدينة)	Alejar
قصر أبى دانس (مدينة)	Alcacer do sal
الرصيف (بمدينة قرطبة)	Arrecife
بنى بشير (حصن)	Benamexir
فحص رعين	Zafarraya
قرية	Alqueria
شارقة (مدينة)	Jerica
سوق	Zoco
سوق الدواب	Zocodover
الحمراء (اسم قصر)	Alhambra
الخندق (اسم موضع)	Alhandega
الشرقية (اسم حى من قرطبة)	Ajarquia
فحص	Vega
الحوز	Alfoz
ضيعة	Aldea (Daya)
ربض	Arrabal
درب	Adarve
زنيقة	Zonaica

الألفاظ الخاصة بالزراعة والرى :

ساقية	Acequia
ناعورة	Noria
الجب	Aljibe
منية	Munya
الروضة	Rauda
البركة	Alberca
السد	Azud
جنة العريف (موضع)	Generalife
الرياض	Arriate

أسماء الزهور والفواكه :

الياسمين	Jazmin
الريحان	Arrayan
البرقوق	Albaricoque
سوسنة	Azucena
الخزامى	Alhucema
النارنج	Naranjo

أسماء المأكولات والبقول :

الأرز	Arroz
الباذنجان	Berenjenas
الترمس	Altramuces
المجبنات	Almojabanas
الزيت	Aceite
اللوبيا	Alubia
الزعفران	Azafrán
الخروب	Algarroba
السكر	Azucar
الزيتون	Aceituna

أسماء المؤسسات الاقتصادية والدينية :

الطاحونة	Atahona
دار الصناعة	Atarazana
المخزن	Almacen
القيسارية	Alcaiceria
الفندق	Alhondiga
الديوان الجمركى	Aduana
مدرسة	Mederza
رباط	Rabita
مسجد	Mezquita

الألفاظ الشائعة فى العمارة والزخرفة :

البناء	Albanil
العريف	Alarife
القبة	Alcoba
الطوب	Adobe
المنارة	Alminarete
المنار	Alminar
سقف سماء	Zaqui Zami
بنيقة العقد	Albanega
تربيعة العقد	Atarabea
الربع المحيط بالعقد	Arraba
الازار الزخرفى	Alizar
الافريز الزخرفى	Alfiz
البربخانة	Barbacana
البكرة (فى الأبراج)	Albacara
الستارة (الحائطية)	Citara
برج الطليعة	Atalaya
برج البرانى	Albarrana
الغرفة	Algorfa
الغرفة العليا (المصرية)	Mazaria
التوريق	Ataurique
التوشية	Ataujia

الترصيع	Ataracea
السطح	Azotea
المقربص	Almocarabe
أسطوان الدار	Azaguan
جائزة السقف	Jacena
ضبة الباب	Aldaba
زرقون	Azarcon
نزلة (فى الزخرفة)	Nacela
تشبيكة	Tabique
اكليل زخرفى	Alecrim
سقاية	Azacaya
شماسة	Ajimez
قنطرة	Alcantara

المنسوجات والمفروشات :

البرنس	Albornos
الازار	Alizar
المئزر	Almaizer
الستارة	Acitara
القطن	Algodon
المخدة	Almohada
الحمرة (سجادة)	Alfombra
الجبة	Chupa
السراويل	Zaragüelles
الخفاف	Alifafes

آلات الطرب :

العود	Alaúd
الطنبور	Tambore
الدف	Adufe
الطبل	Atabale
البوق	Alboque
القيثارة	Guitarra

ادوات المطبخ :

المهراس (الهاون)	Almirez
السطل (الدلو)	Acetre
الربع (كيل الزيت)	Arrope

دكتور عبد العزيز سالم

أثر الفلسفة العربية فى أوربا

قامت العلاقات الثقافية بين العرب وأوربا المسيحية عن طريقين : أولهما طريق اسبانيا ، والثانى طريق صقلية ومملكة نابلى . وقد ارتبطت ترجمة المؤلفات العربية الى اللغة اللاتينية باسم العالم اللاهوتى « ريمون » ، الذى كان رئيس أساقفة طليطلة من سنة ١١٣٠ الى سنة ١١٥٠ ميلادية . وفى طليطلة كان المسلمون يعيشون جنبا الى جنب مع المسيحيين . وكان وجودهم فى عاصمة الملك ومقر رئيس الأساقفة مما دفع جيرانهم الى الاهتمام بالحياة الثقافية العربية والاسلامية . وفى طليطلة أسس « ريمون » ديوانا للترجمة ، مهمته ترجمة أمهات الكتب العربية . فنقل الديوان باشراف « جنديسالينوس » (المتوفى سنة ١١٥١) ، ومن بعده « جيرار دى كريمونا » (المتوفى سنة ١١٨٧) ، كثيرا من الترجمات العربية لمؤلفات « أرسطو » ، وكثيرا من مؤلفات الفارابى ، وابن سينا ، وابن رشد .

وكان من أثر نقل المؤلفات العربية الى اللاتينية أن بذل مجهود فكرى جديد من المؤيدين والمعارضين ، فامتدت آفاق النظر عند الغربيين ، وأصبح للفكر العربى عندهم أثر بعيد .

ولعل الفارابى ، وابن سينا ، وابن رشد ، كانوا أكبر فلاسفة العرب أثرا فى الفكر الغربى .

من المسلم به الآن لدى الباحثين الغربيين أن الفارابى كان له أثر كبير فى فلسفة العصور الوسطى ، فقد ترجم كتابه « احصاء العلوم » الى اللغة اللاتينية ، وأصبح فى المدارس المسيحية ، كما كان فى المدارس الاسلامية ، من المؤلفات التى لا يستغنى عنها . فقد أفاد منه « روجر بيكون »

(١٢١٤ — ١٢٨٠) ، و « جيروم دى مورافيا » (النصف الأول من القرن الثالث عشر) . وقد بين العلامة « فارمر »[١] فى بحث طريف عن « أثر العرب فى الموسيقى » أن لكتاب « احصاء العلوم » قيمة كبيرة عند المشتغلين بنظرية الموسيقى عند الأوربيين ، وأن منفعة الكتاب الحقيقية انما هى فى توجيه انتباه الغربيين الى العلوم العربية ، التى أقبل عليها طلاب المعرفة منهم ، وجدوا فى تحصيلها ، والاستزادة منها ، وخلص « فارمر » الى أن كتاب المعلم الثانى قد ساق الباحثين الذين تقاطروا من أنحاء الدنيا الى اسبانيا الاسلامية — على حد تعبيره — لينهلوا من معين المؤلفات العربية فى الموسيقى ، على أيدى رجال مثل الكندى والفارابى وابن سيناء وأبى الصلت وابن رشد . ومن الثابت أنه قد كان لاحصاء العلوم فى أوربا المسيحية أثر عظيم فى اثارة الاهتمام ببحث تقسيم العلوم بوجه عام ، ونظرية الموسيقى بوجه خاص .

ويبدو مما بينه الباحث « دنن بركفسكى » فى كتابه عن « اسبينوزا » ، أن الفارابى فى القرون الوسطى أثرا كبيرا على مفكرى اليهود الذين ترجموا كتبه الى اللغة العبرية ، وأقبلوا على دراستها والانتفاع بها . ويبدو كذلك أن هذا الأثر قد امتد الى العصور الحديثة من طريق بعض علماء الدين من اليهود مثل : « موسى بن ميمون » ، و « بن جرسون » ، حتى وصل الى فيلسوفهم « اسبينوزا » فى القرن السابع عشر . والواقع ان من يقرأ مقدمة رسالة اسبينوزا « عن اصلاح الذهن » يسترعى انتباهه التشابه الواضح بين هذا الكتاب وبين كتاب الفارابى المسمى « فيما ينبغى أن يقدم قبل تعلم الفلسفة » . ان تتابع الأفكار فى الكتابين واحد ، والباعث الى التفلسف فيهما واحد كذلك ، بل ان المقصد الأخير فيهما واحد ، وهو معرفة الله « للتشبه به بمقدار طاقة الانسان » ، على حد تعبير الفارابى . ونظرية النبوة عند « اسبينوزا » تكاد تكون هى عين نظرية النبوة عند الفارابى .

ولا عجب فى أن يجد « اسبينوزا » فى مذاهب فلاسفة الاسلام التى ذكرها أساتذة اليهود ، ماكان يعوزه عند أبناء دينه ، من مثل « بن جرسون » و « كرسكاس » و « ابراهام بن عزرا » .

وما كاد ينقضى قرن واحد على الترجمات الأولى للمؤلفات العربية ، حتى كان الرأى قد استقر عند الافرنج على اختيار فلسفة ابن سينا ممثلة « للفلسفة الاسلامية » : فقد ترجم « جنديسالينوس » كتاب « الشفاء » الى اللاتينية وترجم « جيرار دى كريمونا » كتاب « القانون فى الطب » ، فأصبح كتابا مدرسيا ، يعول عليه فى مختلف الكليات الأوربية من القرن الثالث عشر حتى القرن السابع عشر . وبهذا الكتاب ارتفع شأن ابن سينا فى الغرب واتسع نطاق نفوذه ، حتى جعله الشاعر « دانتى » فى منزلة بين « ابقراط » و « جالينوس » ، وذهب « اسكالينجر » الى أنه قرين جالينوس فى الطب ، ولكنه أسمى منه مرتبة فى الفلسفة ..

وقد بين الأستاذ « جيلسون » فى سلسلة من البحوث الممتعة ، مدى الأثر الذى كان لابن سينا

---

(١) ان « دى مورافيا » قد عرض للفارابى فى فصل من رسالته عن الموسيقى ، كما عرض له فى فصل خاص عنوانه « تقسيم الموسيقى عند الفارابى » . وقرر ان دى مورافيا نقل فى هذا الفصل كل ما كتبه الفارابى عن الموسيقى فى كتابه « احصاء العلوم » . ولا ننسى أن نذكر فى هذا المقام « ريمون لول » المتصوف المسيحى الذى عاش بين سنتى ١٢٣٥ — ١٣١٥ م ، وكان من المشتغلين بالدراسات العربية . وقد أشار فارمر كذلك الى باحث آخر اسبانى معاصر لريمون لول ، وهو « يوحنا الزامورى » ، وذكر انه استعار هو ايضا تعريف الفارابى للموسيقى .

فى الفكر الأوربى فى العصور الوسطى المسيحية ، كما أوضح الصلات الوثيقة بين الفيلسوف الاسلامى واللاهوتيين المنتمين الى مذهب « القديس أوغسطين » ، وقرر أن الفلسفة الغربية فى القرن الثالث عشر عبارة عن مختلف المواقف من أرسطو وابن سينا وابن رشد : يأخذ « الأوغسطينيون » من الأفكار الجديدة طائفة يكملون بها مذهبهم مع شىء من التأويل ، وينبذون طائفة أخرى . يأخذون عن ابن سينا اشراق « العقل الفعال » ، الا أنهم يضيفون لله المعانى التى يضيفها ابن سينا لعقل فلك القمر . واقترح « جيلسون » أن يطلق على هذا التيار الفكرى فى أوربا اسم « الأوغسطينية النازعة الى السينوية » .

وبعد « جيلسون » أقبل الباحثون الغربيون على هذا الموضوع الخطير ، فتوسعوا فيه وتناولوا مفكرين « مدرسيين » لم يكونوا أوغسطينيين ، فجاء الأب « دوفو » ونشر سنة ١٩٣٤ بحثا عن « السينوية اللاتينية » فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، وبين فيه أن اللاهوتيين المسيحيين النازعين الى السينوية كانوا يغترفون من منهل الفيلسوف الاسلامى ، ويتخذونه مصدرا لالهامهم . وحاول « دوفو » أن يثبت — مستعينا بنصوص من ذلك العهد — أنه قد وجد أيضا من المفكرين من كانوا يتابعون فلسفة ابن سينا حتى فى المواضع التى تخالف العقيدة المسيحية ، وبعبارة أخرى ، حاول أن يثبت أنه الى جانب اللاهوتيين المسيحيين وجد مفكرون آخرون اعتنقوا مذهب ابن سينا ، وصرحوا بآراء سينوية مخالفة للعقيدة المسيحية ، وهؤلاء هم الذين أطلق عليهم الأب « دوفو » اسم « السينويين اللاتينيين » .

فاذا تساءلنا عن سبب ما كان لابن سينا من حظوة عند المسيحيين ، أجاب الأب « دوفو » أن ابن سينا كان فيلسوفا كبيرا وأستاذا ملهما ومفكرا مبتكرا : يمتاز فكره بالاصالة وتعبيره بالوضوح . وهذا الابتكار والوضوح هما مجلى عظمة الفيلسوف الاسلامى . والواقع أن ابن سينا كان تلميذا لأرسطو ، لكنه كان تلميذا مجددا . وهذا التجديد نفسه هو موضع الاعجاب عند المسيحيين فى أمرين على الخصوص : لقد سكت أرسطو عن الكلام فى أصل الكون ، ولم يتحدث عن الله الا قليلا ، فوجدوا ابن سينا قد كمله بعناصر مستقاة من الأفلاطونية الجديدة : فأفاض فى الكلام عن الله والملائكة والخلق والخير والعناية ، بل ان ابن سينا حاول التوفيق بين العقل والايمان ، وهو الأمر الذى كان يشغل بال المدرسيين ، لأنه كان مسلما متمسكا بدين يتفق مع تعاليم المسيحية فى كثير من الأمور ، فلم تكن أرسطيته الممزوجة بالأفلاطونية الجديدة باعثة على اعادة التفكير فى معانى « الخلق » و « العناية » فحسب ، بل انها تركت مكانا لعقائد مثل بعث الأجساد ، أو عذاب الملعونين . وقد كان من شأن هذه الخصائص أن تجعل فلسفة ابن سينا قريبة الى قلوب المسيحيين . ويبدو أنهم وجدوا فى آراء الفيلسوف المسلم ما كانوا يطلبون : فالعالم الذى يتصوره ابن سينا فيه للانسان مكان ، فهو على حدود الأرواح والأجسام — كحاله عند أرسطو — ولكن الجديد هو أن ذلك العالم يصدر عن علة أولى فاعلة : واذن فللعالم تاريخ ، والله فى أصل العالم . واذا كان ابن سينا يرى أن العالم قديم ، وأن علة الخلق هى الصدور — مما يتعارض مع العقيدة المسيحية — الا أن آراءه قد سدت ثغرة عند أرسطو ، وكان يبدو عليه سمات قرابة من مذهب بعض المسيحيين مثل « دينيس » . وكذلك نظرية المعرفة عند ابن سينا : وجدوا فيها كل نظرية أرسطو عن النفس ،

مضافا اليها أشياء عن الحواس الباطنة ، وفى الوقت نفسه حسمت تردد آراء أرسطو فى « العقل الفعال » : فقد قرر ابن سينا أن العقل الفعال واحد . وأنه « مفارق » للمادة ، وأنه هو العقل المحرك للفلك الأقصى . وكان يكفى أن يقول قائل ان هذا العقل المفارق هو الله ، لكى تقبل كل نظرية ابن سينا فى النفس وتنتظم فى فلسفة مسيحية : وهذا هو الحل الذى أدلى به « روجر بيكون » .

وأول مفكر مسيحى تأثر بابن سينا ، هو « جنديسالينوس » رئيس ديوان الترجمة فى اسبانيا . كتب رسالة فى النفس ، بدأ فيها من ابن سينا وانتهى بأوغسطين . وقد اقتبس براهين ابن سينا عن وجود النفس ، مبينا أنها جوهر لا عرض ، وأنها خالدة وروحية ، واقتبس من ابن سينا أيضا رمزه المشهور المسمى رمز « الرجل المعلق فى الفضاء » ، الذى لا صلة له بالعالم الخارجى ، ولكن فكره يكشف له أنه ذات مفكرة ، وأنها موجودة . وهو ينقل نص ابن سينا الذى قال فيه : « ارجع الى نفسك ، وتأمل ... وهل تغفل عن وجود ذاتك ولا تثبت نفسك ... ولو زعمت أن ذاتك قد خلقت أول خلقها صحيحة العقل والهيئة ، وفرض أنها على جملة من الوضع والهيئة لا تبصر أجزاؤها ، ولا تتلامس أعضاؤها ، بل هى منفردة ومعلقة لحظة فى هواء طلق ، وجدتها قد غفلت عن كل شىء الا عن ثبوت انيتها » .

وهذا الرمز قد ذكره كثيرون من مؤلفى العصور الوسطى المسيحية ، ولذلك كان من الممكن أن يكون « ديكارت » قد اطلع عليه ، فكان له صدى فى تأملاته ولا سيما أن « الكوجيتو » الديكارتى قريب منه ومؤيد له . والكوجيتو الديكارتى ، كما هو معلوم ، يبين أن الذات — وهى التى أثبت صاحبها وجودها حين غفل عن كل شىء سواها — مختلفة عن بدنه ، وأن ادراكه لنفسه ومعرفته بوجود انيته لا يحتاج الى بدن ، والنفس ندركها ادراكا مباشرا ومعرفتها أيسر من معرفة البدن .

ولعل ما يشهد بأثر ابن سينا عند المسيحيين فى العصور الوسطى ، تلك الحملة العنيفة التى رفع لواءها « جيوم الاوفرنى » (المتوفى سنة ١٢٤٩) لمقاتلة أرسطو وأتباعه (يعنى بهم الفارابى وابن سينا والغزالى) . وهذا اللاهوتى يذكر ابن سينا فى كتبه حوالى أربعين مرة ، معارضا أقواله تارة ، ومقتبسا تعريفاته وأمثلته تارة أخرى . يأخذ تعريف ابن سينا للحق بأنه ما يكون فى الذهن مطابقا لما هو عليه خارج الذهن ، ويقتبس من ابن سينا تفرقته بين « الماهية والوجود » كما يقتبس تدليله على أن النفس تدرك ذاتها بذاتها دون حاجة الى البدن ، وهو ذلك الدليل الوارد فى « الشفاء » و « الاشارات » والذى ذكرناه باسم رمز « الرجل المعلق فى الفضاء » .

لكن الصورة التى رسمها ابن سينا للعالم بالعقول المفارقة والنفوس المحركة للكواكب لا يقبلها « جيوم الأوفرنى » . وبالاجمال يمكن أن يقال انه يعارض ابن سينا فى مسائل نذكر منها : القول بأن العالم قديم ، أى ليس له بداية فى الزمان ، وأنه عن الله صدر عقل أول صدورا ضروريا ، ولم يصدر عنه سوى ذلك العقل ، وأن باقى العقول صدرت على التوالى ، كل عن الذى قبله ، وأن العقول عشرة فقط ، وأن العقل الفعال جوهره « مفارق » ، وهو العقل المفارق للفلك الأقصى ، وأن العقل الفعال هو العلة الخالقة للنفوس الانسانية ، وأن سعادة النفوس الانسانية فى اتحادها بالعقل المفارق . ويكفى أن نقرأ ثبت هذه المسائل لنلاحظ أن جميعها على وجه التقريب يمكن أن يشترك فيها ابن رشد مع ابن سينا ،

ولكن يبدو أن « الأوفرنى » كان ينسبها لا الى ابن رشد الذى لم يكن معروفا لديه ، بل الى ابن سينا خاصة . وقد بين « جيلسون » أن مذهب « الأوفرنى » فى النفس يقوم على المذهب السينوى بعد أن نزعت عنه نظرية ابن سينا فى العقل الفعال المفارق للمادة .

ومن معاصرى « جيوم الأوفرنى » لاهوتى اسمه « اسكندر الهاليسى » الذى ألف كتابا فى اللاهوت يعيننا على أن نتبين أثر ميتافيزيقا أرسطو وميتافيزيقا ابن سينا : نجده لا يذكر الا كتب ابن سينا ، مع أنه اطلع أيضا على آراء ابن رشد ، وينسب الهاليسى الى ابن سينا اكتشاف قوة نفسية جديدة هى التى تسمى « المتوهمة » .

وحسبنا أن نذكر ما قاله جيلسون عن روجر بيكون من أنه ، يمثل تمام التمثيل « الأوغسطينية النازعة الى السينوية » . ولكنه لم يكن شاهدا فحسب على ذلك النفوذ الذى كان لابن سينا على كثير من مؤلفى ذلك الحين ، بل يعيننا أيضا على أن ندرك كيف كان بعض أولئك يتابعون ابن سينا متابعة تتجاوز حدود التفكير المسيحى فى كثير من الأحيان .

ويضيق المقام عن سرد جميع مقابسات « روجر بيكون » عن ابن سينا ، ويكفى أن نذكر أن أهمها متعلق بمشكلة المعرفة الانسانية ، وقد بين جيلسون أن نظرية « بيكون » فى الأشراق تابعة لنظرية ابن سينا فى العقل الفعال المفارق .

فاذا انتقلنا الى « القديس توماس الأكوينى » (١٢٢٥ — ١٢٧٤) وجدناه يشارك ابن سينا فى التمييز بين « الماهية والوجود » ، ولكى يثبت ذلك التمييز يأخذ من ابن سينا تحليله لفكرة الماهية ، وهى فى المخلوقات ممكنة وليست ضرورية (« واجبة ») . أما الموجود الوحيد الذى هو « واجب الوجود » فهو الموجود الذى ماهيته عين وجوده (أى الله) . وقد سلك « الأكوينى » فى التدليل على وجود الله مسلك ابن سينا ، والدليل الثالث عنده دليل سينوى ، لأنه قائم على التفرقة بين « الواجب » و « الممكن » ، بل ان الدليل « الأنطولوجى » المشهور — دليل القدس « أنسلم » (١٠٣٣ — ١١٠٩) — يرجع مصدره الى مؤلفات ابن سينا . غير أن توماس « الأكوينى » يأخذ على ابن سينا مسائل منها : أنه قصر علم الله على الكليات دون الجزئيات ، فأضاف الى الله معرفة ناقصة بالوجود ، وأبطل عنايته ... وقد كانت نظريات ابن سينا عن الوجود منتشرة فى القرن الثالث عشر ، حتى أننا نجد اقتباسات منها ، فى تعليقات « ايكارت » (١٢٦٠ — ١٣٢٧) على كتاب « الحكمة » . ومنذ ذلك الحين ثبت مركز ابن سينا فى الغرب .

أما « روجر بيكون » فهو يمثل تمام التمثيل ما سماه « جيلسون » باسم « الأوغسطينية النازعة الى السينوية » . كان يرى فى ابن سينا أعظم قادة الفكر العربى ، وثانى فيلسوف بعد أرسطو وقد أعجب بيكون بما وجد عند الفيلسوف الاسلامى من قوة التدليل على خلود النفس ، والسعادة الأخروية وبعث الأجساد والخلق ووجود الملائكة .

الحق لقد أضاف ابن سينا الى الثروة الفلسفية والعلمية اضافات جعلته من مفاخر الانسانية المفكرة .

فاذا ما انتقلنا الى ابن رشد وجدنا أن الاعجاب بشروحه لفلسفة أرسطو كان عظيما فى أوربا حتى سماه « دانتى » ، « الشارح الأكبر » . ومن المشهور أن مدرسة « بادوا » بايطاليا كانت تنتمى الى مذهب ابن رشد ، وأن « سيجر دو برابان »

كان زعيم المدرسة الرشدية فى فرنسا ابان القرن الثالث عشر . ولقد ظل المذهب الذى نسب الى ابن رشد متدارسا عند الأوربيين فى الكتب وفى الجامعات ، من منتصف القرن الثالث عشر حتى أوائل القرن السابع عشر . ويجد الباحث فى فلسفة « اسبينوزا » أن موقف ذلك الفيلسوف الحديث من مسائل الفلسفة والدين والوحى والنبوة يشبه الموقف الذى سبقه اليه الفارابى وابن رشد . ولعل « اسبينوزا » عرف شيئا من نظريات المسلمين عن طريق « موسى بن ميمون » ، وعرف فلسفة ابن رشد خصوصا عن طريق الطبيب اليهودى « يوسف دل ميديجو » أحد أنصار المدرسة الرشدية فى القرن السابع عشر .

ولا بد أخيرا أن نشير الى فضل الفلسفة العربية على الفلسفة اليهودية ، وحسبنا هنا أن نذكر أن كتب أرسطو لم تنقل الى اللغة العبرية ، وأن اليهود قنعوا فى معرفتها بما كتب المسلمون من ملخصات وشروح . ولقد تبين للباحثين الغربيين أن أصحاب اللاهوت من اليهود قد ساروا خطوة خطوة فى اثر فلاسفة الاسلام ، وأن المفكرين الذين سبقوا موسى ابن ميمون مدينون بمنهجهم وآرائهم فى الدين لفلاسفة المسلمين ، وأن كتاب « دلالة الحائرين » لموسى بن ميمون ، وان يكن حافلا بنقد آراء الاسلاميين ومحاولة تفنيدها والرد عليها ، الا أن قارىء الكتاب يجد فى كل صفحة منه ما يشهد شهادة قاطعة بأهمية الفلسفة الاسلامية وبعد أثرها فى الفكر اليهودى .

وبعد فما نحب أن يتسرب الى وهم أحد من الناس أننا ننتحل الأسباب للاشادة بفضل المسلمين على غير حق . فالواقع أن كل ما أوردناه هنا فى ايجاز شديد انما هو مقتبس من شهادة علماء الغرب فى العصور الوسطى وفى عصرنا هذا . وهى شهادة تقطع فى جملتها بأن ثقافة الغرب قد استفادت بقسط موفور من المواد التى قدمها اليها مفكرو الاسلام .

ومتى درست مذاهب فلاسفة الاسلام حق دراستها ، ومتى نشر ما لم ينشر من آثارهم ، كان لنا من ذلك نور يهدينا الى تبين ماللفلسفة الاسلامية من منزلة جليلة فى تراث الانسانية الفكرى .

ان فلاسفة الاسلام قريبون منا وما زالوا يحيون فينا . ولن نتخلص من تاريخنا مهما ننكره ، كما لا يستطيع الانسان أن ينخلع عن حياته السابقة مهما يحاول أن ينسى ماضيه .

دكتور عثمان امين

النظم السياسية بالأندلس

الخلافة :

كان بنو أمية يتلقبون بالامارة ، منذ أن استقر أمر عبد الرحمن بن معاوية بالأندلس عام ١٣٨ هـ ، حتى تولى الأمير عبد الرحمن بن محمد فى عام ٣٠٠ هـ . ولم يقدم الأمراء من بنى أمية ، خلال هذه الفترة ، على التلقب بلقب الخلافة : لاحساسهم بأن الخلافة وحدة لا تتجزأ ، وأنه لايجوز أن يلقب بها الا من يكون الحجاز فى حوزته .

فلما تولى الأمير عبد الرحمن بن محمد امارة قرطبة ، واستقرت دعائم امارته ، ورأى ماوصلت اليه الخلافة العباسية بالمشرق من ضعف وانحلال ، واستبداد القواد الأتراك — فى عهد المقتدر العباسى — وعبثهم بالخلفاء بالعزل والقتل . ورأى أن أئمة الفاطميين قد تلقبوا بالخلافة ، وأصبحوا يهددون الأندلس ، ويعدون العدة لضمها اليهم ، وأنه لايقل عنهم كمالا فى القوة والمنعة ، وأثرا فى الدفاع عن الاسلام ، وفى المثاغرة والجهاد ...

لما رأى عبد الرحمن ذلك كله ، أمر فى ٢٨ من ذى القعدة عام ٣١٦ هـ ، أن تكون الدعوة له فى مخاطباته ، والدعاء له على المنابر بأمير المؤمنين ، « لما استحقه من هذا الاسم الذى هو له بالحقيقة ، ولغيره بالانتحال والاستعارة . فلبس هذا الاسم ، فى هذا الوقت ، حلة لائقة بمنصبه ، وتراثا راجعا اليه » . وتلقب عبد الرحمن بالناصر لدين الله أمير المؤمنين ، وأصدر منشورا وزعه عماله فى النواحى المختلفة ، وقد جاء فى المنشور ما يلى :

« بسم الله الرحمن الرحيم . صلى الله على نبيه محمد الكريم . أما بعـد : فان أحق من استوفى حقه ، وأجدر من استكمل حظه ، ولبس من كرامة الله تعالى ما ألبسه ... فنحن : للذى فضلنا الله به ، وأظهر أثرتنا فيه ، ورفع سلطاننا اليه ، ويسر على أيدينا دركه ، وسـهل بدولتنا مرامه ... وللذى أشاد فى الآفاق من ذكرنا ، وأعلى فى البـلاد من أمرنا ، وأعلق من رجاء العـالمين بنا ، وأعاد من انحـرافهم الينـا ، واسـتبشارهم بما أظلهم من دولتنا ... ان شاء الله . فالحمد لله ، ولى الانعام بما أنعم به ، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه ...

« وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين ، وخروج الكتب عنـا ووردها علينـا كذلك . اذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له ، ودخيـل فيـه ، ومتسم بما لا يستحقه منـه . وعلمنا أن التمادى على ترك الواجب لنا من ذلك ، حق لنا أضعناه ، واسـم ثابت أسـقطناه . فمر الخطيب بموضعك أن يقول به ، وأجر مخاطبتك لنا عليه ، ان شاء الله » .

وفى أول ذى الحجة شرع الخطيب بقرطبة فى دعائه للناصر لدين الله بامرة المؤمنين . فكانت أول خطبة تسمى فيها عبـد الرحمن بن محمد بهـذا الاسم . وهكذا تحولت الامارة فى الأندلس الى خلافة . واستمر هذا اللقب فى ذرية عبد الرحمن الناصر حتى سقوط الدولة الأموية . فعند ما تطرق اليها الضعف ، فى عهد هشام المؤيد بالله ، تولى محمـد بن أبى عامر الحجابة ، وأصبح الحاكم الحقيقى فى الأندلس . أما الخليفة فقد انزوى فى قصره ، ولم يبق له من الخلافة سوى الاسم .

ولما سقطت دولة ابن أبى عامر ، تولى الخلافة أمراء من بنى أمية ، قتل منهم من قتل ، وعزل من عـزل ... حتى انقـرضت الخـلافة الأموية من الأندلس . واستقل كثـير من الولاة فى مدنهم ، وقامت دويلات الطوائف ، وتلقب ملوكها بألقاب الخلافة وتوزعوها : فمنهم من تلقب بالنـاصر والمنصور والمقتدر والمعتضد ، ومنهـم من تلقب بالمعتصم والمظفر والمتـوكل والمعتمد . وفى ذلك يقول ابن شرف الشاعر :

مما يزهـدنى فى أرض أندلس
أسماء معتمد فيها ومعتضـد
ألقـاب مملكة فى غير موضـعها
كالهر يحكى انتفاخا صورة الأسد

أما ملوك المرابطين فقـد اكتفوا بلقب « أمير المسلمين » — وهو دون الخلافة — فى حين تلقب ملوك الموحدين — منـذ عهـد عبد المؤمن بن على — بلقب « أمير المؤمنين » ، وتسموا بالأئمة المعصومين ، اشارة الى مذهبهم فى عصمة الامام وتنزهه عند أتباعه . واتخذ ملوك بنى نصر لقب « سلطان » ، وكان نظام الحكم فى عهدهم مطلقا .

الوزارة :

كانت قاعدة الوزارة فى الأندلس ، فى عهد بنى أمية ، مشتركة فى جماعة يعينهم الخليفة لاعانتـه ومشاورته فى شئون الدولة . ولم يكن اطلاق لفظ

الوزير ، فى بداية الدولة الأموية ، شائعا كما كان الحال فى الدولة العباسية فى المشرق ، والدولة الفاطمية فى مصر . اذ كان خلفاء بنى أمية يأنفون من اسم الوزير فى مدلوله . ثم قسموا خطته أقساما ، وأفردوا لكل قسم وزيرا : فجعلوا لحسبان المال وزيرا ، وللترسيل وزيرا ، وللنظر فى حوائج المتظلمين وزيرا ، وللنظر فى أحوال أهل الثغور وزيرا .

وكان الأمير عبد الرحمن الأوسط أول من اتخذ للوزراء فى قصره دارا للوزارة ، ورتب اختلافهم اليه فى كل يوم : يستدعيهم معه أو من يختص منهم ، أو يخاطبهم برقاع فيما يراه من أمور الدولة ... كل فيما جعل له . وأفرد للتردد بينه وبينهم واحدا منهم : ارتفع عنهم بمباشرة الأمير أو الخليفة فى كل وقت ، فارتفع مجلسه عن مجالسهم ، وخصوه باسم الحاجب حينا ، وذى الوزارتين حينا آخر . وكان الحاجب — على هذا النحو — نائبا عن الوزراء لدى الخليفة ، أو رئيسا لهم ، كما هو الحال فى وقتنا الحاضر . وكانت هذه الوظيفة أعظم ما تنوفس فيه فى عهد بنى أمية . وكان الخليفة عبد الرحمن الناصر أول من طبق لقب ذى الوزارتين على وزيره أحمد بن عبد الملك ابن شهيد ، باعتباره جامعا بين خطتى السيف والقلم .

ولما كانت دولة الموحدين ، خص الخلفاء منهم لقب الوزارة للكاتب المتصرف المشارك للسلطان فى خاص أمره : كابن عطية ، وعبد السلام الكومى . وكان للوزير مع ذلك النظر فى الحساب والأشغال المالية ، ثم صار بعد ذلك اسم الوزير لأهل نسب الدولة من الموحدين .

وفى عهد بنى نصر أصبحت الوزارة تسند عادة الى كبار الكتاب ، أمثال أبى الخطيب وابن زمرك . وكان الوزير يشرف على جميع شئون السلطنة ، ويوجه سياستها الداخلية والخارجية على السواء . ويذكر ابن خلدون أن بنى نصر أنشأوا وظيفة جديدة : هى وظيفة وكيل السلطان ، ويختص بحسبان المال وتنفيذ أوامر السلطان .

الحجابة :

كان اختصاص الحاجب فى عهد بنى أمية واسعا ، يشتمل على الشئون المدنية والعسكرية . وكان — بالاضافة الى هذه الوظيفة — واسطة بين الخليفة ووزرائه يقوم بملازمة الأمير ومباشرته ... لذلك كانت هذه الخطة أعظم الخطط قدرا ، وغاية ما يرجوه كل وزير .

ثم ارتفع شأن الحاجب فى أواخر عهد بنى أمية ، وأخذ يستبد شيئا فشيئا بأمور المملكة ... فبرز من الحجاب : الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى ، الذى ارتقى الى هذا المنصب الكبير زمن الحكم المستنصر ، وقام بتدبير شئون الدولة الأندلسية . وفيه يقول الفتح بن خاقان فى المطمح : « تجرد للعليا ، وتمرد فى طلب الدنيا ، حتى بلغ المنى ، وتسوغ ذلك الجنى ، ووصل الى المنتهى ، وحصل على ما اشتهى ... دون مجد تفرع من دوحته ، ولا فخر نشأ بين مغداه وروحته : فسما دون سابقة ، ورمى الى رتبة لم تكن لنفسه مطابقة ، فبلغ بنفسه ، ونزع عن جنسه ... واستوزره المستنصر ، وعنه قد كان يسمع وبه يبصر . وحجب الامام ، وأسكب برأيه ذلك الغمام ... » .

ثم ظهر المنصور محمد بن أبى عامر الحاجب ، وارتفع شأنه واستبد بشئون الخليفة هشام المؤيد ، فمنع الوزراء من الوصول اليه ، الا فى النادر من الأيام ، يسلمون وينصرفون . وأورث ابن أبى عامر

الحجابة لأولاده ، من بعده ، حتى سقطت الدولة العامرية عام ١٠٠٨ م .

فلما كان عهد ملوك الطوائف ، انتحلوا لقب الحجابة الى جانب ألقاب الخلافة . وكانوا يعدون لقب الحجابة شرفا لهم . وكان لا بد من ذكر لقب الحاجب وذى الوزارتين قبل ذكر أسمائهم . ومن أمثال هؤلاء الملوك : الحاجب ذو الرياستين أبو مروان عبد الملك بن رزين ملك السهلة ، وذو الرياستين المنصور بالله أبو الوليد محمد بن جهور ملك قرطبة .

خطة القضاء :

كانت خطة القضاء فى الأندلس أعظم الخطط عند الخاصة والعامة ، لتعلقها بأمور الدين ، واستقلالها عن الخلافة . ولا يقوم بأعباء هذه الخطة الا من ولى القضاء الشرعى فى المدن الكبرى . وكان القضاء ينقسم الى شرعى ومدنى :

(ا) القضاء الشرعى : كان القاضى الشرعى يختار من بين أفاضل الناس ، وأحسنهم سيرة ، وأوسعهم علما ، وأرجحهم عقلا وذكاء . وكان قاضى الجماعة ينظر فى المواريث والوصايا والتحجير والأحباس ، كما كان يقوم بامامة الناس فى صلاة الجماعة .

وكان قاضى الجماعة لا يقضى الا فى قرطبة ، وكان ينيب عنه فى الأقاليم قضاة آخرين ، فى حين كانت لقاضى الجماعة ، فى الدولة العباسية ، الرياسة على القضاة جميعا . وظل منصب قاضى الجماعة أرفع مناصب القضاء فى الدولة الأندلسية ، منذ عهد بنى أمية حتى عصر دولة بنى نصر . وكان قاضى الجماعة فى غرناطة ، فى عهد بنى نصر ، يجمع بين وظيفته فى القضاء الشرعى وبين امامة المسلمين فى الصلاة والخطبة .

(ب) القضاء المدنى : وكان يشتمل على أربع خطط : صاحب الشرطة ، وصاحب المدينة ، وصاحب المظالم ، والمحتسب .

صاحب الشرطة :

كانت المسائل السياسية والجرائم وغيرها تسند لصاحب الشرطة . فكان من اختصاصه حفظ الأمن ، وتنفيذ الأحكام التى يصدرها القاضى والتى يصدرها هو . ولم يكن منفذا لهذه الأحكام فحسب ، بل كان يتولى الاتهام والتحقيق ، ويقيم الحد دون أن يتدخل القاضى فى أحكامه . ويشبه فى ذلك قاضى الجنايات الشحصية فى عصرنا الحاضر .

وكان صاحب الشرطة يعرف عند العامة بصاحب الليل ، لمحافظته على الأمن فى العاصمه والأقاليم ، ومطاردته المجرمين وأهل الفساد . وكانت خطته تسمى أيضا خطة الطواف بالليل ، لأنه كان يبعث العسس والدرابين فى الأزقة والشوارع والدروب للقبض على اللصوص ومنتهكى القوانين .

صاحب المدينة :

وكان يجمع بين يديه سلطة كبرى عند غياب الخليفة ، وسلطته فى هذه الحالة تعد سلطة مطلقة . واختصاص صاحب المدينة فيه غموض ، اذ أنه قد يجمع أحيانا بين وظيفته ووظيفة الشرطة . ويشبه صاحب المدينة المحافظ فى وقتنا الحاضر .

صاحب المظالم :

هى وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء ، وتحتاج الى علو يد وعظيم رهبة : فهى تقمع الظالم من الخصمين وتزجر المعتدين . وكان صاحب المظالم يمضى ما عجز القضاة عن امضائه ، لأن سلطته تفوق سلطة القاضى . وتقابل وظيفة

صاحب المظالم وظيفة قاضي الاستئناف فى أيامنا هذه . وكان صاحب المظالم يختار من أفاضل الناس ، وأعلاهم مكانة فى المجتمع . وكان يحيط به حماة وأعوان وفقهاء وكتاب وعدول .

المحتسب :

هى وظيفة ملحقة بالقضاء لأن فيها حكما . وكان المحتسب يسير بنفسه فى الأسواق ، ومعه أعوانه يحملون الموازين والأكيال الصحيحة ، فيدس المحتسب أحد أعوانه على البائعين ، ويختبر وزن السلعة أو كيلها ... فان وجد به نقصا ، جرس البائع ، وضربه بالسياط فى الأسواق .

وكان اختصاص المحتسب يتجاوز المبيعات الى جميع شئون المجتمع الأندلسى . اذ كان يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ويحث على عدم الغش والتدليس ، ويحمل الناس على اتباع الخير . وكان يمنع الناس من تحميل الحيوانات ما لا تطيق ، ويمنع معلمى الصبيان فى المكاتب من ضرب الأولاد ، ويحكم على أصحاب المبانى المتداعية ، ويمنع التسول بصوره المعروفة ... اذ أن فى ذلك كسلا عن الكد ، والكسل مستقبح فى الأندلس . وكان يشترط فيمن يتولى وظيفة الحسبة أن يكون من المشهورين بالعلم والمعرفة والذكاء ، فيختار من بين القضاة لأن عمله مرتبط بالقضاء .

الجيش :

كان الجيش الأندلسى ينقسم الى فرق ، على كل منها أمير يحمل راية . وكانت الفرق تنقسم بدورها الى كتائب ، على كل منها قائد يحمل علما ، وتنقسم الكتائب الى أقسام أخري فرعية . وكان ينقسم ، من حيث الأسلحة ، ثلاثة أقسام : مشاة ويتسلحون بالرماح الطويلة والتراس والسيوف ، ورماة ويحملون القسي والسهام ، وفرسان ويتسلحون بالمزاريق والسيوف ويلبسون الدروع . وكان الجنود يلبسون على رءوسهم مغافر تشبه الخوذات أو البيضات الصقلبية . وكان الفرسان أهم ما فى الجيش من قوة ، اذ كانوا يؤلفون القوة الضاربة السريعة الحركة التى تقوم بالحصار والتطويق . ومن فرسان الأندلس المشهورين : أبو عبد الله بن مردنيش ، ومما اشتهر به أنه كان يدفع فى مواكب النصارى ، ويشقها يمينا ويسارا منشدا :

أكر على الكتيبة لا أبالى
احتفى كان فيها أم سواها

وكان أكثر الجيش الأندلسى ، فى عهد بنى أمية ، من العرب والصقالبة والجنود المرتزقة . فلما جاء المنصور بن أبى عامر ، استكثر من البربر والصقالبة وأضعف من العرب ... لأنه رأى ألا يعتمد على العنصر العربى .

وكانت قيادة الجيش من أهم المناصب فى الأندلس بسبب الصراع الطويل الأمد بين المسلمين والمسيحيين ، منذ الفتح الاسلامى للأندلس حتى سقوط دولة الاسلام فيها وقد برز من قواد الأندلس فى عهد الولاة : السمح بن مالك الخولانى الذى استشهد فى سبتمانيا عام ١٠٣ هـ ، وعنبسة ابن سحيم الكلبى الذى استشهد فى أرض فرنسا عام ١٠٧ هـ ، وعبد الرحمن الغافقى الذى قتل فى موقعة بلاط الشهداء على بعد ٧٠ كيلو مترا جنوبى باريس ، وهي الموقعة الحاسمة التى تحدد بها ملك المسلمين حتى جبال البراس .

وكان من أعظم قواد بنى أمية : عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث ، وأخوه عبد الكريم بن عبد الواحد فى عهد هشام بن عبد الرحمن ، والحكم ابن هشام ، والأمير عبد الرحمن الأوسط . ومنهم

القائد أبو العبـاس أحمد بن أبى عبـدة فى عهد الناصر لدين الله ، وغالب الناصرى مولى الحكم ، وأحمـد بن يعلى ، ويحيى بن محمد التجيبى ، وقاسـم بن مطرف بن ذى النون فى عهد الحكم المستنصر .

أما المنصور بن أبى عامر فقد تولي قيادة الجيش الأندلسى بنفسه ، وجدد فى تنظيم الجيش ، فأدخل فيه فرقا من الجنـود المرتزقة من كل جنس حتى يضمن زوال العصبيات والتناحر الجنسى بين مختلف عناصره ، وصار يغزو فى كل عام غزوتين : واحدة فى الشتاء ، والأخرى فى الصيف ، طوال سنى حكمه ، كما كان يفعل عبد الرحمن من قبل حين كان يبعث البعوث والصوائف كل عام فى قلب اسبانيا المسيحية ، فيهدم حصونها ، ويدمر قلاعها ، وينسف سهولها . وقيل ان المنصـور غزا اثنتين وخمسين غزوة ، لم تنكس له فيها راية ، ولم ينكب فى حرب شهرها ، وما انصرف عن موطن الا قاهرا غالبا .

وكان من أعظم قواد المرابطين فى الأندلس : سير ابن أبى بكر ، والأمير يحيى بن واسنو ، ومحمد ابن سعد بن مردنيش . ومن مشاهير قواد الموحدين أبو حفص عمر الهنتاتي ، وأبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن ، والقائد شقاف . وكان خلفاء الموحدين يؤثرون قيادة الجيوش بأنفسهم . وقد قتل الخليفة الموحدى ، أبو يعقوب يوسف ، فى احدى معاركه مع البرتغاليين فى شنترين .

وذاعت فى عصر بنى مرين شهرة كثير من قواد المسلمين : أمثال الثغرى ، وابن العلاء ، وموسى ابن عنان ، وأبو عبد الله الزغل .

الاسطول :

كان لابد للمسـلمين فى الأندلس من اصطناع سياسة بحرية ، رضـوا أم كرهوا ، لأن اسبانيا شبه جزيرة لها سواحل ممتدة طويلة تشرف على البحر الأبيض والمحيط الأطلسى . وكان المسلمون يعتمدون فى صـناعة سفنهم على دور الصـناعة القوطية باشبيلية والجزيرة الخضراء وغيرها . غير أن هذه الدور سرعان ما أصـابها الفساد بمرور الزمن فتعطلت .

فلما هاجم النورمانديون سواحل الأندلس ، فى عهـد الأمير عبـد الرحمن الأوسط ، رأى الأمير ضرورة بناء دار للصناعة ، وتكوين أسطول أندلسي يدافع عن سواحلها . وقد أقيمت أول دار لصناعة الأسطول فى اشبيلية ، ولحقتها دور أخرى لصناعة الأسطول فى المرية ومالقة وطركونه ولقنت وميورقة وأشبونة . وتكون أسطول ضخم استطاع أن يهزم النورمانديين .

وكان لقيام الدولة الفاطمية بشـمال افريقيا ، ومنافستها للدولة الأموية بالأندلس ، وامتلاكها لأسطول ضخم تهدد به سواحل الأندلس ، أثر كبـير فى دعم حركة بناء الأسـطول فى الأندلس فى عهد عبـد الرحمن الناصر . وقد كان لهـذا الأسطول الفضل الأول فى تحويل هجوم الفاطميين على مصر بدلا من الأندلس .

وقد تقدمت صناعة الأسطول فى عهد الموحدين ، ونبغ فى قيادته قواد عظام ، أمثال : ابن الرماس ، وأبى عبد الله بن ميمون . وكان الأسطول الأندلسى يتسلح بقاذفات اللهب ، وهى عبارة عن آلات يندفع منها نفط يحرق ما يصادفه . وكان لهذا النفط أثر كبير فى اختراع بنى نصر لمدافع البارود . وكانت السفن الحربية تعرف فى الأندلس باسم الشوانى والأجفان . أما السفن العادية ، الخاصة بالنقل ، فتسمى بالغراب .

دكتور عبد العزيز سالم

فتوح العرب فى أوربا

للغرب فضل عظيم على الحضارة الحديثة ، لا يمكن تجاهله أو اغضاء النظر عنه . وقد أدى اتصال العرب بالغرب الى انعكاس الحضارة العربية على أوربا ، مما كان له أبعد الأثر فى تطور الفكر العالمى .

ويرجع اتصال العرب بأوربا الى العصور القديمة فى التاريخ . بيد أن سلطان العرب اتسم بطابع الغزو منذ فتح الأندلس فى العصر الأموى ... اذ حاول العرب ، فى العقد الثانى من القرن السابع الميلادى ، غزو اسبانيا من ناحية افريقيا ، فشنوا غاراتهم على الشواطىء الاسبانية فى عهد الامبراطور القوطى « ڤمبا » (٦٧٢ — ٦٨٠ م) .

وعندما تمكن موسى بن نصير من فتح بلاد المغرب ، فكر فى غزو اسبانيا . وقد شجعه على هذا العمل الكونت « جوليان » الذى تحالف مع حزب « آخيلا » لنزع « رودريك » — آخر أباطرة الدولة القوطية فى اسبانيا — عن الحكم .

فطلب موسى بن نصير من الوليد بن عبد الملك أن يأذن له فى القيام بحملة على اسبانيا ، فأذن له الوليد فى شىء من التحفظ ، ونصحه بأن يتأكد من صدق نية « جوليان » مخافة أن تصاب جيوش المسلمين بكارثة فى هذه البقاع الفسيحة فى أوربا .

وأرسل موسى بن نصير « طريف بن مالك » على رأس جيش مكون من خمسمائة محارب ، عام ٧١٠ (٩١ هـ) ، لارتياد هذه المناطق . فغزا الجيش الثغور الجنوبية فى بلاد الأندلس ، وعاد بكثير من الغنائم والأسلاب . وقد ناصر « جوليان » جيش طريف بن مالك فى معاركه ، وأمده بكثير من المدد مما حقق له النصر . فشجع هذا الصنيع موسى بن نصير على متابعة الغزو مرة أخرى ، فجند جيشاً لجبا قوامه سبعة آلاف مقاتل ، جلهم من البربر ، وولى القيادة للقائد العربى المشهور طارق بن زياد . وكان طارق فى هذه الآونة حاكما لمدينة طنجة ، واشتهر بالعدل والشجاعة والهمة العالية .

وعبر طارق البحر عام ٩٢ هـ فى سفن «جوليان» ، وألقى مراسيه فى اقليم البحيرة بجنوب اسبانيا ، واستعد لمناجزة عدوه فى عقر داره . وكان الامبراطور « رودريك » فى هذه الآونة مشغولا بقمع الثورة الداخلية التى شبت فى أرجاء البلاد ابتغاء خلعه عن العرش . بيد أنه عند ما أدرك الخطر المحدق به من جانب العرب ، سارع الى تجهيز جيش كبير بلغ عدده زهاء مائة ألف مقاتل ، ونزل به الى ساحة المعركة . ولكن جيش « رودريك » لم يكن منظما متماسكا ، وكانت الروح المعنوية فيه ضعيفة الى حد بعيد ، وكانت الحروب الأهلية قد فتت فى عضده ، فلم يبد ثباتا فى القتال ، وانتهى الأمر بهزيمته هزيمة منكرة أمام جيش طارق بن زياد .

عاد « رودريك » الى تنظيم جيشه ، وحضر اليه كثير من المدد . فلما رأى طارق بن زياد هذه الجموع المتكاثرة من جيش « رودريك » ، طلب من موسى بن نصير أن يمده بعدد من المقاتلة ، فأرسل اليه موسى خمسة آلاف مقاتل . والتقى طارق بجيش « رودريك » على ضفاف وادى نهر « بكة » (Wady Bekka) فى ٩ من يوليو عام ٧١١ م (٩١ هـ) . وطفق طارق يشن هجماته على جيش « رودريك » حتى أسلمه للهزيمة . وعلى اثر انتصاره فى هذه المعركة مضى يزحف على مدن اسبانيا ، فوقعت فى يديه مدن اشبيلية وقرطبة وطليطلة وغيرها من المدن الاسبانية .

ولما ترامت الأنباء الى موسى بن نصير بانتصار طارق بن زياد ، تملكته الغيرة ، لأن فتح الأندلس سوف يكون مقرونا باسم غير اسمه . فجهز جيشا لاتمام هذا الفتح ، حتى يكون له هذا الشرف . وكتب الى طارق بن زياد يأمره أن يقبع فى مكانه ، ولا يتقدم فى زحفه حتى تصل اليه أوامر أخرى . ولكن طارق بن زياد لم يلق بالا الى كتاب موسى ابن نصير ، ومضى فى بلاد الأندلس من نصر الى نصر ، لأنه رأى أن توقف الزحف سوف يمكن الأعداء من معاودة الهجوم على كتائبه ، ويعرض جيشه لخطر داهم ، ويعطى لأعدائه الفرصة للنيل منه ورده على أعقابه .

وعندئذ سارع موسى بن نصير الى التوجه الى الأندلس على رأس جيش لجب فى يونيو عام ٧١٢ (٩٣ هـ) . وأخذ يطوق بجيشه المدن الاسبانية . ففتح اشبيلية مرة أخرى ، وحاصرها شهرا — وكانت قد رفعت راية العصيان على جيش طارق بن زياد — كما فتح غيرها من المدن الاسبانية ، ثم لحق بجيش طارق بن زياد . وعندما التقى بطارق لامه على عدم اذعانه للأمر ، وطالبه بما استولى عليه من غنائم وأسلاب ... بل انه تمادى فى اهانته ، فوضعه فى السجن .

وعز على أنصار طارق بن زياد أن يسجن قائدهم ، وهو الذى حقق هذا النصر المؤزر فى اسبانيا ، فعولوا على انقاذه واخراجه من معتقله . واستطاع طارق بن زياد ، بفضل أنصاره ، أن يتصل بالخليفة الوليد بن عبد الملك الذى بث اليه شكواه . فكتب الوليد الى موسى بن نصير أن يطلق سراحه ، ويرده الى عمله ، ويسند اليه القيادة مرة أخرى .

ونفذ موسى بن نصير أمر الخليفة الوليد ، وسار موسى وطارق معا لفتح شمال بلاد الأندلس ، بعد أن زالت الجفوة بينهما ، ففتحا اقليم أرغونة (Aragon) وقشتالة (Castile) ، واستوليا على برشلونة (Barcelone) وغيرها من المدن الاسبانية حتى بلغا جبال البرانس فى أقصى الشمال فتم بذلك فتح شبه الجزيرة ، عدا تلك الأقاليم الجبلية الواقعة فى الشمال الغربى التى آوى اليها بعض أشراف القوط ، ورجال القبائل الثائرة التى رفضت أن تخضع لحكم العرب فى اسبانيا .

وعول موسى بن نصير — بعد تحقيق هذا النصر المبين — على أن يتوجه بجيشه الى فرنسا ، حتى اذا ما تم له الغزو ، اتجه الى القسطنطينية شرقا . وبذلك يصبح البحر الأبيض المتوسط بحيرة عربية خالصة ، تدين لها شعوب أوربا جميعا بالخضوع والولاء !

وعندما وصلت أنباء هذه المطامع الى الوليد ابن عبد الملك ، أمر موسى بن نصير أن يخفف من آماله ، فالفرصة غير مواتية فى تلك الظروف لتحقيق هذه الآمال العريضة . واستدعى الوليد موسى بن نصير ، وطارق بن زياد . ولكن موسى — قبل رحيله الى دمشق — نصب ابنه عبد العزيز واليا على بلاد الأندلس ، فأظهر من العدل والمساواة ما أقلق خصومه ، فعولوا على الانتقام منه ... ولا سيما أنه ساوى بين جميع طبقات الأمة دون تمييز فى الجنس أو الدين ، وشجع العرب على مصاهرة المسيحيين ، وضرب هو المثل على ذلك ، فتزوج من أرملة « رودريك » التى بقيت على دينها .

ودبرت على اثر ذلك مؤامرة لقتله ، وبعد مصرعه أقام الجند قائدهم أيوب بن حبيب ، ابن أخت موسى بن نصير ، واليا على بلاد الأندلس ، فاتخذ قرطبة عاصمة للبلاد ، وعمل بها بعض الاصلاحات غير أن مدة ولايته لم تطل .

وعند ما تولى حكم الأندلس « السمح بن مالك » (١٠٠ — ١٠٢ هـ) اخترق جبال البرانس ، وزحف على اقليم بروفانس فى فرنسا ، وحاصر مدينة تولوز فترة طويلة ، ولكنه اضطر أخيرا الى الانسحاب .

وعند ما تولى « عنبسة بن سحيم الكلبى » الحكم فى بلاد الأندلس عام ١٠٤ هـ ، وصل الى حوض الرون ، وتوغل فى اقليم برغندية حتى بلغ مدينة « ليون » ، ولكنه اضطر فى النهاية الى التراجع والانسحاب .

وعند ما تولى « عبد الرحمن الغافقى » الحكم فى الأندلس عام ١١١ هـ ، عاد نجم العرب فى الأندلس الى البزوغ والارتفاع ... اذ قام بكثير من الاصلاحات التى رفعت الروح المعنوية للعرب فى هذه البقاع . وجهز جيشا للقتال فى بلاد غالة ، فخرج فى ثمانية آلاف مقاتل ، واستولى على دوقية « أكيتانيا » ، وهى مقاطعة مستقلة جنوب اللوار .

وجمع شارل مارتل جيشا كبيرا اصطدم بالعرب فى معركة « بواتييه » . وهناك دارت المعركة الخالدة — المعروفة فى التاريخ باسم معركة «تور» ويسميها مؤرخو العرب « بلاط الشهداء » — عام ٧٣٢ م (١١٤ هـ) التى أبلى فيها العرب بلاء حسنا ضربت به الأمثال ، وكاد النصر يتوج هامات العرب فى هذه المعركة ، وبذلك يتمكنون من فتح أوربا برمتها ، ونشر الاسلام . بيد أن الدوائر دارت عليهم فى نهاية المعركة الطاحنة ، وأصيب عبد الرحمن الغافقى بسهم أرداه قتيلا ... فانتشرت الفوضى بين الصفوف ، ودبت الفرقة بين النفوس ، وازدادت المطامع فى الاستيلاء على الحكم ، مما بعث الاضطراب فى الجيش العربى ، فاضطر الى التقهقر والانسحاب ازاء هجمات شارل مارتل .

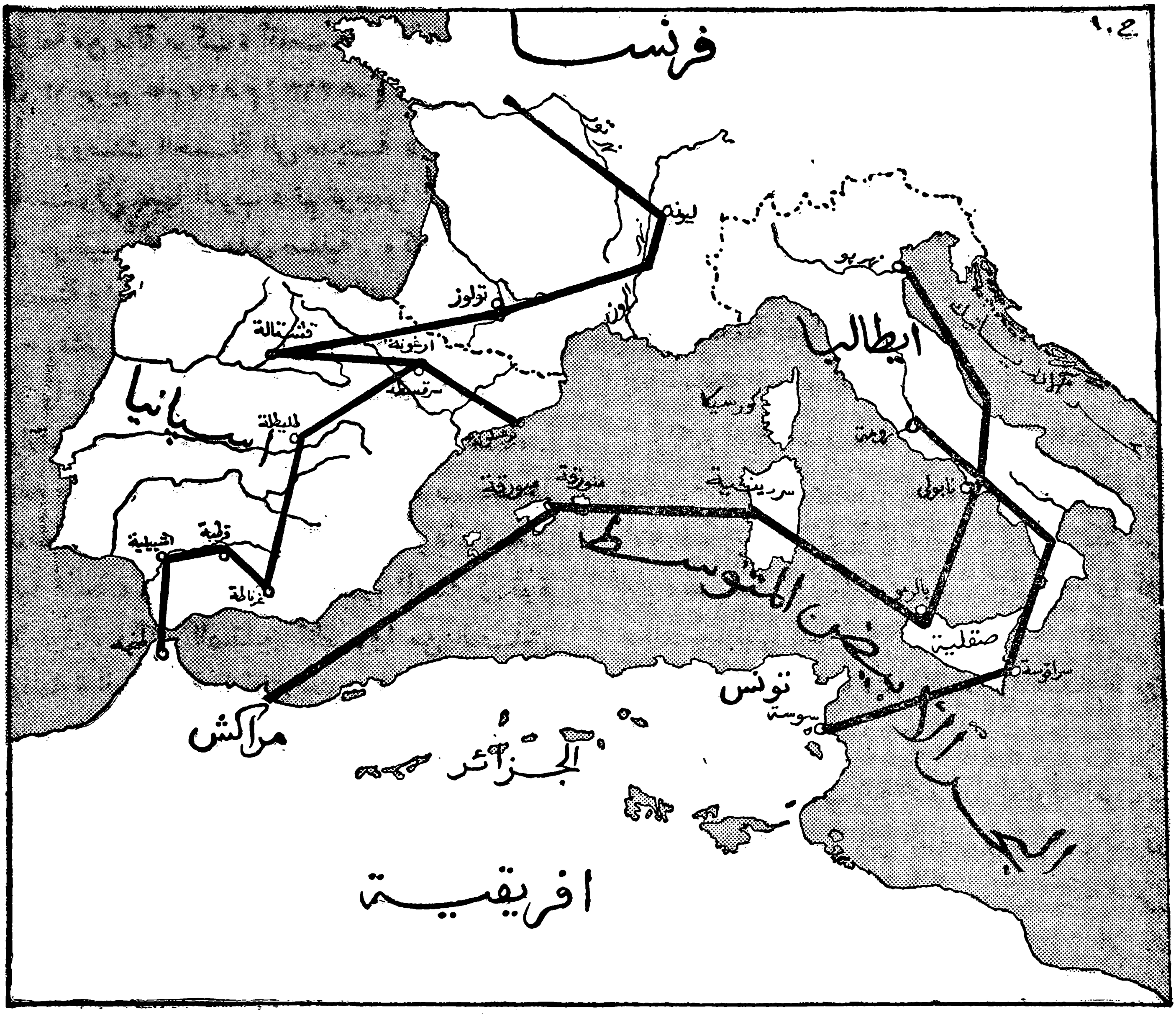
ولولا هذه الهزيمة لتغيروجه التاريخ ، واستطاع العرب أن يمدوا سلطانهم الى بلدان أوربا كافة ، واستطاع الاسلام أن يدخل هذه المناطق .

وقد عمل العرب فى الأندلس على نشر العدل والمساواة ، وازاله الفوارق بين الطبقات . وقد رحبت طبقة العبيد ورقيق الأرض أيما ترحيب بالفتح العربى ، واعتبرته خلاصا لها من نير الاستبداد وربقة الاستعباد ، وفكاكا لها من تلك القيود التى وضعها أسيادها القوط باغين طاغين ظالمين . بل ان بعضهم اعتنق الاسلام ، ونالوا الحقوق التى أتيحت لغيرهم من المسلمين ، وأصبحوا بنعمة الله اخوانا .

وقد اتصل العرب بأوربا عن طريق آخر غير طريق الأندلس . اذ حاولوا دخول أوربا من الجنوب من طريق ايطاليا ، ففتحوا جزيرة صقلية ، وكثيرا من مدن ايطاليا ، حتى حاصروا « رومية » — مقر الحبر الأعظم أو البابا — ولم يحاولوا أن يحولوا كنيستها الكبرى الى مسجد ، كما فعلوا بالجامع الأموى فى الشام أو « أيا صوفيا » فى الاستانة .

وقد اتجهت أنظار العرب الى صقلية ، لأنها تقع فى منطقة متوسطة فى البحر الأبيض ، وتربط الشرق بالغرب عن طريق السفن الرائحة والغادية . وكانت ترسو بها السفن القادمة من صور وقرطاجنة وطرسوس ، وبيزنطة وغيرها .

وبدأت المحاولات فى عهد معاوية بن أبى سفيان ، فقد هم العرب بالغزو عام ٦٦٩ م ، وشن غاراتهم على مدينة « سراقوسة » وغيرها من مدن الجزيرة . ولما عمد موسى بن نصير الى فتح أسبانيا ، أنفذ ابنه عبد الله بجند الى جزائر البحر الأبيض المتوسط ، فغزا ميورقة ، ومنورقة ، وسردينية ، وصقلية ، وعاد بكثير من الغنائم والأسلاب .



خريطة توضيحية تبين خط سير الفتح العربى لأوربا

ويروى فى سبب فتح صقلية أن قائداً من حامية الروم ، اسمه « يوقيميوس » ، أحب راهبة فى بعض الأديرة ، كان قد وقع نظره عليها فى الدير ، فهرب بها ، وتزوجها . فنما خبره الى صاحب القسطنطينية فأحل دمه ، وأمر بقتله . ففكر القائد فى الانتقام ، وشن حملة ثائرة فى الجزيرة ، ورفع راية العصيان . ولكن الدوائر كادت تدور عليه ، ويخفق فى ثورته ، ويقع فى أيدى أعدائه ، وينفذ فيه حكم الاعدام ... فاستنجد بالعرب ، وأرسل الى « زيادة الله » يحرضه على غزو الجزيرة ، كما حرض « جوليان » صاحب « سبتة » موسى بن نصير على فتح الأندلس .

فتردد « زيادة الله » فى اجابة هذا الطلب ، ولكنه آثر أن يستشير أصحابه ، فرجحت كفة أصحابه بالقيام بهذا الغزو ، واحتجوا بأن الروم قد نكثوا المعاهدة المعقودة بين الطرفين . فجهز « زيادة الله » حملة عهد بقيادتها الى « أسد بن الفرات » ، قاضى تونس ، وانضم اليها كثير من قبائل العرب والبربر ، وركبوا البحر فى عمارة

مؤلفة من مائة مركب ، أقلعت من مرفأ « سوسة » فى ١٣ يونيو عام ٨٢٧ م (٢١٣ هـ) .

ووصلت الحملة الى مدينة « مازارا » ، فاستولى عليها العرب ، ثم توجهوا الى مدينة « سراقوسة » أهم مدن صقلية . وكانت مدينة حصينة واسعة الأرجاء ، ممتدة النواحى ، محيطها أحد عشر ميلا ونصف ميل ، وتضم طائفة من الأبراج والحصون المنيعة ، والمعاقل الضخمة ، والأسوار الشامخة التى تضرب فى عنان السماء . وقد صمدت المدينة ازاء هجمات العرب صمودا شديدا ، فطلب أسد بن الفرات المعونة ، فحضر اليه المدد ، واستأنف هجماته على المدينة فى قوة لا تلين . ولكن الصقليين أظهروا من الحذق والمهارة العسكرية ما أقلق جنود المسلمين ... حتى جاع العرب ، وأكلوا لحوم الخيل .

وتحالف المسيحيون فى الجزيرة مع الجنود الأهليين على اخراج العرب ، باشارة من الامبراطور ميخائيل حاكم القسطنطينية . وحدث فى هذه الآونة أن أدركت المنية القائد « أسد بن الفرات » قائد تلك الحملة ، فدبت الفرقة بين صفوف العرب ، واضطروا الى التقهقر والانسحاب .

وهجم العرب بعد ذلك على «كاسترو جيوفانى» — وهو حصن منيع على جبل وعر ، فيه حامية من الروم والصقالبة — فخندق العرب حوله ، وحاصروه ، وفصلوه عن بقية أجزاء الجزيرة ، ونشروا حكمهم فى هذه المنطقة باسم الدولة الأغلبية ، وسكوا العملة بهذا الاسم . وعندئذ ثارت نفوس الصقالبة على العرب ، فرجعوا الى « مينيو » ، واشتد أوار الحرب بين الفريقين عامين كاملين .

ثم جاءت عمارة عربية من الأندلس بقيادة « اصبغ بن وكيل » أمدت العرب بالمعونة والمئونة .

وجهز « زيادة الله » عمارة من ثلاثمائة سفينة ، وعشرين ألف مقاتل لهذا الغرض . وأبحرت هذه العمارة من شواطىء أفريقيا عام ٨٣٠ م (٢١٥ هـ) وقتلت هذه الحملة « ثيودوتس » قائد الروم أمام أسوار « مينيو » . بيد أن الوباء تفشى بين الجند تفشيا ذريعا ، وأصيب كثير من العرب بالهلاك ، فعادت الحملة أدراجها فى أفريقيا والأندلس ، بعد أن تكبدت خسائر فادحة فى الأموال والأرواح .

ولكن شرذمة من جند العرب شنت الغارة على مدينة « بالرم » ، واستطاعت هذه الشرذمة أن تفتحها ، وتجعلها قصبة للحكم ، وتحول الكنائس الى مساجد ، وتنشر وجوه الاصلاح فى كل مكان ... تبنى المنازل والقصور ، وتحفر الترع ، وتغرس الأشجار ، وتنشر العدل والمساواة بين الطبقات .

ثم ما لبث أن دب الخلاف بين الجنود العرب . فادعى جند الأندلس حق الفتح ، وطلبوا أن تكون « بالرم » تابعة لبنى أمية فى الأندلس ، كما ادعى الافريقيون حق الفتح وطلبوا أن تنضوى « بالرم » تحت لواء الأغالبة . وكانت الغلبة للطائفة الأخيرة . فعين « زيادة الله » أميرا من قبله على الجزيرة .

واستولى العرب على « نابولى » فى ايطاليا . وقد أعان أهل « نابولى » العرب على ارتياد شواطىء البحر الادرياتيكى ، ومهدوا لهم سبيل التوغل فى المدن الايطالية . وقد نزل العرب عند مصب نهر « پو » ، وبلغوا أبواب مدينة «رومية» وغيرها من مدن ايطاليا .

وقد قضت صقلية فى سيادة العرب نيفا ومائتى سنة ، بعضها فى دولة الأغالبة ، ثم الفاطميين وغيرهم . واستقل أمراؤها بها حينا ، وتوارثوا حكومتها ، وتنازعوا عليها حتى انقسمت الى مقاطعات ، وشرع كل أمير ينافس غيره فى مقاليد

الحكم ... وكان على سراقوسه وغيرها عام ١٠٦٠ م (٤٥٢ هـ) ابن تمنـــة . وكان على « حصـن كاسترو جيوفانى » ابن حواش فتحاربا ، واشتبك الطرفان فى معارك طاحنة ، أدت الى انهـزام ابن تمنة ، واستيلاء ابن حواش على مقاطعته .

أما سائر ايطاليا فقد ظلت أربعة عشر عاما تحت حكم العرب ، وكان دوقا « مسبوليتو وتوسكانا » ناقمين على البابا ، فتحالفا مع العرب على تجريده من أملاكه ، وظل أحد البـابوات يؤدى الجـزية للعرب عن كرسيه فترة طويلة .

وبعد ذلك شرع نفوذ النورمان يزداد وينتشر ، وطفقوا يتدخلون فى شتى أمور الحكم . وكانوا قد هبطوا من اسكندنافيا فى القـرن التاسـع ، واكتسحوا فرنسا ، وتولوا الحكم فيها زمنـا . وفى القرن الحادى عشر ، ولوا وجوههم شـطر ايطاليا تدفعهم المطامع الجريئة ، والآمال العريضة ، ويعضدهم ضعف الحكم ، وانتشـار الفوضى فى ايطاليا وما حولها من جزر .

ولم ينقض النصف الأول من القـرن الحادى عشر ، حتى أصبحت مقاليـد الأمور فى أيدى النورمان ، وأصبحت سياسة ايطاليا رهن اشارتهم . وكان نفـوذ العـرب فى هـذه الآونة قد بدأ فى التقلص والاضمحلال ، فساعدهم ذلك على نشر نفوذهم فى تلك المنـاطق ، واستولوا على جزيرة صقلية ، ووصلوا مدينة « بالرم » عام ١٠٧١ م (٤٦٤ هـ) . وقد ثبت العرب فى قتـال النورمان ثبـات الأبطال ، وأظهـروا من ضروب البسـالة والشجاعة والاقدام ما أذهل الألباب ... بيـد أن بعض الخونة دلوا النورمان على مواقع الضعف فى جيوش المسلمين ، فشنوا عليها الغارات تلو الغارات حتى وقعت مدينة « بالرم » فى أيديهم بعد حصار عنيف دام خمسة أشهر .

وفتح النورمان ، بعد ذلك ، سراقوسة ، وسلم أهل « كاسترو جيوفانى » الحصن لهم . وفى عام ١٠٩١ م (٤٨٤ هـ) لم يبق للعـرب فى الجزيرة الا « بوترا » و « نوتوا » ، فانتقلتا الى النورمان بتوقيـع احدى المعاهدات بين الطرفين ، وبذلك أسدل الستار على حكم العرب فى هذه الجزيرة .

ثقافة العرب فى أوروبا

أثر اتصال العرب بأوربا فى نشر الحضارة العربية فى هذه الجهات . وقد نبغ من أهل الأندلس عدد كبـير ، نذكر منهم : ابن رشـد ، وابن خلدون وغيرهما ، ممن قربوا مرامى الفلسفة العربية الى افهام الاسبانيين والفرنسيين . وقد سـهل وجود العرب فى أوربا ترجمة كثير من المؤلفات الاسلامية ، فى بخارى والجزيرة والشـام ، ونشرها فى شتى أنحاء أوربا . ويقـول الدكتور فيليب حتى : ان قانون ابن سينا ــ الذى اتخذه أبناء أوربا دليـلا طبيا من القرن الثانى عشر الى القرن التاسع عشر ــ ترجم الى اللغة العبرانية فى « نابولى » عام ١٤٩١ م وطبع بالعربية فى مدينة « رومية » عام ١٥٩٣ ، ثم ترجم الى اللغة اللاتينية . وترجم غيره من مؤلفات ابن سينا فى المنطق والفلسـفة والطبيعة ، وكذلك ترجمت ، قبل ذلك ، معظم تآليف ابن رشد الى اللاتينية ... الا أن ترجمات ابن رشد جاءت بعيدة عن الضبط والاحكام .

ويجب ألا ننسى أن عددا من الفلاسفة والعلماء اليهود : كابن حيوج ، والكمخى اللغويين ، وابن جيرول الشـاعر ، وابن ميمون الفيلسـوف ...

نشـأوا فى الأجيـال الوسطى فى أوربا ، وكانوا عامـلا من عوامل تنبيـه الأفـكار ، وتوجيـه الخواطر الى المعـارف والفنون السـامية . فابن حيوج ولد فى مراكش عام ٩٥٠ م ، ولكنه توطن قرطبة ، وهو الملقب بأبى النحو العبرانى . كذلك عاش ابن ميمون فى قرطبة (١١٣٥ — ١٢٠٤) ، وعاش ابن جيرول والكمخى فى جنوبى اسبانيا : الأول من عام ١٠٢١ — ١٠٧٠ ، والثانى فى أثنـاء القرن الثانى عشر .

أضف الى ذلك أن الحـروب الصليبية — مع شرورها — لم تخـل من فائدة ، اذ أنهـا عرفت الأوربيين بما لأبناء الشرق الأدنى من ذخائر العلوم الرياضية والفلكية والطبية والفلسفية ، وسهلت على الكثير من الافرنج أمر اقتباسـها . زد على ذلك أنه كان من نتـائج تغلب الأتراك عـلى البيزنطيين ، فى القرن الخامس عشر ، جلاء كثير من علماء اليونان الى أوربا ، حيث نقلوا معهم كتبا ومجلدات لا تحصى . وكان كثير من أدباء الطليان يقصدون الاستانة للتزود من علومها ومعارفها ، فعمل سقوط الاستانة على نشر المعارف العربية فى أوربا . وعند ما قامت حركة النهضة فى أوربا ، فى أواخر القـرن الخامس عشر ، كانت قائمـة على ثلاثة عوامل ، هى : فتـوح العـرب فى أوربا ، والحروب الصليبية ، وسقوط الاستانة .

وقد ضرب العلماء العرب بسهم وافر فى الكيمياء ، فلم يأت القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) حتى كانوا يعرفون تقطـير الخـل للحصول على حامض الخليـك المركز ، وذلك بفضـل المواد المتصـاعدة بالتقطير . ومعنى ذلك أن الكيماويين العرب أدركوا أن للسوائل المختلفة درجات غليان مختلفة ، ففتحوا بذلك أمام العالم سرا من أسرار التحليل الكيماوى السليم ، كمـا استعملوا ثانى أكسيد المنجانيز فى صـنع الزجاج ، وجعل لونه نقيـا لا تشوبه الخضرة أو الزرقة التى نعرفها فى الزجاج المصنوع فى ذلك العهد . وقد عرف الجاحظ استخراج ملح الأمونيا من روث الحيوانات بطريقة التقطير الجاف .

وقد اتبع الكيميائيون العرب ، فى أبحاثهم ، منهجا علميا سليما بريئا من الزيف والخـداع . فألف الكندى كتابا ينكر فيه امكان تحويل المعادن الخسيسة الى شريفة ، أو بعبـارة أخرى تحويل النحاس الى ذهب . وقد نقلت كتب الرازى — كما نقلت كتب جابر بن حيان — ومنها تلقى الأوربيون تقسيم المواد الكيماوية الى نباتيـة وحيوانيـة ومعدنية ، وتقسيم المواد المعدنية أدق تقسيم عرف فى القرون الوسطى . ولعل التـاريخ الأوربى لم يتأثر بشىء من كشوف العرب فى المعدنيات ، كما تأثر بكشف البارود واستخدامه فى قذائف الحصار وأسلحة القتال .

وما زالت كلمات كثيرة مثل الأنبيق (Alambic) والقلى (Alcali) ، والكيمياء (Alchemie) والكحول (Alcohol) شاهدا على فضل العرب فى الكيمياء ، لأن تلك الكلمات عربية أصلا .

وفى الطبيعة كان العرب أول من اكتشف نسبا حقيقيـة بين وزن الأجرام المختلفة ، مـع فقدان الآلات التى تسـهل عليهم هـذه المهمة فنجـد أبا الريحان البيرونى (المتوفى عام ١٠٤٨) يستخرج الثقل النوعى للأجسام ، بأن يزن الجسم فى الهواء أولا ، ثم يزن الجسم ذاته فى الماء بعد أن يدخله فى وعاء مخروطى الشكل ، مثقوب على علو معين ،

وبعدئذ يزن المـاء الذى فاض من الوعاء بسبب ادخال الجسم فيه ، ومن كمية الماء الفائضة كان يعرف حجم الجسم ، ثم يقسـم وزن الجسم فى الهواء على وزن الماء الفائض فيجد الثقل النوعى لمادة الجسم .

وقد تابع العـــلامة « روجر بيكون » تطبيق نظريات ابن الهيثم فى علم الضوء . واقتبس من كتب ابن الهيثم أكثر علمـاء أوربا فى القـرون الوسطى . وله أبحاث طريفـة فى نظرية البصر ، وأثبت أن شبح الجسم الملون هو الذى ينعكس على العين ، وقال : « غلط من ظن أن الابصاريكون بخروج شىء من البصر الى المبصرات يلاقيها » . وابن الهيثم أول من كتب فى أقسام العين ، ورسمها ووضـع أسماء لبعض أجزائها ... وأخـذها عنه الأوربيون ، وترجموها الى لغاتهم . ومن الأسماء التى وضعها ابن الهيثم : الشبكية (Retina) والقرنية (Cornea) والسائل المائى Aqueous humour) والسائل الزجاجى (Vitreous humour)

ومن المرجح أن اكتشاف الابرة المغناطيسية ، يرجع الى الملاحين العرب والمسلمين ... لأن الأقوال التى ترجع بها الى مخترعات الصين يشوبها كثير من الشك . ومثلها الأقوال التى تردها الى اليونان أو الرومان . وشاع بين العـرب نظرية استدارة الأرض ، وهى النظرية التى جاءت قبل كولومبوس ، وكانت سببا من أسباب الاكتشافات المعروفة فى التاريخ .

ومما يبرز طول باع العرب فى الملاحة ، استخدام بعض الألفاظ العربية فى اللغات الأوربية فى هذا المضـــمار . فرياح الموسـم يسميها الفرنسيون (Musson) ، والايطاليون (Mousone) . والنواتية يسميهم الفرنسيون (Nautonniers) . والملاحون العـرب يسمون ضجيج البحـــر بالهول ، فقال الفرنسيون — قياسا على ذلك — (Houle) . أما دار الصناعة فيسميها الفرنسيون (Arsinale) ، ويسميها الايطاليون (Darcena) . وربط العرب مراكبهم بالحبال أو الأمراس أو المرار (جمع مر) ، فسمى الايطاليون الحبل (Amarra) وتوسع الفرنسيون فقالوا (Amaner) ، كما قالوا (Amarrage) .

وكل أسطول لابد له من سفائن تحمل الزاد والمتـاع ، فمنها ما نسـميه اليـوم بالنقالات . أما الأساطيل الاسلامية ، فكانت تخدمها القراقير (جمع قرقور) ، فأخذ الايطاليون اللفظ ، فقالوا فى ذلك (Carraca) ، وقال الفرنسيون (Carraque) والبرتغاليون يقولون (Carcora) . وكان لكل أسـطول سفائن لحمـل الخيول ، وهى تسمى بالطرائد (جمع طريد) — وذلك خلاف الطرادات — فأخـذ الفرنج هـذا اللفظ ، وقال الطليان (Tarrida) ثـم (Dareta) ، وقال الفرنسيون : (Tartane) ومن توابع الأسطول الفلائك (جمع فلوكة) ، فقال الطليان (Fleuca) وقال الفرنسيون (Filauque) وكذلك الشباك قال الايطاليون عنها (Scibecco) وقال الفرنسيون (Chebec) . وهناك أمثلة شتى على ذلك لا تحصى .

وقد ظهر أثر العرب فى الأدب الأوربى واضحا جليا ، ونخص بالذكر « بوكاشيو » و « دانتى » و «بترارك» الايطاليين ، و«شوسر» الانجليزى ، و « سرفانتيز » الاسبانى . وفى عام ١٣٤٩ كتب « بوكاشيو » حكـــاياته المسماة « الصـباحات العشرة » ، وحذا فيها حذو ألف ليلة وليلة ، التى

كانت شائعة فى هذه الفترة من التاريخ ، وقد ضمنها مائة حكاية من طراز حكايات الليالى العربية ، واقتبس منها « شكسبير » مسرحيته « العبرة بالخواتيم » ، كما اقتبس منها « ليسنج » الألمانى احدى مسرحياته وهى « ناثان الحكيم » .

وألف « تشوسر » قصص كانتربرى على غرار هذه القصص ، ومنها قصة السيد التى استمدها من ألف ليلة وليلة العربية .

وربما كانت صلة « دانتى » بالعربية أعظم من صلة « بوكاشيو » و « تشوسر » . فقد عقد بعض المستشرقين مقارنات بين الجحيم عند « دانتى » ، ووصف النار فى « رسالة الغفران » عند أبى العلاء المعرى . ومن يقرأ كتاب « سرفانتيز » المعروف « دون كيشوت » ، لا يداخله الشك فى أنه تأثر بالثقافة العربية التى كانت شائعة فى عصره .

وظهرت فى الأدب الفرنسى قصص تحمل الطابع العربى ، ومن أشهرها قصة «أوقاسين ونيقوليت» (Aucassin et Nicolette) واسم البطل«أوقاسين» ما هو الا تحريف للاسم العربى « قاسم » . وترجمت قصص « كليلة ودمنة » الى الاسبانية واللاتينية فى القرن الثالث عشر ، ثم ترجمت الى الفرنسية . ويجد بعض النقاد مشابه شتى بين هذه القصص و « خرافات لافونتين » فى الأدب الفرنسى

وفى الأدب الأوربى الحديث ظهرت آثار العرب واضحة جلية كذلك .. فهذا هو « لورد بيرون » — زعيم الحركة الرومانتيكية فى الأدب الانجليزى — ينظم قصيدة رائعة عن « روح الاسلام » . كما رحل الشاعر الفرنسى الرومانسى « لامارتين » الى الشرق ، واستوحى بعض قصائده من سحر الشرق . ونظم الشاعر الألمانى « جوته » ديوانا برمته عن الشرق ، أطلق عليه « الديوان الشرقى للمؤلف الغربى » . كما أن الشاعر « هاينى » — شاعر العذاب والابداع — استوحى الشرق فى بعض قصائده ، وهنالك مسرحية انجليزية بعنوان « حسن » (Hassan) ، ألفها الشاعر الانجليزى الكبير « جيمس الورى فلكر » صاحب ديوان « جسر النار » . ولا شك أنها مستمدة من سحر الشرق وأسماء العرب .

ويقول المستشرق الكبير « هاملتون جب » (Gibb) فى كتاب « تراث الاسلام » انه ليس من الغلو فى شىء أن نقول انه لولا كتاب « ألف ليلة وليلة » لما استطاع « دانيل ديفو » أن يؤلف رحلة « روبنصن كروزو » . ويرى بعض الباحثين أن كتاب « ديفو » مبنى كذلك على «رسالة حى بن يقظان » لابن طفيل . وقد ترجم هذا الكتاب عن العربية فى القرن السابع عشر من الميلاد .

ويقول الدكتور جب كذلك : ان « ألف ليلة وليلة » كانت من العوامل التى دفعت « سويفت » الى كتابة « رحلات جليفر » المشهورة .

ولا يستطيع أحد أن ينكر أثر الفنون والصناعات العربية فى أوربا ، عند عقد المقارنة بين الآثار العربية فى المشرق والمغرب . ولا بد من الاعتراف بأن بعض الآت الموسيقية التى شاع استخدامها فى أوربا ، قد أخذت عن العرب ، وبعضها — مثل العود — لا يزال يسمى باسمه العربى فى جميع اللغات الأوربية (Lute) .

وشاعت أحوال الحضارة العربية فى أوربا ، وتفشت فى شتى المجتمعات ، سواء أكان ذلك من طريق المعاشرة أم الاتباع فى الحكم أم تبادل

المتاجر . ومن الأسماء ذات الأصول العربية فى مظاهر تلك الحضارة كلمات :

قطن	Cotton
الحرير الموصلى («الموسلين»)	Muslin
الجبة	Jupe
المسك	Musk
العطر	Attard
الزعفران	Saffron
الجرة	Jar
الصفة (المقعد الطويل)	Sofa
الأرز	Rice
الليمون	Lemon
السكر	Sugar
القهوة	Coffee

وغير ذلك من الأسماء ذات الأصول العربية .

ولم يقتصر الأمر على دخول هذه الأسماء الى اللغات الانجليزية والفرنسية والايطالية ، بل دخل الى اللغتين الاسبانية والبرتغالية ألفاظ يضيق بها الحصر .

وقد أصدر الدكتور « وينر » — الأستاذ بجامعة هارفرد — مجلدين ضخمين حاول أن يثبت فيهما أن الحضارة الأوربية ذات أصول عربية ، ورد اشتقاق كثير من الكلمات فى اللغات الأوربية الى مصدر عربى .

وأشار الأستاذ « نيكلسون » — فى كتاب « تراث الاسلام » — الى المشابهات بين أقوال الصوفية المسلمين وأقوال الصوفية الأوربيين : من الأقدمين مثل « اكهارت » الألمانى ، والمحدثين مثل « ادوارد كاربنتر » الانجليزى .

وكان « اكهارت » ينادى — كما ينادى ابن العربى — بأن الله هو الوجود الحق ولا موجود سواه ، وأن الحقيقة الالهية تتجلى فى جميع الأشياء ، ولا سيما روح الانسان ، التى مصيرها الى الاتصال بالله من طريق الرياضة والمعرفة والتسبيح ، وأن صلة الروح بالله ألزم من صلة المادة بالصورة ، والأجزاء بالكل ، والأعضاء بالأجسام .

ويرى الأستاذ « آسين بلاسيوس » الاسبانى أن نزعات « دانتى » الصوفية وأوصافه لعالم الغيب ، مأخوذة من محيى الدين بن عربى بغير تصرف كثير .

وقد نقل الأوربيون من الشرق الأرقام الهندية ، وكانوا يستعملون من قبل الأرقام اللاتينية . وهى — من حيث تعقدها وضخامتها — لا يمكنها أن تخدم العلم الحديث .

ويقول المستشرق « ليبرى » : ان العرب اذا استحقوا الخلود فانهم يستحقونه غالبا لأنهم حفظوا كثيرا من الثقافات الاغريقية ، الى جانب ثقافتهم العريقة ، فى وقت كانت فيه أوربا تتخبط فى ظلمات يموج بعضها فوق بعض .

دكتور جمال الدين الرمادى

موسى بن نصير

موسى بن نصير أحد أبطال الاسلام ، ومن أشهر قواده العظام الذين ساهموا بنصيب وافر فى الفتوح العربية الكبرى ، ويقترن اسمه بفتح بلاد المغرب والأندلس .

ولد موسى بن نصير سنة ١٩ هـ (٦٤٠ م) فى خلافة عمر بن الخطاب بوادى القرى . وكان أبوه نصير قائما فى حرس معاوية بن أبى سفيان . وقيل انه كان وصيفا لعبد العزيز بن مروان ، فأعتقه ، وأصبح موسى بن نصير مولى لعبد العزيز بن مروان . وعينه الخليفة عبد الملك بن مروان عاملا على العراق مع بشر بن مروان ، ثم أخذت عليه

بعض مآخذ ، وعتب عليه عبد الملك بن مروان وأراد قتله ، فافتداه منه عبد العزيز بن مروان والى مصر عال ، وأجاره ، وجعله فى قصره لما شاهده من لباقته وحسن تصرفه وحكمته .

وكانت بلاد المغرب قد تم فتح أغلبها بفضل جهود عقبة بن نافع الفهرى وأبى المهاجر دينار وزهير بن قيس البلوى وحسان بن النعمان الغسانى ، ولم يبق منها سوى المغرب الأقصى . فلما توفى حسان بن النعمان سنة ٧٨ هـ (٦٩٧ م) ، ولى عبد العزيز بن مروان موسى بن نصير على افريقية (تونس) ، ومايليها سنة ٧٩ هـ (٦٩٨ م) . فتوجه اليها على رأس جيش من وجوه العرب ، وجند من أهلها من يتصف بالقوة والجلد ، وجعل فى مقدمتهم طارق بن زياد . فأخذ يقاتل البربر ، ويفتح بلادهم ومدائنهم ، ويبعث بغنائمه الى عبد العزيز بن مروان والخليفة عبد الملك ... حتى زال ما كان يحمله الخليفة عليه فى نفسه من ضغائن وأحقاد . فلما توفى عبد الملك بن مروان سنة ٨٦ هـ (٧٠٥ م) ولى الخلافة بعده ابنه الوليد ، وبلغه ماتم من فتوح فى المغرب على يدى موسى بن نصير ، فعظمت منزلة موسى عنده ، واشتد عجبه به .

ولم يزل موسى يفتتح مدن المغرب الأقصى ، حتى بلغ طنجة — قصبة بلاد المغرب وأعظم مدنه — فحاصرها حتى افتتحها ، وأقام عليها قائد جيشه طارق بن زياد . واستعصت عليه مدينة سبتة لمناعتها ووصول الامدادات اليها من اسبانيا القوطية عن طريق البحر ، وكان يحكمها من قبل البيزنطيين حاكم اسمه جوليان ، ويسميه العرب يوليان .

ترك موسى قائده طارق على حصار سبتة برا ، وعاد هو الى مدينة القيروان ، قاعدة المسلمين بالمغرب ، وأخذ ينظم البلاد ، ويعمل على نشر الاسلام بين البربر ... فنجح فى ذلك نجاحا كبيرا . وأصبح الفتح العربى للمغرب فتحا عسكريا ومعنويا فى آن واحد ، اذ ضمن انتقال أمة البربر الى الدولة العربية من طريق الاستعراب واعتناق الدين الاسلامى .

ثم حدث أمر لم يكن فى الحسبان ، اذ قام بين الكونت جوليان و « رودريجو »[1] ، ملك اسبانيا القوطية ، عداء دفع جوليان الى تحريض العرب على غزو اسبانيا . وقيل ان سبب نقمة جوليان على رودريجو ملك القوط فعلة شنيعة فعلها بابنته فلورندا ... فقد كانت العادة وقتئذ أن يرسل الأمراء بناتهم الى بلاط الملك بطليطلة للتأدب والتهذيب وتعلم آداب الملوك . وكان جوليان قد بعث ابنته فلورندا الى بلاط رودريجو وفقا للعادة المتبعة . وكانت فلورندا بارعة الجمال ، فوقعت موقعا حسنا فى عين رودريجو ، فاستدرجها اليه واستكرهها .

وعلم جوليان بما حدث لابنته ، فغضب لذلك أشد الغضب ، وأقسم على الانتقام من رودريجو انتقاما رهيبا . فأجاز الى اسبانيا ، وآثر أن يكتم ما بنفسه حتى يسترد ابنته . وذكروا أن رودريجو أنكر عليه مجيئه فى ذلك الوقت ، فتعلل جوليان بقصة ابتكرها من وحى خياله : فقد ادعى أن زوجته فى أشد حالات المرض ، وأنها تتلهف لرؤية ابنتها ، وتلح فى ذلك الحاحا متواصلا قبل أن يدركها الموت . فتأثر رودريجو لما حدث ، ووافق على طلب جوليان استعادة ابنته .

وقيل انه لما ودعه قال له رودريجو : اذا قدمت علينا ، فاستفره لنا من الشذانقات[1] التى لم تزل تطرفنا بها ، فانها آثر جوارحنا لدينا . فأجابه

(١) يسميه العرب « لذريق » .

جوليان : أيها الملك ، وحق المسيح لئن بقيت لأدخلن عليك شذانقات ماحل عليك مثلها قط .

وعرض له بما كان يضمره فى نفسه من السعى فى ادخال العرب اسبانيا .

فما كاد يصل الى سبتة حتى مضى من فوره الى موسى بن نصير سنة ٩٠ هـ (٧٠٨ م) ، وأخذ يصف له حسن الأندلس ومزاياها ، وما جمعت من صنوف المنافع والمرافق وطيب المزارع وتعدد الثمار وكثرة الأنهار ، ويكشف له عن عوراتها ومواضع الضعف فيها ، ويحرضه على فتحها ، ويذلل له الصعوبات ، ويهون عليه أمر فتحها . وعاهده أن ينضم اليه هو وعدد كبير من النبلاء ، أصحاب الحق الشرعى فى ملك اسبانيا الذى اغتصبه رودريجو .

وكانت لهذه المقابلة آثارها فى نفس موسى بن نصير ، واطمأن الى جوليان ، ووثق بصدق ماحدثه به ... فبادر بالكتابة الى الوليد يستأذنه فى فتح اسبانيا ، فرد عليه الوليد قائلا : « خضها بالسرايا حتى ترى وتختبر شأنها ، ولا تغرر بالمسلمين فى بحر شديد الأهوال » . فعاد موسى الى مكاتبة الخليفة ، وذكر له « أنه ليس ببحر زخار » ، وانما هو زقاق يستبين للناظر ما وراءه . فنصحه الوليد بأن يختبرها بالسرايا قبل مغامرته .

عندئذ بعث موسى سرية مؤلفة من أربعمائة فارس من البربر ، وأقام عليهم مولى من مواليه البربر اسمه طريف بن مالك المعافرى ، ويكنى أبا زرعة . ووضع جوليان سفنه فى خدمة موسى ، فعبر طريف الزقاق فى أربع سفن ، ونزل بجزيرة يقال لها جزيرة طريف — وتسمى اليوم برأس طريف — وأغار طريف على الجزيرة ، فأصاب غنائم وسبيا لا مثيل له .

فلما عاين موسى مدى نجاح الطليعة ، استنجد عزما لفتح الأندلس ، وأعد جيشا مؤلفا من سبعة آلاف فارس منهم ثلاثمائة من العرب ، وبقيتهم من البربر . وقيل اثنى عشر ألف فارس .

وألقى موسى آمر قيادة هذا الجيش الى مولاه طارق بن زياد ، فهيأ جوليان له السفن اللازمة ومضي معهم . وعبرت السفن الزقاق فى رجب سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) .

تقدمت الجيوش الاسلامية فى داخل الأندلس ، وتوالت غاراتهم على الجزيرة الخضراء . وكان رودريجو مشغولا وقتئذ بقمع ثورة ببنبلونة قام بها حزب الملك المخلوع . فلما بلغه الخبر عظم عليه الأمر ، وبادر الى ملاقاة العرب فى جيش عرمرم ، تبلغ عدته نحو مائة ألف من ذوى العدة والعدد . فكتب طارق الى موسى يستمده ، ويخبره بفتحه الجزيرة الخضراء واستيلائه على منطقة البحيرة ، وأن رودريجو زحف اليه بما لا قبل له به . فبعث اليه موسى مددا مؤلفا من خمسة آلاف فارس تقوى به جيش طارق .

ولما نجحت حملة طارق الى حد بعيد ، رأى موسى بثاقب فكره ضرورة ضم مدن غرب الأندلس ، والاستيلاء على حصونها ، خشية أن يقطع القوط خط الرجعة على طارق . فعزم على أن يقوم بهذه المهمة بنفسه ، وجاز الزقاق فى شهر رمضان سنة ٩٣ هـ على رأس جيش مؤلف من ثمانية عشر ألفا . وقيل انه رغب فى أن ينال نصيبا من شرف الغزو ، فأقدم على ذلك بدافع من الغيرة والحسد ، مما أصابه طارق من نجاح .

ونزل موسى فى جبل يعرف بجبل موسى ، ودخل الجزيرة الخضراء ، وأتم فتح المدن التى لم يتيسر لطارق فتحها ، مثل قرمونة ، وكانت من أحصن مدن الأندلس . ثم مضى الى اشبيلية ،

(١) الشذانقات : جمع شيذق أو شواذق ، وتعنى الصقور .

فامتنعت عليه أشهرا ثم فتحها ، واتجه بعدها الى ماردة فافتتحها صلحا سنة ٩٤ هـ . وفتح لبلة والتقى مع طارق فى طلبيرة ، وتعاونا معـا على فتح بقية شبه الجزيرة ... فارتقيـا الثغر الأعلى ، وافتتحا سرقسطة وبرشلونة ، وأوغلا فى البلاد حتى تم لهما فتح بقية اسبانيا معا : فافتتحا حصن بارو وحصن لك ، وبثا السرايا حتى بلغا صخرة بلاى على البحر الأخضر ، وأشرفا من هنـاك على الأرض الكبيرة (فرنسا) .

وخطر لموسى أن يعود الى المشرق من ناحية القسطنطينية « ويتجاوز الى الشام دروبه ودروب الأندلس ، ويخوض اليه ما بينهما من أمم الأعاجم النصرانية ، مجاهدا فيهم مستلحما لهم ، الى أن يلحق بدار الخلافة » . ونمى الخبر الى الوليد فبعث اليه رسـولا يأمره بالكف عن التوسـع ، ويستدعيه اليه هو وطارق . فخاب أمل موسى فى اختراق ما بقى من بلاد افرنجة ، واقتحام الأرض الكبيرة ، حتى يصل الى الشام ... وقفلاعائدين الى المشرق . وفى طريقهما مرا على اشبيلية ، فاستخلف موسى ابنه عبد العزيز على الأندلس ، واختار له اشبيلية مقرا له لاتصـالها بالبحر ، نظرا لقربه من مكاره المجاز . واستخلف موسى على طنجة وما يليها من بلاد المغرب ابنه الآخر عبد الملك . واستخلف بأفريقية (تونس) أكبر أولاده عبد الله .

ويغلب على الظن أن نزاعا حـدث بين موسى وطارق بشأن « مائدة سليمان » التى غنمها طارق من طليطلة ، وأنه تخاصم مـع مغيث الرومى ، رسول الخليفة الوليد اليه ، اذ طلب منه مغيث أن يسلمه حاكم قرطبة القوطى الذى أسره مغيث عند فتحه لقرطبة ، فامتنع موسى وقتل الأمير القوطى . واتفق طارق ومغيث على الوشاية بموسى بن نصير عند الخليفة .

أدرك موسى دمشق . وقدم على الوليد قبل وفاته ، وسلمه الطرائف التى غنمها المسلمون ، من الدر والياقوت والزبرجد والتيجان المكللة بالدر والياقوت والجوهر ، فأمر الوليد بضمها الى بيت المال[1] ، وما لبث أن مات . وآلت الخـلافة الى سليمان ، فشكا اليـه مغيث وطارق من موسى ، وكيف قتل الأمير القوطى . وبالغ طارق فى وصف ما غنمه موسى من الجوهر ، وقال : « انه قد غل جوهرا عظيم القدر أصابه ، ولم تحو الملوك من بعد فتح فارس مثله » . فزاد ذلك من حقـد سليمان على موسى ، واستقدمه أمامه ، وعنفه وقال له : « والله لأفلن غربك ، ولأفرقن جمعك ، ولأضعن من قدرك » . فقال له موسى : « أما قولك تفل من غربى وتخفض من حالى ، فان ذلك بيد الله ، والى الله لا اليك ، وبه أستعين عليك » . فأمر به سليمان أن يقف فى يوم صائف شديد الحر — وكان موسى رجلا بدينا — فوقف حتى سقط مغشـيا عليه ، وأغرمه أموالا لا طاقة له بسدادها ، فافتداه يزيد بن المهلب بألف ألف دينار . ولم يكتف سليمان بذلك ، بل أراد أن يشفى غله من موسى ، فدس الى أهل الأندلس من قتل عبد العزيز بن موسى وهو يؤدى الصلاة فى جامع ربينة سنة ٩٥ هـ ، وأحضر رأسه وطرح أمام أبيه .

وآلت حال موسى أن كان يطاف به ليسأل من أحياء العرب ، ليسد رمقه ! ومات وهو من أفقر الناس وأذلهم بوادى القرى سنة ٩٧ هـ .

دكتور عبد العزيز سالم

(١) كان الوليد قد مرض مرضه الذى مات منه ، وكتب الى موسى يأمره أن يتعجل فى قدومه ليدركه قبيـل الموت . وكتب اليه سليمان ، أخو الوليد ، يأمره أن يبطىء فى سيره . وذكر له سليمان أن الوليد فى نزعه الاخير ، ومن الخير أن ينتظر موسى وفاته حتى يقدم الى سليمان الغنائم والتحف الاندلسية . فعمل موسى بكتاب الوليد ، وجد فى سيره . فغضب سليمان ، وأقسم على الانتقام من موسى أشد انتقام .

تنزع هذه الورقة حين يضم الكتب الستة .مجلد واحد

هنا يباع كتاب الشعب

القاهرة

مكتبة النهضة ... ... شارع عدلى
مكتبة الانجلو ... ... شارع عماد الدين
مكتبة الشركة العربية للطباعة والنشر ... ميدان الاوبرا ـ مدخل لوكاندة الكونتننتال
مكتبة العروبة ... ... ٢٢ شارع الجمهورية
مكتبة دار الشرق ... ٨ شارع سليمان باشا
مكتبة سافوى ... ... شارع سليمان باشا
مكتبة فيكتوريا ... شارع عماد الدين
مكتبة زيرونيان ... شارع الالفى
مكتبة ايزيس ... ... شارع الزمالك
مكتبة بهيج ... ... شارع عماد الدين
مكتبة الدلتا ... ... شارع شريف
مكتبة السنى ... ... شارع قصر العينى
مكتبة امال ... ... شارع قصر العينى
مكتبة كرنفال السنى شارع قصر العينى
مكتبة حلولوبنا ... ... الدقى
مكتبة آمون ... ... شارع سعد زغلول بالجيزة
مكتبة الاهرام ... ... ميدان الجيزة
مكتبة الجيزة الحديثة ميدان الجيزة
مكتبة الكرنك ... ... ميدان الجيزة
مكتبة الطلياوى... ... ميدان السيدة زينب
مكتبة الطلياوى الجديدة شارع المبتديان امام دار الهلال
مكتبة كرارة ... ... ميدان السيدة زينب
مكتبة السمر ... ... شارع قدرى
المكتبة العربية ... ... شارع اللبودية بدرب الجماميز
مكتبة عداروس... ... شارع مجلس الامة أمام وزارة الصحة
مكتبة الوفد ... ... شارع الفلكى بباب اللوق
مكتبة سليم ... ... شارع الشيخ ريحان بعابدين
مكتبة شركة امانى ... ٨٨ شارع الشيخ ريحان
مكتبة التاليف ... ... شارع عبد العزيز
مكتبة القاهرة ... ... شارع اسماعيل

مكتبة صديق الجميع شارع محمد على
المكتبة المحمودية ... ميدان الازهر الشريف
المكتبة الحديثة ... الفجالة
مكتبة حكيم ... ... الفجالة
مكتبة الصباح ... ... الفجالة
المكتبة الرحمانية ... الفجالة
مكتبة نور الدين ... شارع فخرى بالظاهر
مكتبة احمد على ... شارع العباسية
مكتبة المطيعى ... ... ميدان عبده باشا
مكتبة اكسفورد ... روكسى ـ مصر الجديدة
مكتبة افريمانس ... مصر الجديدة
مكتبة العائلة ... ... تريمف ـ مصر الجديدة
مكتبة وهبى ... ... ميدان كوبرى القبة
مكتبة الحرية ... ... شارع شبرا
مكتبة الثقافة ... ... شارع الترعة البولاقية
مكتبة بهاء الدين ... شارع روض الفرج
مكتبة الصباح الجديدة شارع شبرا امام مخزن الترام
مكتبة البرماوى... ... المرج

الاسكندرية

مكتبة فيكتوريا ... ٤٢ شارع سعد زغلول
مكتبة السلام ... ... ٤٣ شارع سعد زغلول
مؤسسة المطبوعات الحديثة... ... ... شارع سعد زغلول
مكتبة دار النشر ... ٥٩ شارع صفية زغلول
مكتبة الدار المصرية للطباعة والنشر ...
مكتبة دار الكتاب العربى ... ... ٤ ميدان التحرير
مكتبة دار المناوى ...
مكتبة الجيل الجديد ٤٧ شارع محرم بك
مكتبة المعارف (١) ... شارع راغب امام مسجد سلطان
مكتبة المعارف (٢) ... ١١٠ شارع محرم بك
مكتبة آمون ... ... شارع عبد المنعم (ش المحافظة)

الوجه البحرى

بنها ... ... مكتبة الطالب
الزقازيق ... ... عدلى محمد حسن
الاسماعيلية ... ... مكتبة التعارف
المنصورة ... ... مكتبة الشعب
المنصورة ... ... مكتبة الخولى
المنزلة ... ... مكتبة ومطبعة الكمال
دمياط ... ... مكتبة الحرم
ايتاى البارود ... ... مكتبة الهلال
دمنهور ... ... مكتبة سمارة
كفر الدوار ... ... مكتبة جريدة الشعب
كفر الزيات ... ... مكتبة توزيع الصحف والمجلات شارع الجلاء
فوة ... ... مكتبة الاهرام
دسوق ... ... مكتبة النجاح
دسوق ... ... مكتبة فرج
دسوق ... ... مكتبة صبحى
زفتى ... ... مكتبة الوفا
ميت غمر ... ... المكتبة الاهلية ومطبعتها
طنطا ... ... مكتبة رمسيس
طنطا ... ... مكتبة غانم
طنطا ... ... مكتبة فافا

الوجه القبلى

الفيوم ... ... مكتبة حرب
الفشن ... ... مكتبة المصرى افندى
المنيا ... ... شركة الحسينى للاشغال الفنية
ملوى ... ... مكتبة الشباب
اسيوط ... ... مكتبة الجهاد
اسيوط ... ... مكتبة شوشة
ابو تيج ... ... مكتبة حمدى الجديدة
ابو تيج ... ... مكتبة البعث
طما ... ... مكتبة الطلبة
المراغة ... ... مكتبة مراسل الشعب
سوهاج ... ... مكتبة عثمان همام مازن
المنشاة ... ... مكتبة وبوفيه المحطة
جرجا ... ... مكتبة الطلبة
نجع حمادى ... ... مكتبة جريدة الشعب
دشنا ... ... مكتبة التحرير
الاقصر ... ... مكتبة النهضة
الاقصر ... ... المكتبة الجديدة
اسوان ... ... مكتبة الشعب

مجلة الابتسامة

٢٠

مطابع الشعب


Exclusive
For
www.ibtesama.com